

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اَئِمَّةِ اَلْاُمِّيَّةِ جَامِعَةٍ

العدد السابع والخمسون • السنة الخامسة عشرة • شعبان - شوال ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ = ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

WWW.ahl-ul-bayt.org

البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com

البريد الإلكتروني لإدارة المجلات: Bc@ahl-ul-bayt.org

محتويات العدد

□ كلمة التحرير:

* الإسلام دين الإنسانية لا دين الإرهاب

رئيس التحرير ٤

□ ملف العدد : (الإمام السجاد عليه السلام عبادة أنتجت نهجا)

* أهل البيت عليه السلام، مفخرة الانتماء وضمانة التقريب

إعداد: قسم الأرشفة ١١

* العرفان الإسلامي الأصيل على ضوء المعارف

السجادية

ش. محسن الأراكي ٢٠

* الإمام السجاد عليه السلام، رائد الفقه الإسلامي على مذهب

أهل البيت عليه السلام

س. محمد رضا الحسيني الجلاي ٦٤

* الإمام السجاد عليه السلام ودوره الريادي في مواجهة

انحراف السلطة

أ. حسين بركة الشامي ٨٤

□ دراسات فكرية:

* الراسخون في العلم في مواجهة الفتنة

د. أحمد راسم النفيس ٩٢

* الحرية بين المنظور الإسلامي والفكر الغربي

أ. حفيظ الرحمن الأعظمي ١١٩

* قضايا النهوض العربي الإسلامي وحوار

الحضارات

د. عبد الله أبو هدف ١٤١

• تعنى بالدراسات والنتائج الفكرية، خصوصاً التي تصب في خانة الدفاع عن حريم القرآن الكريم والنبى ﷺ، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.

• تستقبل رسالة الثقلين نتائج العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:

◀ أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجيةً ومضموناً.

◀ أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.

◀ أن لا تكون عملاً مكرراً، بل لا بد أن تحتوي على شيء من التجديد والحداثة. والأولوية دائماً للدراسات الفكرية المستحدثة.

◀ أن لا تتقص عن عشر صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصفحة الواحدة تتضمن (٢٥٠) كلمة.

◀ أن تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحة واحدة.

• الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.

• تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنية محضة.

• لا تعاد المقالات المرسلة إلى المجلة، نُشرت أم لم تشر.



المجمع العالمي للإسلام والتنمية

المشرف العام
الشيخ محمد حسن اخري

تصدر عن
المعاونية الثقافية - إدارة المجلات

رئيس التحرير
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير
السيد علي الموسوي

العدد السابع والخمسون
السنة الخامسة عشر
شعبان - شوال
١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المطبعة: ليلي - طهران
٠٠٩٨ - ٢٢ - ٩٢٤٨٥١٨٢ ☎

* دور الإسلام المحمدي الأصيل في مواجهة النزعة
القبلية والطغيان السياسي

..... أ. نبيل علي صالح ١٦٤

* الغزو الحضاري للعالم الإسلامي في عصر
التطور التكنولوجي

..... ش. مُحَمَّد مهدي الآصفي ١٨١

□ رجال صدقوا:

* أويس القرني، حين يولد الزهد شهيداً

..... ش. مُحَمَّد قبيسي ١٨٨

* العلامة العسكري رحمته الله، عمرٌ مديد في خدمة الإسلام

..... إعداد: قسم العلاقات ٢٠٥

□ شبهة وجواب:

* شبهة اليهود حول قصّة موسى عليه السلام مع العبد
الصالح

..... أ. علي الشيخ ٢١٧

□ تقارير ومتابعات:

* آثار خطاب الرئيس نجاد في جامعة كولومبيا

..... علي أحمد الحسن ٢٢٣

* المؤتمر الرابع للجمعية العامة للمجمع العالمي
لأهل البيت عليهم السلام

..... إعداد: قسم العلاقات العامة ٢٢٧

* بعضُ من إصدارات المجمع العالمي لأهل
البيت عليهم السلام

..... إعداد: قسم التحقيق ٢٣٢

□ يريد القراء:

..... أسرة التحرير ٢٣٧

□ فهرست السنة الرابعة عشرة:

..... أسرة التحرير ٢٤١

الإسلام

دين الإنسانية لا دين الإرهاب

□ بقلم: رئيس التحرير

إنَّ المطالع للأحاديث الواردة عن النَّبِيِّ ﷺ وأهل بيته الكرام عليه السلام يستطيع أن يُصنِّفها باعتبار ما تتضمنه من نصوصٍ ومضامين - بعد فهمها - إلى أصنافٍ، وقد لفت نظري منها تلك النُّصوص التي تُعلِّق الإيمان بالله واليوم الآخر على قيام المكلف بفعلٍ من الأفعال. ولو تأملنا بهذه الأفعال التي علِّق عليها الإيمان بالمبدأ والمعاد لوجدنا معظمها لولا الكلِّ ممَّا يرتبط بأمرٍ اجتماعيٍّ إنسانيٍّ.

وهذه ظاهرة - باعتقادي - تحتاج إلى قراءةٍ متأنيةٍ ودراسةٍ معمَّقةٍ، يمكن أن تكون سبباً للكشف عن نظريَّةٍ إسلاميَّةٍ تكون سبَّاقةً في بابها من كُُلِّ النُّظم والقوانين الوضعيَّة التي تدعو إلى جعل القيمة للإنسان على أساس ما يملك من إنسانيَّةٍ وعاطفةٍ جيَّاشةٍ تجاه خلق الله تبارك وتعالى.

وفي الابتداء لا بدَّ لنا من استعراض جملةٍ من هذه النُّصوص حتَّى تكون انطلاقةً لنا فيما نرمي إليه.

- روى الحسين بن سعيد الأهوازي، عن أبي عبد الله ﷺ، عن النَّبِيِّ ﷺ:

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَجْلِسُ فِي مَجْلَسٍ يُسَبُّ فِيهِ إِمَامٌ، أَوْ يُعْتَابَرُ فِيهِ مُسْلِمٌ؛ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ بَيْنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ وَلَمَّا يَنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الإنعام: ٦٨]»^(١). ومحلُّ الشَّاهد فيه تعليق الإيَّان بالمبد والمعاد على ترك المشاركة في اغتياب المسلم.

- روى مُحَمَّد بن جرير الطَّبْرِي بإسناده إلى ابن مسعود، قال: «جاء رجلٌ إلى فاطمة عليها السلام، فقال: يا ابنة رسول الله صلَّى الله عليه وآله! عندك شيئاً تطرفينه^(٢)؟ فقالت: يا جارية! هاتِ تلك الحرية. فطلبتها فلم تجدها، فقالت: ويحك! اطلبيها، فإنَّها تعدل عندي حسناً وحسيناً. فطلبتها، فإذا هي قد قممتها في قيامتها، فإذا فيها: قال مُحَمَّد النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وآله: ليس من المؤمنين مَنْ لم يأمن جاره بوائقه، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خيراً أَوْ يَسْكُتْ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْخَيْرَ الْحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ، وَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الضَّنِينَ السَّئَالَ الْمَلْحَفَ. إِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْفَحْشَ مِنَ الْبَذَاءِ، وَالْبَذَاءُ فِي النَّارِ»^(٣).

- وفي الصَّحِيح عن شعيب العنقرقي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَفِ إِذَا وَعَدَ»^(٤).

- وفي الخبر عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَسْتَعْمَلَنَّ أَجيراً حَتَّى يَعْلَمَهُ مَا أَجْرُهُ...»^(٥).

- روى زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: مِمَّا عَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام أَنْ قَالَ لَهَا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(٦).

- رُوي عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «مَا آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ بَاتَ شَبَعَاناً وَجَارَهُ جَائِعٌ...»^(٧).

هذا، وقد رُوي مثل ما تقدَّم عن مسانيد إخواننا أهل السُّنَّة وصحاحهم، فليراجع^(٨).

وكما لاحظنا في هذه النصوص وفي غيرها قد ارتبط الإيمان بالله واليوم الآخر بأمور:

منها: ترك المشاركة في اغتياب المسلم ونهش عرضه.

ومنها: كف الأذى عن الناس، وحفظ اللسان معهم، والجار يمثل المصدق الألتصق لهذه المعاملة، وللمبالغة كانت الحريرة التي تحوي مثل هذه التعاليم تعدل عند بنت المصطفى ﷺ حسناً وحسيناً ﷺ.

ومنها: أن يفى الإنسان بالتزاماته ووعوده تجاه بني جنسه أفراداً وجماعات.

ومنها: المحافظة على اليد العاملة؛ بعدم إضاعة حقوقها، ولو عن طريق عدم المقاطعة المسبقة معها.

ومنها: إكرام الضيف لأجل توطيد العلاقة الطيبة بين أفراد المجتمع الإنساني، كما تدل على ذلك إطلاق كلمة الضيف وعدم تقييدها بالمسلم أو المؤمن.

ومنها: الشعور بمرارة عيش الآخرين، ومشاركتهم في مصائبهم، والتخفيف عنهم، ذلك الذي يمثل الإطعام واحداً من صوره البارزة.

وكُلُّ هذه الأمور التي ذُكرت - والتي كما لاحظنا ترجع إلى البعد الاجتماعي والعاطفي في ارتباط الإنسان بأخيه الإنسان - تعادل الإيمان بالمبدأ والمعاد؛ مما يدل على أهمية العلاقة الاجتماعية التي يُعبر عنها بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وأنها لا تقل عن العلاقة بين الإنسان وخالقه.

والذي نريد أن نرمي إليه بصراحة من خلال استعراضنا لهذه الأحاديث الشريفة أن الدين والتدين ليس هو محض طقوس خاصة بين العبد وربّه، وليس هو مجرد كثرة صلاة وصيام وإسدال للحى وتشمير للثياب، إلّا بقدر ما ينعكس ذلك على خلق الله الذين ورد في الحديث أنهم عياله، وأن أحب الناس إلى الله أشفقهم على عياله، وأنفعه لهم^(٩).

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: «خصلتان ليس فوقهما من البر شيء: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله. وخصلتان ليس فوقهما من الشر شيء: الشرك بالله، والضّر لعباد الله»^(١٠).

وإلى هذه الحقيقة ترمي جملة من الآيات أيضاً، والتي نمر عليها بإشارة سريعة.

- قال تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَأَلْتَمَعَ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾، فنلاحظ أنه جمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وبين إتيان المال ذوي القربى واليتامى والمساكين والصلاة والزكاة والوفاء بالعهد.. ليتشكّل بذلك البرّ الكامل.

- وجاء في سورة التوبة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَىٰ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَىٰ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

- ومن لطائف الآيات التي يمكن أن نستشهد بها لما نحن فيه ما ورد في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾. وهذه الآية تحتاج إلى شيء من بسط الكلام، فنقول:

إنّ هذه الآية الشريفة قد قسّمت الولي المفترض الطاعة إلى قسمين: أحدهما: الولي المفترض الطاعة بالذات، وهو الله تبارك وتعالى الخالق الرّب المنعم المدبّر.

ثانيهما: الولي المفترض الطاعة بالتبع، أي: بتبع ولاية الله.

وهذا بدوره ينقسم إلى نبيٍّ ووصيٍّ، فالأول أفاده على وجه ذكر ما يدلُّ عليه صراحةً؛ وذلك بقوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾، والثاني بذكر وصفٍ عام ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ووصفين خاصين من أوصافه ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾. ولما جاء وصف الإيمان متأخراً عن ذكر ولاية الله ورسوله، اقتضى ذلك أن يكون متعلّق الإيمان هو الإيمان بالله ورسوله وولايتهما، وذلك يقتضي الاعتقاد باليوم الآخر أيضاً؛ لأنّه من لوازم الاعتقاد بوجود خالقٍ قد أرسل رسولاً برسالة.

ثمّ فسّر المؤمن بالمبدأ والمعاد وجميع شرايطه بذكر وصفين له: الأول: يرتبط بمقام العبوديّة لله تعالى، وهو وصف إقامة الصلّاة. والآخر: يرتبط بمقام الإنسانيّة والشّعور مع الآخرين، وهو إتيان الزّكاة. ليدلّ ذلك على أنّ مقام الولاية يتقوّم بعنصرين: العبوديّة المحضة لله، والشفقة على عباده.

ولما كانت هذه الآية قد نزلت في حقّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في حادثه تصدّقه بخاتمه وهو راعٍ في المسجد^(١١)، فنلاحظ أنّها تركت جميع أوصافه الكاملة، والتي لا تعدّ ولا تحصى - قال الصّفي الحليّ:

جُمِعَتْ فِي صِفَاتِكَ الْأَضْدَادُ فَلِهَذَا عَزَّتْ لَكَ الْأَنْدَادُ
زَاهِدٌ حَاكِمٌ حَلِيمٌ شَجَاعٌ نَاسِكٌ فَاتِكٌ فَقِيرٌ جَوَادٌ
شِيمٌ مَا جُمِعَ فِي بَشَرٍ قَطُّ وَلَا حَازَ مِثْلَهُنَّ الْعِبَادُ
خُلِقَ يُجْجَلُ النَّسِيمَ مِنَ اللَّطْفِ وَبَأْسٌ يَذُوبُ مِنْهُ الْجِمَادُ
ظَهَرَتْ مِنْكَ لِلْوَرَى مَكْرُمَاتٌ فَأَقْرَبَتْ بِفَضْلِكَ الْحَسَادُ
جَلَّ مَعْنَاكَ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الشَّعْرُ وَتُحْصَى صِفَاتِهِ النُّقَادُ^(١٢) -

واقترنت على ذكر الوصفين المذكورين؛ ليدلّ ذلك على أنّ عظمة عليّ نشأت من عبوديته لله تبارك وتعالى ومن إنسانيّته وعاطفته الجياشة تجاه عيال

الله.

وهذا ما ينبغي أن يلتفت إليه أولئك الذين يشوهون الدين بأعمالهم الوحشية التي يقومون بها - بحسب ادّعائهم - من منطلق تدينهم، والحال أنّها أبعد ما تكون عن ذلك..

وهي رسالة للجميع.. للجميع بلا استثناء.. فليعرفوا أنّ الإسلام دين الإنسانيّة، دين الرّحمة، دين العطف، دين المعاملة.. على الرّغم من عدم تساهله مع من يُريد بالإنسانيّة سوءاً، وليس ذلك إلّا لأجل القضاء على الوحشيّة الناشئة من الإنجرار وراء غريزة الغضب والحقد الأعميين؛ لينعم خلق الله تعالى في أمنٍ وطُمأنينةٍ وهدوءٍ وسلام..

* * *

الهوامش:

- (١) الأهوازي، الحسين بن سعيد، كتاب المؤمن: ٧٠، باب: ما حرّم الله على المؤمن، الحديث: (١٩٢)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤٠٤، قم.
- (٢) أي: تتحفيني به.
- (٣) الطّبري الصّغير، محمّد بن جرير بن رستم، دلائل الإمامة: ٦٦، تحقيق: قسم الدّراسات الإسلاميّة في مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى ١٤١٣، قم.
- (٤) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي ٢: ٣٦٤، كتاب الإيمان والكفر، باب: خلف الوعد، الحديث: الثاني، تصحيح وتعليق: على أكبر غفاري، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلاميّة طهران.
- (٥) المصدر نفسه ٥: ٢٨٩، كتاب المعيشة، باب: كراهة استعمال الأجير قبل مقاطعته على أجرته، الحديث: (٤).
- (٦) المصدر نفسه ٦: ٢٨٥، كتاب الأطعمة، باب: حقّ الصّيف وإكرامه، الحديث الثاني.
- (٧) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ٧٤: ١٩١، الطبعة الثالثة ١٤٠٣، دار إحياء الثّراث، بيروت.
- (٨) راجع: الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ٢: ١٧٤، دار صادر، بيروت. الدّارمي، عبد الله بن

- بهرام، سنن الدارمي ٢: ٩٨، باب الضيافة، طبع بعناية محمد أحمد دهمان ١٣٤٩ هـ.ق، دمشق.
- البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ٦: ١٤٥، كتاب النكاح، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١ م، مصورة عن طبعة دار الطباعة العامة باستانبول.
- مسلم النيسابوري، الجامع الصحيح (صحيح مسلم) ١: ٤٩، نشر: دار الفكر، بيروت.
- (٩) راجع: الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة ١٦: ٣٤١، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب: (٢٢)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى ١٤١٢، قم. ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٤٠، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصورة عن الطبعة الثانية ١٣٨٥ للدار لإحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ١٤٠٤. الحافظ أبو يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى ٦: ٦٥، تحقيق: حسين سليم أسد، الطبعة الثانية ١٤١٢، نشر: دار المأمون للتراث.
- (١٠) تحف العقول لابن شعبة: ٣٥، تصحيح وتعليق: على أكبر الغفاري، الطبعة الثانية ١٤٠٤، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (١١) راجع: الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٦: ٣٨٩، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر ١٤١٥، بيروت. الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ١: ٢٠٩، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١١، نشر: مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم ٢: ٧٣، تقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشي، نشر: دار المعرفة ١٤١٢، بيروت. السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢: ٢٩٣، دار المعرفة، بيروت.
- (١٢) راجع تمام القصيدة في أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ٨: ٢٢، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، نشر: دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

الإمام السجاد عليه السلام

عبادة أنتجت نهجاً



أهل البيت عليه

مفخرة الانتماء، وضمانة التقريب (*)

□ إعداد: قسم الأرشفة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد وعلى آله الأطيبين الأطهرين، وصحبه المنتجبين، سيما بقية الله في الأرضين. أرحب بالضيوف الأعزاء والمجتمعين في هذا المؤتمر، وأبارك للجميع الولادات الشعبانية الميمونة.

محور مؤتمركم هذا ومؤتمراتكم الأخرى أيها الإخوة والأخوات المنتسبون لمجمع أهل البيت عليه محور عظيم جداً؛ إنه محور أهل بيت الرسول عليه، وهو أمر صرح القرآن الكريم بأهميته؛ حيث قال: ﴿لَا تَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ووردت كذلك في الأحاديث

(*) خطاب ألقاه قائد الأمة الإسلامية الإمام الخامنئي رحمه الله لدى استقباله لأعضاء الجمعية العامة للمجمع العالمي لأهل البيت عليه في تاريخ: ٥ شعبان ١٤٢٨ هـ.

النَّبَوِيَّةُ كَرَاراً فَضَائِلَ صَرِيحَةً لَا تَقْبَلُ النُّكْرَانَ فِي حَقِّ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 منها: حديث الثقلين المعروف، الَّذِي جَعَلَ الْعَتَرَةَ إِلَى جَانِبِ كِتَابِ اللَّهِ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي...»^(١). وهو حديثٌ متواترٌ بين المسلمين.
 ومنها: الحديث المعروف، وربما يكون متواتراً: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح مَنْ ركبها نجا، وَمَنْ تركها غرق»^(٢).
 وكثيرٌ من الأحاديث الأخرى.

هذا هو العنوان الفاخر والسامق والبالغ العظمة لمحور اجتماع الحاضرين هنا. مع التأكيد على أَنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ يَحِبُّونَ أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، باستثناء عددٍ قليلٍ جداً من النَّوَاصِبِ وَمَنْ شَاكَلَهُمْ. فرق المسلمين كُلُّهَا تَوَدُّ أَهْلَ بَيْتِ الرَّسُولِ، وتُعْتَرِفُ بِمَكَانَتِهِمُ السَّامِقَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، إِلَّا أَنَّ الشَّيْعَةَ هُمْ: «المُعْتَرِفُونَ بِتَصَدِيقِنَا إِيَّاكُمْ»^(٣) على حَدِّ تعبير الزَّيَارَةِ الْجَامِعَةِ. إِنَّهُمْ الْمَعْرُوفُونَ بِاتِّبَاعِ الْأُئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَصَدِيقِهِمْ، فَهُمْ يَعْرِفُونَ مَنَازِلَهُمُ الْمَعْنَوِيَّةَ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَكَانَتِهِمْ فِي الْأُئِمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَفِي خِلَافَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

أَنْ يَكُونَ مَحْوَرُ هَذَا الْجَمْعِ أَمْرًا بِهِذِهِ الْأَهْمِيَّةُ وَالْعِظَمَةُ، فَهُوَ بِمَا يَرْفَعُ مَسْتَوَى الْعِلْمِ وَقِيَمَتَهُ، وَيُضْفِي عَلَى رِسَالَةِ الْعَمَلِ الْقِيَمَةَ الْقَصَوَى.
 لماذا نجتمع مع بعضنا؟!

علينا تشخيص هذا الهدف بدقة، ويجب أَنْ نَعْلَمَ مَا الَّذِي نَتَوَخَّاهُ!
 إِنَّ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِي الْيَوْمَ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ لِرِسَالَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَضِيَّةُ اتِّبَاعِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَمَجْمَعُ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَنَدَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الشَّيْعِيَّةِ لَيْسَ نَدَاءً لِبَتِّ الْفَرْقَةِ وَالْاِخْتِلَافِ، خِلَافًا لِمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ ضَيِّقِي الْأُفُقِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَبَعْضُ الْمَغْرُضِينَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَيَكْرِّرُونَهُ دَائِمًا غَيْرَ أَبْوَاقِهِمُ الْإِعْلَامِيَّةَ. لَيْسَتْ الْقَضِيَّةُ قَضِيَّةً نَفِيٍّ بِقَدْرِ مَا هِيَ قَضِيَّةُ إِثْبَاتٍ، فَفِي مَدْرَسَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَقَائِقُ وَأُمُورٌ يَحْتَاجُهَا الْعَالَمُ الْإِسْلَامِي الْيَوْمَ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَغْنِيَ

عنها.

لو اطلع الناس على الصَّحيفة السَّجَّادِيَّة المباركة - الَّذِي حصل الاهتمام بها في هذا المؤتمر لتوقيته بولادة الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) - لوجدوا فيها خلاصة وعصارة أفكار أهل البيت (عليه السلام). تمر في هذه الصَّحيفة المباركة معاني الإيمان العميق، والعرفان البين الخالي من أي غموض، والإقبال التَّام على مبدأ العظمة والمعبود والذَّات الإلهيَّة المقدسة، والاهتمام بأمور النَّاس والمسلمين - جميع الأمور التي تربط بالأفراد وحداناً وجماعات -، والاهتمام بالمفاخر الإسلاميَّة ومكتسبات صدر الإسلام. إنَّه كتاب حياة عرفانيَّة وعقلائيَّة وإلهيَّة؛ إنَّه مجموعة من كُلِّ هذه العناصر. ولا ننسى من جهة أخرى البحر المَواج لأحاديث أهل البيت (عليه السلام) التي يكون العالم الإسلامي في أشدَّ الحاجة إليها خصوصاً في وقتنا الحاضر.

إذا كُنَّا نَجتمع حول محور الاسم المبارك لأهل البيت (عليه السلام) فليس ذلك لأجل أن نُقيم سوراً حول أنفسنا بفصلنا عن باقي المسلمين، بل على العكس من ذلك، من أجل أن نفتح آفاقاً جديدة أمام أنظار المفكرين الإسلاميين، نريد أن نفتح نوافذ جديدة ليرى من خلالها حقائق جديدة.

هذه هي رسالتنا، وهذه هي مسؤوليتنا..

على أتباع أهل البيت (عليه السلام) بالدَّرجة الأولى أن يعترفوا بأنفسهم بهذه الهويَّة السَّاميَّة، عليهم أن يعرفوا قدر هذه الجوهرة الثَّمينة التي في أيديهم؛ حتَّى يستطيعوا بعد ذلك عرضها على الآخرين، وتتوفَّر لديهم الجرأة على تقديمها في سوق الأمتعة المختلفة وعرضها أمام أنظار النَّاس.

هذه هي رسالة مجمع أهل البيت (عليه السلام): الشُّعور بالاعتزاز والفخر بهويَّة أتباع أهل البيت. نحن نفخر بأننا نعرف هؤلاء العظماء، ونشكر الله لأننا لم نبق غافلين عن مراتب أهل بيت النُّبوَّة (عليه السلام)، لقد هدانا الله وفهمنا وعرفنا، فعلينا أن نشعر

بأنه علينا عرض هذه الحقائق على أنظار الناس في العالم، كما كان الأئمة يفعلون، لا بضيق أفق، ولا بنزعة عدوانية، ولا بخلط هذه الجواهر بالخرافات والأفكار الدنيئة. وهذا يعتبر أحد وظائفنا في هذا الوقت بالذات. وهو ما تقع مهمته أولاً وبالذات على عاتق العلماء والنخب، وليس من الأمور التي يمكن أن يضطلع بها أي كان.

ورد في الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام الحث على تعريف الناس بمحاسن كلامهم، التي لو شاهدها الناس كما هي لانجذبوا إليها تلقائياً^٤.

ثمة مؤامرة عميقة وخطيرة جداً لزرع الخلاف بين الفرق الإسلامية، يثيرون في العالم اليوم قضية الشيعة والسنة، بيد أن إيجاد هذا الاختلاف لا يختص بالشيعة والسنة، إنما يريدون لباقي الفرق الإسلامية - في داخل الشيعة والسنة، الفرق الأصولية والكلامية - أن تقف في مواجهة بعضها البعض، ويمسك بعضها بتلابيب بعض، ويهتف بعضها بالويل والثبور ضد بعض. وهذه ليست مؤامرة جديدة؛ إن العدو وخصوصاً الإنجليز متبحرون في هذه الممارسة، ولديهم خبرة طويلة في هذا المجال، فقد عملوا ولسنوات متتالية في هذا الميدان، عملوا لعشرات السنين، بل بمعنى من المعاني لمئات السنين. أجادوا الأداء، وعرفوا نقاط الضعف، ووضعوا اليد عليها لزرع الخلافات وتمزيق الأمة. وهم يعملون الآن عملاً مكثفاً، ولكن المنطقة لم تعد حكرًا على الإنجليز فحسب، بل هناك الأجهزة الاستخباراتية والأمنية الإسرائيلية والأمريكية وغيرها، كل هؤلاء يعملون لتعميق هذه الخلافات وترسيخها. وذلك عن طريق اختلاق الإشاعات هنا وهناك، فيتحدثون مع المسؤول الفلاني في بلد سني بطريقة تشعره أن التشيع خطرٌ يهدده، ويتحدثون مع المجتمع السني بطريقة تشعرهم أن أهل السنة خطرٌ يهدد الشيعة ويروم القضاء على وجودهم وهويتهم.

هذه هي مهمتهم.. وهذه الحالة سوابقها في التاريخ، فيجب الاطلاع عليها

ومعرفتها.

من قضاياهم المهمة مبدأ «زراع الخلافات والهواجس»؛ حتّى لا يتحد المسلمون، ولكي لا ينشأ من هذا الاتحاد كيانٌ عظيمٌ يبتّ طيفه الرّعشة في قلوب المستكبرين الطّامعين. إنّ كيان الأُمّة الإسلاميّة الواحدة. فلو تشكّلت الأُمّة الإسلاميّة بالمعنى الحقيقي لكلمة الأُمّة، سيخاف المستعمرون والطّامعون والذين أرادوا امتصاص هذه المنطقة واستغلالها أشدّ الخوف. إنّهم يسعون لعدم حدوث مثل هذا الأمر..

لمبدأ «زراع الخلافات» حافزٌ آخر يضاف إلى الحافز السّابق بعد نهضة الشّعب الإيراني وارتفاع علم الثّورة الإسلاميّة في هذا البلد، وهو خوفهم من تسرّب أفكار الإسلام الأصيل، إسلام الجهاد، إسلام الاستقلال، إسلام العزّة والهويّة، الإسلام الَّذي يعدّ هيمنة الأجانب والأعداء على الأُمّة الإسلاميّة ذنباً لا يمكن الشّكوت عنه بأيّ حالٍ من الأحوال.

فهذا الإسلام الأصيل لو تسرّب من إيران إلى سائر المجتمعات الإسلاميّة سيؤدّي إلى مفاقمة المشكلة عليهم أضعافاً مضاعفةً. ومن هنا كان سعيهم الكؤود لبثّ الخلافات والفرقة بين الجمهوريّة الإسلاميّة والبلدان الأخرى في العالم.

يعلمون تمام المعرفة أنّ الأفكار التي توقظ الشّعب المستعمر، وتأتي به إلى السّاحة، وتحضّه على الخوض في ميدان العمل والجهاد، وتزيل عنه هاجس الخوف، وتدفع به إلى قلب ميدان الكفاح الدّولي العظيم، وتحقّق له النّصر في كافّة المراحل والأدوار، يعلمون جيّداً أنّ هذه الأفكار خطيرةٌ جداً على النّاهيين لثروات الشّعوب، ومن تراوده أحلامه في منطقة الشّرق الأوسط لنهب نفطها وسائر خيراتها.

لقد سعوا سعيهم، وكادوا كيدهم، ولكنّهم - بحمد الله - لم يوفّقوا إلى الآن.

لقد انتشرت أفكار الثورة الإسلامية لحدّ الآن في كلّ مكانٍ من العالم الإسلامي على الرغم من إرادتهم، مع كلّ مساعيهم التّشويهيّة ودعاياتهم المسمومة. نعم، لولا هذه المساعي والدّعايات لكان الأمر على غير ما هو عليه الآن؛ لذلك يبيّثون دعاياتهم بشكلٍ مكثّف ضدّ النّظام الإسلامي والجمهوريّة الإسلاميّة. وللغرض نفسه تبثّ الدّعايات التّشويهيّة ضدّ التّشيع أيضاً. على الجماعة التي تُريد أن تعمل في وسط السّاحة بوصفها تمثّل خطّ أهل البيت (عليه السلام) أن تتنبّه إلى مثل هذه الأمور، وتضع أولوياتها في ضوء هذه الحقائق. أيّها الإخوة والأخوات! لقد أخذتم على عاتقكم مهمّةً كبيرةً، وقد وضع المجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام) لنفسه واجباتٍ كبيرة. وهنا أقول لكم: إنّ عقد المؤتمرات هنا وهناك، وما يشابه ذلك.. كلّها أعمالٌ صغيرة. وإنّ مهمّتكم الأساسيّة هي ما يجب أن يتحقّق في ثنايا هذه الأعمال الشّكليّة، ألا وهي تعريف مدرسة أهل البيت (عليه السلام) للعالم الإسلامي، بل للعالم بأسره؛ لأنّ العالم كلّهُ اليوم متعطّشٌ للأمور الرّوحانيّة والمعنويّة، وهذه الرّوحانيّة موجودةٌ في الإسلام المتبلور في مدرسة أهل البيت (عليه السلام). روحانيّةٌ من دون عزلة، من دون انفصالٍ عن الحياة، روحانيّةٌ تواكب السياسة، عرفانٌ مع نشاطٍ اجتماعيٍّ، تضرّعٌ وبكاء في حضرة الله تعالى مع جهادٍ في سبيله. هذه الأمور مجتمعةٌ تتوفّر في المدرسة الإسلاميّة، وتتجسّد وتتبلور في تعاليم التّشيع ومعارفه، وقد شاهدنا نماذجها الحيّة سابقاً، وفي التّاريخ المعاصر في إيران الإسلام بوفرة.

نحن على يقينٍ بأنّ النّصر سيكون حليفنا وحليف الحقّ في هذه المعركة الدّائرة رحاها بين الحقّ والباطل، هذه المعركة هي: بين الإسلام والمعارف الإسلاميّة والصّحوة الإسلاميّة من جهةٍ، والأطماع الاستكباريّة لسياسات شياطين العالم، وعلى رأسهم الشّيطان الأكبر الحكومة الأمريكيّة من جهةٍ ثانية. كلّ القرائن تدلّ على أنّ النّصر حليف الحقّ، وهذا من السّنن الإلهيّة، التي لا

يكون فيها معنى لغير هذا.

إنَّ الجماعة المناصرة للحقِّ إذا صمدت وعملت بما عليها فستتصر على الباطل دون أدنى شك. وإنَّ السُّنن الإلهيَّة تسير لصالح تعضيد الحق. وقد شاهدنا ذلك من خلال التَّجربة والواقع.

لو قُورنت الأنشطة والتَّحرَّكات الإسلاميَّة في العالم اليوم بما كانت عليه قبل عشرين عاماً للاحظنا أنَّها تصاعدت وتعزَّزت وتطوَّرت أضعافاً مضاعفة، خصوصاً إذا نظرتم إلى الجمهوريَّة الإسلاميَّة؛ لوجدتم أنَّها تطوَّرت تطوَّراً مذهلاً على كافة الأصعدة.

فعلى الصَّعيد العلمي، وعلى الصَّعيد التَّقني، والسِّيَاسي، والإداري، اكتسبت الجمهوريَّة الإسلاميَّة كفاءةً أكبر، وقوَّةً أعظم.

وعلى مستوى العالم الإسلامي في إفريقيا وآسيا، وحتى البلدان التي يُشكِّل فيها المسلمون الأقلِّيَّة، يلاحظ أنَّ الشُّعور بالهويَّة الإسلاميَّة الدِّينيَّة قد بدأ يتعزَّز يوماً بعد يوم.

هذا من جهة، ومن جهةٍ أُخرى ضعفت أمريكا اليوم كثيراً عما كانت عليه قبل عشرين عاماً، لم يعد لها اليوم هيبتها وقدرتها التي كانت تتمتع بها سابقاً. وقد كابدت هزائم متعدِّدة زادت من ضعفها يوماً بعد يوم، ووقعت في ورطات راحت تغوص فيه أكثر فأكثر، وبدأت معالم المستقبل الخطير يحدق بها وبمن يسير في فلکها.

هذه هي تجربتنا، وهذه هي نظرتنا، وهذا هو الواقع الَّذي أماننا، ولكن ينبغي مع ذلك عدم الغرور بهذا الواقع والاتِّكال عليه.

ينبغي الالتفات إلى أنَّ الرِّحمة الإلهيَّة والمدد الإلهي منوطان بحركة الإنسان المؤمن، وسعيه الدَّؤوب، وعمله الصَّالح.

يجب أن نتواجد في السَّاحة، ولا ننسى الشُّعور بالواجب والمسؤوليَّة

والجهاد.. الجهاد في الميادين المختلفة هو واجبنا وضماننا تقدمنا وانتصارنا..
ثمة جهاد حتى في الساحة السياسية، وهناك جهاد في الميدان الثقافي، وفي
المضمار الإعلامي، وفي الصُّعد الاجتماعية. فليس الجهاد مجرد حركة عسكرية،
بل نرى أنَّ شتى مستويات الحياة البشرية هي سوحٌ جهادية.
أيما كُنتم في العالم، يجب أن تتمنَّ الأواصر بينكم يوماً بعد يوم، وينبغي أن
تتظافر الجهود والأعمال، ولتتبيَّن الأولويات، ولتتفق الطاقات على هذه
الأولويات قبل سواها..
ولا شكَّ في أنَّ الأفق المستقبلي لمجتمع المسلمين عموماً، ولأتباع أهل
البيت عليه السلام خصوصاً سيكون أفضل من حاضريهم، وسيتمَّ الاقتراب من
الغايات السامية أكثر إن شاء الله.
وفي الختام، نتمنَّى أن يشمل الفضل الإلهي كافة الإخوة والأخوات، وأن
يعرِّفنا الله تعالى واجباتنا، ويوفِّقنا لأدائها، ويرضينا عنَّا القلب المقدس لسيدنا
ومولانا بقية الله أرواحنا فداه، ويرضينا عنَّا كذلك الرُّوح الطاهرة لإمامنا
الراحل - الَّذِي فَتَحَ أَمَامَنَا هَذَا الطَّرِيقَ - وأرواح الشُّهداء الطَّيِّبَةِ.
والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

* * *

الهوامش:

- (١) راجع: الصَّفار، مُحَمَّد بن الحسن، بصائر الدَّرجات: ٤٣٢، باب: (١٧)، تصحيح وتعليق: ميرزا حسين كوجه باغي، نشر: منشورات الأعلمي ١٤٠٤، بيروت. الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ٣: ١٧، دار صادر، بيروت. الحاكم النِّسَابوري، المستدرک على الصَّحَّاحين ٣: ١٤٩، إشراف: د. يوسف عبد الرَّحمن المرعشي، دار المعرفة، بيروت. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى ٧: ٣٠، نشر: دار الفكر، بيروت.

- (٢) راجع: بصائر الدرجات: ٣١٧، باب: (١٣)، الحديث: (٤)، مرجع سابق. الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، الأمالي: ٣٤٢، المجلس: (٤٥)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٧، نشر: مؤسسة البعثة، قم. المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٤٣، مرجع سابق. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩: ١٦٨، نشر: دار الكتب العلمية ١٤٠٨، بيروت. الحافظ الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الكبير ٣: ٤٥، تحقيق: وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية ١٤٠٤، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٣) راجع: شيخ الطائفة الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد: ٧١٤، الطبعة الأولى ١٤١١، نشر: مؤسسة فقه الشيعة، بيروت.
- (٤) ورد عن مولانا الرضا عليه السلام: «فإنَّ النَّاسَ لو علموا محاسن كلامنا لاتبَعونا»، انظر: الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، عيون أخبار الرضا ٢: ٢٧٥، تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، نشر: مؤسسة الأعلمي ١٤٠٤، بيروت.

العرفان الإسلامي الأصيل

على ضوء المعارف السجادية

□ الشيخ محسن الأراكي (*)

تقديم

معرفة الحق تعالى، والسَّير والسلوك إليه، وحبّه، ومحبة الهداة إلى سبيله، والتي نتيجتها الهداية إلى الصراط الإلهي المستقيم، وسلوك طريق محبته والقرب منه، هي خلاصة معارف أنبياء الله وأوليائه، وعصارة تعاليم رسول الله ﷺ وخلفائه بالحق.

ليس العرفان الإسلامي الحقيقي سوى هذه الأمور التي ذكرناها. العرفان الخالص في الإسلام إنّما هو المعرفة والمحبة وسلوك الصراط المستقيم الذي بيّنته معارف القرآن وتعاليمه، وفسرته سنة النبي الأعظم ﷺ وسيرة أئمة الهدى صلوات الله عليهم أجمعين.

وللأسف الشديد، فإنّ يد التحريف التي كانت، ولا تزال، تمتدّ لتطال الحقائق الناصعة من قبل الفاسقين والجاهلين والمغرضين وأهل الزيف والادّعاء والتزوير، هذه اليد السوداء، قد امتدّت - أيضاً - إلى صفاء العرفان

(*) عالم، ومفكر ديني / إيران.

الإسلامي لتغيره، بل لتقلبه رأساً على عقب، حتى استبدلته بأفكارٍ وطرقٍ وتسويلاتٍ وتلبيساتٍ شيطانيةٍ، الأمر الذي أدى، وتحت عناوين مزيفةٍ كالتصوّف والعرفان، إلى قطع طريق الحقّ أمام الكثير من رواده وسالكيه، وإلى إخفاء العرفان الأصيل تحت غشاءٍ هائلٍ من الجهالة والتحريف والتشويه والكتمان، كما أدّى إلى حرمان العديد من طلاب الحقيقة من المتعطّشين إلى معارف الشريعة الغراء من الارتواء من المعين الصافي للعرفان الإسلاميّ والسّير والسلوك المحمّديّ ﷺ والعلويّ عليه السلام.

إنّ العلماء الوارثين لعلوم محمّد وآل محمّد ﷺ ومعارفهم، ممّن لديهم معرفةٌ بالقرآن الكريم وبالكنوز المعرفيّة المخزونة في داخله والتي تمّ بيانها وتفصيلها من قبل محمّد وآله ﷺ، إنّ هؤلاء، تقع على عاتقهم مسؤوليّةٌ هي من أهمّ الوظائف المنوطة بهم، وهي أن يزيلوا غبار التحريف عن معارفهم الأصيلة ﷺ وعن عرفانهم الحقّ، وأن يفتحوا الطّريق أمام السّالكيين إلى المحبوب الأعلى عبر فضح التّزوير والتّزييف الذي يدسه المحرّفون والمزوّرون في هذه المعارف، ورفع غطاء الجهل والجهالة الذي يُحاولون أن يُسدّلوه على العرفان الإسلاميّ الحقّ.

إنّنا نجد في ما يترشّح من المؤتمر الذي يجري عقده حول الإمام السّجّاد عليه السلام من قبل المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام فرصةً مناسبةً ومؤاتيةً لاستلھام المعارف والكنوز القيّمة المودّع أكثرها في مضامين أدعيته الشّريفة عليه السلام، ولا سيّما تلك الأدعية الواردة في الصّحيفة السّجّاديّة، وهذا ما ندعونا إلى أن نخطو خطوةً، في مسيرة بيان أصول العرفان الإسلاميّ في المعارف السّجّاديّة، مهما كانت تلك الخطوة قصيرةً، أو مهما كانت شيئاً لا يُذكر.

العرفان الإسلاميّ عبارةٌ عن مزيجٍ يختلط فيه العقل والعشق والعمل، أو خليطٌ تمتزج فيه الرّؤية والتّدقّق والاحتراق.. فالعقل والفكر بوغي وبصيرة

هو ما يكفل الوصول إلى الطريق المؤدّي إلى المقصد، والعشق هو الذي يتكفل بنيل لذة الوصول إلى المقصود، وعلى أثر ذلك يتولّد العزم والإرادة، وبعدهما وبواسطة الفناء والاحتراق، يحصل التّخلّي عن كلّ ما هو فاني ووضيع، ليتمسك السّالك بكُلّ ما هو باقٍ ورفيع.

ويُقال للبصيرة والنّظر اللّذان يُتوصّل إليهما عن طريق العقل «العرفان النّظري»، كما يُمكن التعبير عن العشق والمحبة اللّتان توفران الطّاقة للسلوك وتحركان وتبعثان على العمل بـ «عرفان الولاء»، وأمّا الاحتراق والفناء والعمل الذي هو الوسيلة للقرب والوصول فيُقال له: «السّير والسلوك» أو «العرفان العملي».

ومن هنا، فإنّ مقالتنا هذه، وبما أنّها تتناول مسألة (أصول العرفان الأصيل الإسلاميّ على ضوء المعارف السّجّاديّة)، فهي تتوزّع على أقسامٍ ثلاثة هي: العرفان النّظريّ، عرفان الولاء، والعرفان العمليّ.

القسم الأوّل: العرفان النّظريّ في المعارف السّجّاديّة

يُمكن تلخيص العرفان النّظريّ على ضوء معارف الإمام السّجّاد عليه السلام في مجموعة أصولٍ أساسيّة:

الأصل الأوّل:

أنّ ذات الباري تعالى هي الهدف الأوحد وهي المقصود الأصليّ في عالم الموجودات، وهو المراد والمقصد لكلّ عارفٍ وسالك، بل لكلّ عاقلٍ وعالم. فالعقل الذي أدرك أنّ الوجود الوحيد الذي قام بذاته، والذّات الوحيدة التي انحصر فيها الكمال المُطلَق، والجمال المُحضّ، والحقّ الصّافي الخالص من شوب كلّ باطلٍ، العقل الذي يدرك ذلك جيّداً لا يُمكن له إلّا أن يحكم بأنّ هذه الذّات هي الوحيدة التي تستحقّ أن تُقصد وتُطلّب، كما جاء في كلامه تبارك

وتعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقوله: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطُ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكَاثِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿[الرعد: ١٤]. وقوله على لسان إبراهيم العارف بالله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّرُ إِبْرَاهِيمُ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

وقد ورد هذا المضمون وتم التأكيد عليه في الأدعية الماثورة عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام، ففي الدعاء المعروف بـ (مناجاة المريدین) يقول عليه السلام:

«إلهي فاسلك بنا سُبُل الوصول إليك، وسيرنا في أقرب الطرق للوفود عليك..»، إلى أن يقول: «فأنت لا غيرك مُرادِي، ولك لا لسواك سَهْرِي وسُهادِي، ولقاؤك قُرّة عيني، ووصلك مني نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاكَ بُغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي، وقُرْبُكَ غاية سُؤلي..».

وفي الدعاء المعروف بـ (مناجاة المحييين) يقول عليه السلام:

«يا مني قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحييين، أسألك حبك، وحب من يُحبك، وحب كل عمل يُوصلني إلى قُربك، وأن تجعلك أحب إليّ مما سواك». وورد أيضاً في (مناجاة المفتقرين):
«فيا مُنتهى أمل الآملين، ويا غاية سؤل السائلين، ويا أقصى طلبة الطالبين، ويا أعلى رغبة الراغبين».

الأصل الثاني: إمكان معرفة الحق

ليس باب معرفة الحق موصداً في وجه أحد من البشر، بل إن تكريم الإنسان وجعله أفضل من غيره من الحيوانات والبهائم هو في حد نفسه عطية عظيمة وشرف كبير يُفترض أن يكون كافياً لحص الإنسان على التعرف على الباري سبحانه وعلى المبادرة إلى حمده وشكره. فقد جاء على لسان الإمام السَّجَّاد عليه السلام في

أَوَّلُ أدعية الصَّحيفة قَوْلُهُ ﷺ:

«والحمد لله على ما عَرَفْنَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَلْهَمَنَا مِنْ شُكْرِهِ، وَفَتَحَ لَنَا مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِرَبُّوِيَّتِهِ، وَدَلَّنَا عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ لَهُ فِي تَوْحِيدِهِ، وَجَنَّبَنَا مِنَ الْإِلْحَادِ وَالشَّكِّ فِي أَمْرِهِ».

وَفِي مَقْطَعٍ آخَرَ مِنْ نَفْسِ هَذَا الدَّعَاءِ قَالَ ﷺ:

«والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده، على ما أبلاهم به من مننه المتتابعة، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ الْمُنْتَظَّاهِرَةِ، لَتَصَرَّفُوا فِي مَنْنِهِ فَلَمْ يُحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ، وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدِّ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى حُدِّ الْبَهِيمِيَّةِ فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

إِنَّ مَعْرِفَةَ كَيْفِيَّةِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لِأَيِّ مَحْمُودٍ وَمَشْكُورٍ تَتَوَقَّفُ يَقِينًا عَلَى مَعْرِفَةِ هَذَا الشَّخْصِ نَفْسَهُ؛ وَلِذَا، فَإِنَّ فَتْحَ بَابِ مَعْرِفَةِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ الْإِلَهِيِّينَ فِي وَجْهِ الْعِبَادِ يُعَدُّ دَلِيلًا حَتْمِيًّا عَلَى أَنَّ الْبَابَ إِلَى تَعَرُّفِهِمْ عَلَيْهِ تَعَالَى لَيْسَ مُغْلَقًا، وَإِلَّا، فَلَوْ كَانَ بَابُ الْمَعْرِفَةِ مَسْدُودًا، لَكَانَ بَابُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ بِدَوْرِهِ مُوَصَّدًا وَمُقْفَلًا.

الأصل الثالث: حدود معرفة الحقِّ ومجالها

يُسْتَفَادُ مِنْ مَجْمُوعِ كَلِمَاتِ الْإِمَامِ السَّجَّادِ ﷺ وَأَدْعِيَّتِهِ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَيْسَتْ مِنْ قَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ الْحَسِّيَّةِ أَوِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى التَّصَوُّرِ بِالْحَدِّ أَوْ بِالرَّسْمِ، وَإِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ يُمَكِّنُ أَنْ نَعْبُرَ عَنْهَا بِ: (المعرفة بالاسم والإشارة).

إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى آلَةٍ وَوَسِيلَةٍ هِيَ الْحَسُّ أَوِ الذَّهْنُ هِيَ مَعْرِفَةٌ لَا يُمَكِّنُ لَهَا أَنْ تَبْلُغَ ذَاتَهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ آيَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَعَدَّى ذَلِكَ الْحَدَّ أَوْ أَنْ تَتَجَاوِزَهُ، غَايَةُ مَا هُنَاكَ: أَنَّ نَتِيجَةَ إِدْرَاكِ الْحَسِّ الْبَشَرِيِّ لِلآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَإِدْرَاكِ الذَّهْنِ الْبَشَرِيِّ - أَيْضًا -

للأسماء الإلهية، إنّ نتيجة هذين الإدراكين هي الحصول على إشاراتٍ وعلاماتٍ ترمز إلى الذات القدسية وتوفّر للإنسان معرفةً تصديقيةً بهذه الذات المتّصفة بجميع صفات الجلال والجمال.

ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الذات القدسية للباري تبارك وتعالى هي الكمال المطلق الذي لا حدّ له ولا نهاية، فهي لذلك أرفع وأجلّ من أن تكون في متناول حسّ البشر وأوهامهم وخيالهم. وقد جرى التأكيد، وبشدةٍ، على هذا المطلب - أيضاً - في القرآن الكريم وفي الروايات والأدعية الواردة عن المعصومين عليهم السلام، من بينها ما جاء في أول أدعية الصحيفة السجّادية من قوله عليه السلام: «الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين».

وأيضاً ورد في الدعاء (٣٢) من الصحيفة:

«عزّ سلطانك عزّاً لا حدّ له بأوليّة، ولا مُنتهى له بآخريّة، واستعلى ملكك علوّاً سقطت الأشياء دون بلوغ أمدّه، ولا يبلغ أدنى ما استأثرت به من ذلك أقصى نعت النّاعتين، ضلّت فيك الصّفات، وتفسّخت دونك النّعوت، وحارت في كبرياتك لطائف الأوهام».

وفي الدعاء (٤٧) من أدعية الصحيفة:

«أنت الذي لا تُحدّ فتكون محدوداً، ولم تمثّل فتكون موجوداً، ولم تلد فتكون مولوداً، أنت الذي لا ضدّ معك فيعاندك، ولا عدل لك فيكاثرك، ولا ندّ لك فيعارضك، أنت الذي ابتداءً واخترع، واستحدث وابتدع، وأحسن صنّع ما صنّع».

ويجدر الانتباه هنا إلى أنّ الموجوديّة التي نُفيت في هذا المقطع من الدعاء عن ذات الباري تعالى إنّما هي الموجوديّة بعد العدم، أي: التي تكون من نتائج الإيجاد.

إنَّ معرفة ذات الحقِّ تعالى، والتي شُرِّفَ بها البشر وفُتِحَ طريقها وسيعاً أمامهم، هي من قسَم المعرفة الحضورية، التي تحصل للإنسان مباشرةً بلا واسطةٍ أو دليلٍ أو بُرْهان، وإنَّما تحصل للإنسان عن طريق روحه وإحساسه الشَّهوديِّ والقلبيِّ. كما جاء في الدَّعاء الذي لقَّنه الإمام السَّجَّاد عليه السلام لأبي حمزة الثمالي:

«إلهي بك عرَّفْتُكَ، وأنتَ دللتني عليك ودعوتني إليك، ولولا أنتَ لم أدرِ ما أنتَ».

كما أشار إلى ذلك أيضاً أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصَّباح عندما قال:

«يا مَنْ دلَّ على ذاته بذاته».

وهذا النَّوع من المعرفة ذو درجاتٍ ومراتب، وأعظم هذه الدَّرجات مرتبة تعلّق الرُّوح الكامل بعزِّ القُدس الإلهي، كما ورد في المناجاة الشَّعبانيَّة - والتي رُوي أنَّ الأئمَّة المعصومين جميعاً كانوا يواظبون على قراءتها، ومن بينهم الإمام السَّجَّاد عليه السلام -:

«إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنرْ أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تحرق أبصار القلوب حجب النُّور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقةً بعزِّ قُدسك».

وتبدأ أولى مراحل هذا النُّحو من المعرفة بالهبّات الإلهيَّة والعطاء الرَّحْمانيّ الذي يصل إلى كافَّة أفراد البشر، إلّا أنَّ بلوغ مراتبها الأعلى والأرفع يستدعي الحصول على عطاء الرِّحمة الرَّحيميَّة لذات الباري تعالى، وهذا ما لا سبيل إليه إلّا بالعمل المُخلص والطَّاعة الرَّاسخة والذِّكر الدَّائم له سبحانه، وإلّا بالموالاتة والاتباع الكامل لمحمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين.

ويُشير الإمام السَّجَّاد إلى هذا المضمون في الدَّعاء المرويِّ عنه عند ختم القرآن، يقول:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْتَنِي عَلَى خَتْمِ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ نُوراً إِلَى أَنْ يَقُولَ: وَكِتَاباً فَصَّلْتَهُ لِعِبَادِكَ تَفْصِيلاً، وَوَحِيّاً أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنْزِيلاً، وَجَعَلْتَهُ نُوراً نَهْتَدِي مِنْ ظُلُمِ الضَّلَالَةِ بِاتِّبَاعِهِ، وَشِفَاءً لِمَنْ أَنْصَتَ بِفَهْمِ التَّصَدِيقِ إِلَى اتِّبَاعِهِ، وَمِيزَانٍ قَسَطٍ لَا يَحِيفُ عَنِ الْحَقِّ لِسَانَهُ، وَنُورَ هَدًى لَا يُطْفَأُ عَنِ الشَّاهِدِينَ بُرْهَانَهُ... إِلَى أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُجْمَلاً، وَأَلْهَمْتَهُ عِلْماً عَجَائِبَهُ مَكْمَلاً، وَوَرِّثْتَنَا عِلْمَهُ مَفْسَراً، وَفَضَّلْتَنَا عَلَى مَنْ جَهِلَ عِلْمَهُ، وَقَوَّيْتَنَا عَلَيْهِ لَتَرْفَعَنَا فَوْقَ مَنْ لَمْ يُطِيقْ حِمْلَهُ، اللَّهُمَّ فَكَمَا جَعَلْتَ قُلُوبَنَا لَهُ حِمْلَةً، وَعَرَّفْتَنَا بِرَحْمَتِكَ شَرْفَهُ وَفَضْلَهُ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْخَطِيبِ بِهِ، وَ عَلَى آلِهِ الْخَزَّانِ لَهُ... - إِلَى قَوْلِهِ: - اللَّهُمَّ وَكَمَا نَصَبْتَ مُحَمَّدًا عَلِمًا لِلدَّلَالَةِ عَلَيْكَ، وَأَنْهَجْتَ بآلِهِ سُبُلَ الرِّضَا إِلَيْكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاجْعَلِ الْقُرْآنَ وَسِيلَةً لَنَا إِلَى أَشْرَفِ مَنَازِلِ الْكَرَامَةِ، وَسَلِّمْ نَعْرِجُ فِيهِ إِلَى مَحَلِّ السَّلَامَةِ...» إِلَى آخِرِ الدَّعَاءِ.

وعندما نذكر أنّ باب معرفة الله ليس مُغلقاً في وجه الإنسان، فهذا لا يعني أنّ الإنسان يمتلك قُدرةً لا متناهيةً على التجوال في ميدان المعرفة الإلهية، بل هناك - دون ريب - حريمٌ للذات القدسية الإلهية ليس بمقدور جميع المخلوقين أن يردوها أو أن يطأوا أرضها. بل إنّ ورود هذا الحريم يُشكّل هدفاً ومطمعاً للعارفين، وهو أحياناً أمنيةٌ لهم يستشعرون من أنفسهم ميسر الحاجة إليها، فيطمحون إلى تحقيقها متوسلين ربهم بنداء «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ»، إلّا أنّ الجواب القاطع «لَنْ تَرَانِي»، يقرع سمعهم ليقطع جناحي طائر الوهم، وليقضي نهائياً على هذه الأمنية الساذجة. وهذا الحدّ والحريم، هو بعينه حدّ (العلم المُستأثر)، الذي تكرّرت الإشارة إليه في أدعية المعصومين عليهم السلام.

يقول الإمام السّجّاد في الدّعاء (٣٢) من الصّحيفة:

«وَاسْتَعْلَى مُلْكُكَ عَلَوّاً سَقَطَتِ الْأَشْيَاءُ دُونَ بُلُوغِ أَمَدِهِ، وَلَا يَبْلُغُ أَدْنَى مَا

استأثرت به من ذلك أقصى نعت الناعتين، ضلّت فيك الصفات، وتفسّخت دونك النعوت، وحارت في كبرياتك لطائف الأوهام.

وفي الدعاء (٥٠) من الصحيفة:

«فأسألك اللهم بالمخزون من أسمائك وبما وارثه الحجب من بهائك». ولهذا السبب، أعفى الله تعالى الإنسان ولم يُثقل كاهله بعبء أن يكلفه بالسعي والكذب نحو تلك الساحة المقدسة، كما يقول عليه السلام: «لقد وضع عنا ما لا طاقة لنا به، ولم يكلفنا إلا وسعاً، ولم يحشمنّا إلا يسراً». ومن هنا، كان التصديق والإقرار بالعجز عن معرفته تعالى علامة على الكمال، وسبيلاً إلى المعرفة الإلهية، قال الإمام السّجّاد عليه السلام في (مناجاة العارفين): «ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك».

الأصل الرابع: نسبة ما عدا الخالق إليه

في العرفان النظري للإمام السّجّاد عليه السلام، أن كلّ موجودٍ سوى المبدأ تعالى ممكّن الوجود، وأنّ إمكان وجوده هو عين تعلّقه بالحقّ تعالى، وأنّه لا يمكن أن يستقلّ عن ذاته القدسيّة لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وآثاره، ولا في أيّ شيءٍ من شؤونه وحيثيّاته.

فكلّ كائنٍ في عالم الخلق ارتدى ثوب الوجود أو يمكن له أن يرتديه، فهو في وجوده وفي جميع حيثيّات وجوده وجهاتها عين التعلّق بالذات القدسيّة للحقّ تعالى، لا أنّه شيءٌ متعلّق به، بل هو عين التعلّق والتدلي، وليس في حقيقته شيئاً آخر وراء التعلّق والاتّصال بذاته تعالى.

وبهذا المعنى يقول الإمام السّجّاد عليه السلام متضرّعاً ربّه:

«سبحانك خضع لك ما جرى في علمك، وخشع لعظمتك ما دون عرشك، وانقاد للتسليم لك كلّ خلقك، سبحانك لا تحسّ ولا تجسّ ولا تُمسّ ولا تُكاد، ولا تُنارَع ولا تُجارى ولا تُمارى، ولا تُخادَع ولا تُماكر».

وعبارة «خضع لك ما جرى في علمك» تدلّ على التالي:

أنّ حيثيّة التعلّق المحض بذات الحقّ القدسيّة ليس خاصّاً بالموجودات بالفعل، وإنّما هو شاملٌ لتمام دائرة إمكان الوجود، فكلّ ممكّن بالذات استقرّ في عالم العلم الإلهيّ أنّه يُمكن وجوده فهو في واقعيتّه عين التعلّق بذات الحقّ تعالى، سواء كان موجوداً بالفعل أم لا. ويقول ﷺ أيضاً:

«أنت الله لا إله إلا أنت، الذي أنشأت الأشياء من غير سنخ، وصوّرت ما صوّرت من غير مثال، وابتدعت المبتدعات بلا احتذاء، أنت الذي قدّرت كلّ شيءٍ تقديرًا، وسيّرت كلّ شيءٍ تيسيرًا، ودبّرت ما دونك تدبيرًا، وأنت الذي لم يُعْنِك على خلقك شريك، ولم يوازرك في أمرك وزير، ولم يكن لك شاهدٌ ولا نظير. أنت الذي أردت، فكان حتمًا ما أردت، وقضيت، فكان عدلاً ما قضيت، وحكمت، فكان نصفاً ما حكمت. أنت الذي لا يحويك مكان، ولم يقمّ لسُلطانك سلطان، ولم يُعْيِكَ برهانٌ ولا بيان».

الأصل الخامس: موانع معرفة الحقّ

يقول الإمام السّجّاد ﷺ في الدّعاء (٤٤) من الصّحيفة السّجّاديّة مشيراً إلى موانع معرفة الحقّ تعالى شأنه:

«اللّهم صلّ على محمّد وآله، وجبّنا الإلحاد في توحيدك، والتقصير في تمجيدك، والشكّ في دينك، والعمى عن سبيلك، والإغفال لحُرمتك، والانخداع لعدوك الشّيطان الرّجيم».

وفي هذا المقطع من الدّعاء يشير ﷺ إلى ستّ موانع، الأربعة الأوّل منها موانع للمعرفة، والآخرون موانع للعمل، ولا يتّسع المجال هنا للشرح والتفصيل لتمام هذه الموانع، ولذلك نكتفي ببيان كلّ منها بشكلٍ مختصر:

المانع الأوّل: الإلحاد في توحيد الله

الإلحاد هو الميل والانحراف، وبالالتفات إلى ما ذكرناه سابقاً، فإنَّ أيَّ انحرافٍ أو اعوجاجٍ يطرأ في طريق التعرّف على الباري تعالى سوف يؤدي إلى نوعٍ من الإلحاد في المعرفة.

المانع الثاني: التقصير في تمجيد الله عزّ وجلّ

تمجيد الحقّ تعالى ذو مراتب عدّة من جُمْلَتِها: التمجيد القلبيّ واللّسانيّ والجوارحيّ، وأوّل هذه المراتب هو الاعتراف بصفاته تعالى الجماليّة والجلاليّة، والإقرار بنعمه ومعرفة حقّه، بحسب ما أُتيح للبشر من قدرة محدودة. وأمّا نكران الجميل وترك الشّكر والامتنان وعدم الإقرار القلبيّ الكامل بالنعم الكثيرة وبال حقوق التي لله تعالى على العبيد، فمن شأنه أن يقطع الطّريق أمام معرفته تعالى، وأن يحرم القلب من رؤية أنوار المحبوب وإشراقاته وتجليّاته.

المانع الثالث: الشكّ في الدّين

دين الله تعالى هو عبارة عن مجموعة من الحقائق والدّقائِق والطّرائق التي أودعها الله بين يدي البشر وأوصلها إليهم بواسطة النّبيّ الكريم ﷺ وأئمّة الهدى وسائر الأنبياء الإلهيّين وأوصيائهم عليهم السّلام. والدّين الذي حمّله رسل الله وأولياؤهم، ثمّ انتهى إلى خاتم النّبيّين وأوصيائه الطّاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، ليوضّع في متناول البشر وبين أيديهم، - هذا الدّين - هو الدّين الذي يتلاءم مع ما تقتضيه فطرة البشر، والذي يُعلّم صدقه ويُحكّم بصدقه وحقانيّته من قبل الفطرة نفسها وبإذعانٍ من الوجدان السّليم، وهو الذي يُعدّ الوسيلة الوحيدة التي من خلالها يتوصّل إلى المعرفة الحقّة بالخالق تبارك وتعالى.

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٦٤﴾.

إنّ التشكيك في حقائق الدّين الواضحة والجليّة هو بمثابة إغماض عيون

القلب وإقفال آذان الفطرة، ويكون من نتائج هذا التشكيك المانع الرابع الآتي، والذي يقطع الطريق على العبد فيحجبه عن الوصول إلى معرفة ربه.

المانع الرابع: إغماض بصر القلب، وجعله أعمى عاجزاً عن رؤية الحق.

وأما عباد الله الصالحون وأهل العرفان والسلوك، فقد تحرروا من جميع ما للشك والتردد والحيرة من قيود ضيقة وحدود خانقة، كما نقرأ في مناجاة العارفين لإمامنا السجاد عليه السلام:

«إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم... إلى قوله: قد كشف الغطاء عن أبصارهم، وأنجلت ظلمة الرب عن عقائدهم وضمايرهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم». فالتشكيك في حقائق الدين، وإغماض عين القلب عن رؤية بينات الله وآياته، يُفضي، مع الإصرار والمداومة عليه، إلى التصاق صفة العمى بعين الفطرة الحقة، كما يورث صاحبه البلادة وعمى القلب. وفي قوله تبارك وتعالى:

﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْذِبُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بَعَايِنَتَنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، إشارة إلى ما ذكرناه.

المانع الخامس: التعامي عن حرمان الله، وتعدي الحدود والتلكؤ في العبودية والطاعة.

والمانع السادس: الاستسلام في مواجهة الشيطان، والسقوط في فخ خداعه. ومن شأن هذين المانعين أن يُوصدا طريق السلوك والمعرفة أمام الإنسان كلياً، وهما ناشئان من ابتلاء الإنسان بموانع المعرفة النظرية الأربعة التي تقدمت الإشارة إليها.

القسم الثاني: عرفان الولا،

يُعتبر علم العارف بالهدف الأقصى والغاية النهائية، أعني بها: الذات القدسية للحق تبارك وتعالى، يُعتبر هذا العلم - الذي عبّرنا عنه ب: العرفان النظري - مقدّمة لازمة لاشتعال العشق الفطري الكامن في نفس العارف تجاه الحق تبارك وتعالى، ومُنطلقاً لتلاطم أمواج الشعور والإحساس بهذا العشق في قرارة نفسه، كما أنّ العرفان يُساهم - إلى حدّ الإمكان - في إزالة حالة السكون والركود من نفس العارف، ويعمل على تغيير الفضاء المظلم الرّاكذ في داخله واستبداله بشعلة المحبة الإلهية الملتهبة، ويُجبره على الحركة في مسيرة القرب الإلهي بكل نشاطٍ وحيوية.

ومع استعار لهيب شُعلة العشق الإلهي في سريرة الإنسان وفي دخيلة نفسه تبدأ المرحلة الثانية من مراحل العرفان الإلهي، والتي تشكّل حلقة وصل بين أولى مراحل العرفان وبين مراحل اللاحقة، أي: مرحلة السلوك وطبي الطريق. بل ومن دون المرحلة الثانية المذكورة، فإنّ شيئاً من المرحلتين اللتين تحدّثنا عنهما، أعني: العرفان النظري، والعرفان العملي، سوف لن يكون مثمراً ولا مُنتجاً، وبالتالي: فإنّ العارف لن يتمكن من طي المسافة وبلوغ هدفه ومقصوده الأصلي.

إنّ الوسيلة الوحيدة التي تُتيح لبذرة العشق الإلهي أن تُثمر، ولشُعلة نار محبة الحق تعالى أن تشتعل في نفس الإنسان هي العشق والمحبة لمحمد وآل محمد ﷺ؛ لأنّ عشقهم ﷺ هو أوضح وأكمل تجليات آيات الحق تعالى وأسمائه الإلهية، وهو الأداة الوحيدة التي تُلهب شُعلة الحب الإلهي في سرائر البشر وضمايرهم. ومن هنا اعتبرت محبة محمد وآل محمد ﷺ في تعاليم الوحي أساساً للإيمان والدين، بل هي عينهما، وقد أكّد الأئمة المعصومون ﷺ على هذه الحقيقة وبينوها بقولهم: «هل الدين إلّا الحب». كما أنّ القرآن الكريم قد تعرّض لها

مراراً وبأشكالٍ مختلفة:

فهو تارةً يعدّ محبة الله وتقديمها على محبة ما سواه شرط الإيمان الذي لا يستغني عنه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي موضعٍ آخر يتعرّض باللوم الشديد على الذين يُقدّمون حبّهم للآخرين على حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيله عاداً فعلهم هذا من موجبات الفسق والخروج عن الدين:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].
وقد روي عن رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية المباركة أنّه قال: «والذي بعثني بالحق، لا يؤمنن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه»^(١).

وفي موضعٍ آخر، يجعل القرآن الكريم مودة محمد وآل محمد ﷺ أجر الرسالة والثمرّة التي أرادها رسول الله ﷺ من تبليغه رسالة الله ونشره إياها:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

إنّ جعل مودة آل محمد ومحبّتهم أجراً للرسالة وملازماً ودليلاً على الصدق والإخلاص في حبّ الله ورسوله يؤشّر إلى ما ذكرناه من أنّ كلاً من العرفان النظريّ والعمليّ لا تقوم له قائمة إلا بعرفان الولاء، وأنّ هذا الأخير هو الوحيد القادر على إيصال العبد السالك إلى مقصوده وطلبته، وهذا هو السرّ الكامن في اعتباره أجراً في قبال الرسالة.

ليس الأجر الحقيقي لأيّ عملٍ من الأعمال إلا عبارةً عن بلوغ الغاية المرجوة من هذا العمل وتحقيق الهدف المرسوم له، فإذا كانت مودة محمد وآل محمد ﷺ

ومحبّتهم هي الأجر لرسالته ﷺ، فهذا يعني أنّ النتيجة المقصودة من هذه الرسالة، والتي تحتوي على العرفان النظريّ والعمليّ، لا يُمكن بلوغها والوصول إليها إلاّ بعرفان الولاء، فهو وحده الذي يجعل الرسالة تُثمر وتُؤتي أكلها، وهو وحده الذي يكفل الوصول إلى المقصود، ونزيد على ذلك لنقول: إنّ مودةً محمّد وآله ﷺ، والتي عبّرنا عنها بعرفان الولاء، هي الوحيدة القادرة على أن تضمن للعبد أمر حصوله على الإخلاص المنجي له من هلكة الوقوع في الشّرك في كلا المجالين: العرفان العمليّ والنّظريّ.

ولعرفان الولاء آدابٌ وشروطٌ ولوازم، لا تتسع مقالتنا هذه لبيانها وتفصيلها. إلّا أنّ الذي تجدر الإشارة إليه هنا، هو ما تمّ التأكيد عليه في القرآن الكريم وفي كلمات أولياء الدّين، وهو أنّ الولاء الإلهيّ الشّامل لحبّ الله تعالى ورسوله وأهل البيت ﷺ لا يُمكن بحالٍ من الأحوال أن يكون مجرداً ومنفكاً عن البراءة من أعداء الله والرسول. والولاء من دون البراءة، هو، في نظر الدّين ومنطقه، مجرد لفظٍ فارغٍ من المضمون، وخالٍ من المعنى. ومن هنا، جاء تأكيد القرآن الكريم على ضرورة التعرّف على العدو، وعلى ضرورة معاداته.

وفي حقّ الشّيطان الذي هو على رأس أعداء الله تعالى يقول:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وفي مقامٍ آخر، يقول تعالى داعياً المؤمنين إلى اتّباع سنّة إبراهيم في البراءة من أعدائه:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وفي موضعٍ آخر، يعتبر القرآن الكريم معاداة أعداء الله ورسوله والبراءة

منهم شرطاً لحصول الإيمان بالله ونيل رضوانه، فيقول:

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وكما في القرآن الكريم، فكذلك قد تم التأكيد والتشديد على عرفان الولاء والبراءة في عرفان الإمام السَّجَّاد (عليه السلام)، الذي هو نابغ من معين الوحي، ومُستمد من كلام الله وتعاليمه، وعبرة أخرى عما جاء في كلمات النبي ﷺ وإرشاداته؛ حيث يقول (عليه السلام) في (مناجاة المحييين) في إشارة منه إلى أصل الولاء القائم على تقديم حب الله ورسوله وأهل البيت على حب غيرهم:

«إلهي مَنْ ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً.. إلى قوله: إلهي فاجعلنا ممن اصطفيتهم لقربك وولائتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقاءك، ورضيتهم بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعدته من هجرك وقلاك، وبوأتهم مقعد الصَّدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، وهيئت قلبه لإرادتك، واجتبيتهم لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك.. إلى أن يقول: يا مَنْ أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا مَنْى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحييين، أسألك حبك وحب مَنْ يحبك وحب كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحب إليّ مما سواك، وأن تجعل حبي إياك قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك».

كما وقد شدّد (عليه السلام) على عدم إمكانية التفكيك بين الولاء الإلهي وبين البراءة من أعداء الله، وها هو يتضرع إلى ربه مُستعيذاً به من الشيطان قائلاً:

«اللهم إنا نعوذ بك من نزغات الشيطان الرجيم وكَيْده ومكائده.. - إلى

قوله: - اللَّهُمَّ اخسأه عَنَّا بعبادتك، واكبته بدؤوبنا في محبتك، واجعل بيننا وبينه سترًا لا يهتكه، وردمًا مصمتًا لا يفتقه.. إلى أن يقول: اللَّهُمَّ اجعلنا في نظم أعدائه، واعزلنا عن عداد أوليائه، لا نطيع له إذا استهوانا، ولا نستجيب له إذا دعانا، نأمر بمنأواته مَنْ أطاع أمرنا، ونعظ عن متابعتهم من اتبع زجرنا»^(٢).
ويقول في دعاء عيدي الأضحى والجمعة مشيرًا إلى مقام الولاية والإمامة الحقة:

«اللَّهُمَّ إِنَّ هذا المقام لخلفائك وأصفياك ومواضع أمثالك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها، قد ابتزوها وأنت المقدّر لذلك، لا يُغالب أمرك، ولا يجاوز المحتوم من تدبيرك، كيف شئت وأنى شئت، ولما أنت أعلم به، غير متهم على خلقك، ولا لإرادتك، حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزين، يرون حُكمك مُبدلاً، وكتابك منبذاً، وفرائضك محرّفة عن جهات شراعتك، وسنن نبيك متروكة. اللَّهُمَّ العن أعداءهم من الأولين والآخرين، ومن رضي بفعالهم وأشياهم وأتباعهم»^(٣).
وجاء أيضاً في الدعاء ٢٦ من الصحيفة قوله ﷺ:

«اللَّهُمَّ صلّ على محمد وآله، وتولني في جيراني ومواليي، العارفين بحقنا، المنابذين لأعدائنا، بأفضل ولايتك، ووقفهم لإقامة سنتك، والأخذ بمحاسن أدبك».

وهكذا، فإنّ العارف الحقيقي هو الذي يكون محباً وعاشقاً وميلاً لله ورسوله وأهل البيت وأنصارهم وأوليائهم، وفي الوقت نفسه، هو الذي يكون كارهاً لأعدائهم نافراً منهم ومعادياً لهم. وعليه: فالأصل الأساسي والأهم، والذي يُشكّل دعامةً أساسيةً للعرفان المحمدي والعلوي والسجادي - ﷺ - الأصل، هو ما تحكي عنه العبارة التالية:

«سَلِّمْ لِمَنْ سَالَكُكُمْ، وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَكُمْ، وَوَيٌّْ لِمَنْ وَالَاكُمْ، وَعَدُوٌّ لِمَنْ

عاداؤكم».

القسم الثالث: العرفان العملي

بعد العرفان النظري، وعرفان الولاء، نصل في الحديث إلى العرفان العملي. العرفان العملي هو التصديق عملياً، بما كان العقل قد توصل إليه بالفكر والنظر، وبما كان القلب قد انعقد عليه بالإيمان. فإذا وُلِدَ التصديق في عالم النظر، وتشكّل العشق في عالم الولاء، تكون شرائط السير إلى الله قد توفرت وتهيأت، لتصل النوبة لدى السالك العارف إلى حيث يتعين عليه أن يخطو، وبكل عزم صادق، خطوة في مسيرة الطاعة لله تعالى، وأن يسعى جاهداً لطبي الطريق باتجاه المراتب العالية من الحضور والنظر والشهود واللقاء والوصل والفناء.

وعلى الرغم من أن مراحل السير والسلوك حسبها وردت في تعاليم المعصومين عليه السلام كثيرة، وبالأخص ما ورد منها عن إمامنا السجادة عليه السلام، إلا أن بإمكاننا - وأيضاً بالاستفادة من آيات القرآن الكريم ومعارف الأئمة المعصومين، وبالخصوص المعارف السجادية - تلخيص كليّاتها ومراحلها الأساسية فيما يلي:

المرحلة الأولى: مرحلة الذكر الكثير

الذكر الكثير هو أوّل مراحل السير إلى الله ومفتاح السلوك إليه، وفي هذه المرحلة يرتدي الإنسان حلية اليقين المزرکشة ليتأهل وليُصبح لائقاً وجديراً ببلوغ مرحلة العزم والصبر.

يقول تبارك وتعالى في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ﴾ (٤١) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ (٤٢) تَجِبَتْ لَهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝ (٤٣) [الأحزاب].

وما نستفيد من هذه الآيات: أنّ الذكر الكثير هو مفتاح السلوك إلى الله تعالى، وهو - أيضاً - الذي يُبعد الإنسان عن ظلمات الهجران والبُعد عن الله تعالى ليُوصله إلى أنوار وصله والقرب منه واللقاء به والنظر إليه. وهنا، ينبغي لنا أن ننوّه بأن طريق الذكر الكثير لا يُمكن لأحد أن يسلكها ويمضي بها إلا إذا كان قد اعتمد على عرفان الولاء لمحمّد وآل محمّد. وهذا ما يحتاج إلى شرح وتوضيح فليُطلب من مظانه.

وأما الذكر غير الكثير، فغير مُجْدٍ، ولا يوصل صاحبه إلى أية نتيجة، ولأجل ذلك، نجد أنّه موجودٌ ومتوافرٌ - شيئاً ما - حتّى لدى الجّارين والكافرين والظّالين والمنافقين، وأنّه لم يُحرّم منه حتّى هؤلاء الذين قد أُفْلِت في وجوههم دروب السلوك إلى الله والاقتراب منه. يقول تعالى في حقّ المنافقين:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

إنّ شرط السلوك إلى الله ومفتاح أبواب السّير إليه هو الذكر الكثير، كما أشرنا، وآلة هذا الذكر ووسيلته وسببه كتاب الله ومحمّد ﷺ وأهل بيته ، وهم الموصوفون في القرآن الكريم بأنّهم أهل الذكر وأصحابه: ففي نهج البلاغة أنّ أمير المؤمنين  قال:

«إنّ الله تعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتُبصر به بعد العسوة، وتنقاد به بعد المعاندة... - إلى قوله : - وإنّ للذكر أهلاً اتّخذوه من الدّنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزّواج عن محارم الله في أسمع الغافلين...»^(٤).

وفي وصف عباد الله الصّالحين والمتّقين المخلصين يقول :

«إنّ من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه... - إلى أن يقول: - نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ»^(٥).

وفي هاتين الكلمتين القصيرتين إشارة إلى كل من العرفان النظري والعملي، وأيضاً، إشارة واضحة إلى ما ذكرناه من أن الذكر الكثير هو مفتاح السلوك في مجال العرفان العملي.

وفي موضع آخر من النهج الشريف يقول عليه السلام في وصف المتقين: «يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يُنسي وهمه الشكر، ويُصبح وهمه الذكر»^(٦).

وأما إيماننا السجّاد عليه السلام فقد تعرّض في دعائه المعروف بـ (مناجاة الذاكرين)، وخلال بيانه لحقيقة الذكر الكثير، إلى شروطه ومصاديقه وأنواعه، فنراه يقول متضرّعاً:

«ومن أعظم نعم الله علينا جريان ذكرك على ألسنتنا، وإذذك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك. إلهي، فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء، والليل والنهار، والإعلان والإسرار، وفي السرّاء والضراء، وأنسنا بالذكر الخفي، واستعملنا بالعمل الزكيّ والسعي المرضي، وجازنا بالميزان الوفي. إلهي، بك هامت القلوب الوالهة، وعلى معرفتك جُمِعَت العقول المتباينة، فلا تطمئن القلوب إلا بذكراك، ولا تسكن النفوس إلا عند رؤياك، أنت المسبح في كل مكان، والمعبود في كل زمان، والموجود في كل أوان، والمدعو بكل لسان، والمعظم في كل جنان. وأستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أنسك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل شغل بغير طاعتك. إلهي، أنت قلتَ وقولك الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿[الأحزاب]، وقلتَ وقولك الحق: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فأمرتنا بذكرك، ووعدتنا عليه أن تذكرنا تشريعاً وتفخياً وإعظاماً. وها نحن ذاكرونك كما أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا يا ذاكر الذاكرين، ويا أرحم الراحمين».

المرحلة الثانية: مرحلة العزم والنية

ثمرة الذِّكْر الكثير اليقين، واليقين يُوصل إلى العزم، والعزم يمهد السَّيْل أمام الصَّبْر على طاعة الله، وبهذا النَّحْو من السَّيْرِ، يكون العارف بذكره الكثير قد شرع بالسَّيْرِ تجاه الحقِّ بخطواتٍ حثيثةٍ ومُفعمَةٍ بالعزم.

يقول تبارك وتعالى في مُحْكَم كتابه - متحدثاً عن المنشأ والمبدأ الأوَّل لخسارة الإنسان في سيره وسلوكه إلى الله، وهو النِّسيان وفُقدان العزم -: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥].

ويقول تعالى أيضاً - مخاطباً نبيِّه الكريم ﷺ، ومادحاً رسله الذين استطاعوا من خلال مداومتهم على ذكره وإقامتهم على طاعته أن يبلغوا مقام العبودية والتسليم الشامخ، بفعل تحليهم بخصلة العزم الرَّاسخ، وبسبب صبرهم على الطَّاعة -:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ أَلْعَزَمُوا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وفي الدَّعاء الذي علَّمه أمير المؤمنين عليه السلام كُمَيْل بن زياد:

«قَوِّ عَلَى خِدْمَتِكَ جَوَارِحِي، وَاشْدُدْ عَلَى الْعَزِيمَةِ جَوَانِحِي».

فهو عليه السلام يتضرَّع إلى ربِّه طالباً منه أن يقوِّي له جسده في سبيل طاعته، وأن يهبه الثَّبات واستحكام العزيمة ورسوخ الإرادة في طريق عبوديته.

كما جاء في الدَّعاء المرويَّ عن الأئمة الطَّاهرين عليهم السلام بمناسبة اليوم السَّابع والعشرين من رجب قولهم عليه السلام:

«وقد علمتُ أنَّ أفضل زاد الرَّاحل إليك عزم إرادةٍ يُتَّرك بها، وقد ناجاك بعزم الإرادة قلبي».

وللإمام السَّجَّاد عليه السلام كلماتٌ كثيرةٌ في هذا السِّياق، نذكر منها:

«اللَّهُمَّ وَثِّبْتُ فِي طَاعَتِكَ نَيْتِي، وَأَحْكِمْ فِي عِبَادَتِكَ بَصِيرَتِي، وَوَفَّقْنِي مِنَ الْأَعْمَالِ لِمَا تَغْسِلُ بِهِ دَنَسَ الْخَطَايَا عَنِّي، وَتَوْفَّقْنِي عَلَى مِلَّتِكَ، وَمِلَّةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا تَوَفَّقْتَنِي. اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ فِي مَقَامِي هَذَا مِنْ كِبَائِرِ ذُنُوبِي وَصِغَائِرِهَا،

وبواطن سيئاتي وظواهرها، وسوالف زلاتي وحوادثها، توبة من لا يحدث نفسه بمعصية، ولا يضمّر أن يعود في خطيئة، وقد قلت يا إلهي في محكم كتابك: إنك تقبل التوبة عن عبادك وتعفو عن السيئات وتحبّ التوابين، فاقبل توبتي كما وعدت، واغف عن سيئاتي كما ضمنت، وأوجب لي محبتك كما شرطت، ولك يا رب شرطي أن لا أعود في مكروهك، وضماي أن لا أرجع في مذمومك، وعهدي أن أهجر جميع معاصيك»^(٧).

والملاحظ في هذا المقطع من الدعاء، أنه ﷺ لم يشير إلى العزم وضرورة الإخلاص في النية فحسب، بل إنه أيضاً تعرض لكيفية عقد هذا العزم. وفي موضع آخر يقول ﷺ أيضاً:

«اللهم وفرّ بلطفك نيتي، وصحّح بما عندك يقيني، واستصلح بقدرتك ما فسد مني»^(٨).

المرحلة الثالثة: طاعة الله والصبر عليها

يُعتبر الخلوص والتمحّص في طاعة الله والصبر عليها لبّ اللباب الأصيل لعملية السير والسلوك إلى الله، وله مقدّمات وشروط وآداب ولوازم كثيرة، ومقالتنا هذه، وإن كانت لا تتسع لبيانها جميعاً، إلا أنه لا بأس بالتذكير والإشارة إلى بعضها إشارة إجمالية خاطفة:

وأول شرطٍ للخلوص في الطاعة هو الإخلاص لله، بمعنى: أن لا يأتمر الإنسان ولا يعمل بأوامر غيره تعالى، وأن لا يمثل إلا للأوامر الصادرة من جانبه هو، كما قال تعالى لنبيه ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

وإذا كان الإخلاص في الطاعة بالنسبة إلى وليّ الله عبارة عن امتثال أوامر الله والتسليم والانقياد إليه تعالى، فإن الإخلاص في الطاعة بالنسبة إلى غير الولي هو - لا محالة - ليس إلا التمسك بهذا الولي والعمل بولايته، وإخضاع القلب

لأوامره ونواهيه، وامتنال هذه الأوامر والنواهي، كما يقول سبحانه في كتابه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَنزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، إلى أن يقول عز من قائل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ونشير هنا إلى بعض ما ورد عن إمامنا زين العابدين عليه السلام من التأكيد والتشديد - وفي موارد كثيرة ومتكررة - على هذا الأصل المهم والأساسي: فقد قال عليه السلام في دعاء عرفة، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وآله عليه السلام:

«رَبِّ صَلِّ عَلَى أَطَائِبِ أَهْلِ بَيْتِهِ، الَّذِينَ اخْتَرْتَهُمْ لِأَمْرِكَ، وَجَعَلْتَهُمْ خَزَنَةَ عِلْمِكَ، وَحَفَظَةَ دِينِكَ، وَخُلَفَاءَكَ فِي أَرْضِكَ، وَحُجَجَكَ عَلَى عِبَادِكَ، وَطَهَّرْتَهُمْ مِنَ الرَّجْسِ وَالِدَّنَسِ تَطْهِيرًا بِإِرَادَتِكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْكَ، وَالْمَسْلُوكَ إِلَى جَنَّتِكَ». إلى أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَيَّدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عِلْمًا لِعِبَادِكَ، وَمَنَارًا فِي بِلَادِكَ، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ، وَجَعَلْتَهُ الدَّرِيْعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ، وَافْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَذَرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ بِامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ وَالْإِنْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَالْأَلَّا بِتَقَدُّمِهِ مُتَقَدِّمٌ، وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ، فَهُوَ عِصْمَةُ اللَّائِذِينَ، وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعُرْوَةُ الْمَتَمَسِّكِينَ، وَبِهَاءُ الْعَالَمِينَ». إلى قوله: «وَاجْعَلْنَا لَهُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَفِي رِضَاهِ سَاعِينَ، وَإِلَى نُصْرَتِهِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُ مُكْنَفِينَ، وَإِلَيْكَ وَإِلَى رَسُولِكَ صَلَوَاتِكَ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذَلِكَ مُتَقَرِّبِينَ. اللَّهُمَّ وَصِّلْ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ، الْمُعْتَرِفِينَ بِمَقَامِهِمْ، الْمُتَّبِعِينَ مِنْهُمْ جِهَهُمُ، الْمُقْتَنِينَ آثَارَهُمْ، الْمُسْتَمْسِكِينَ بِعُرْوَتِهِمْ، الْمُتَمَسِّكِينَ بِوَلَايَتِهِمْ، الْمُؤْتَمِنِينَ بِإِمَامَتِهِمْ، الْمُسَلِّمِينَ لِأَمْرِهِمْ، الْمُجْتَهِدِينَ فِي طَاعَتِهِمْ، الْمُتَنْظِرِينَ أَيَّامَهُمْ، الْمَادِّينَ إِلَيْهِمْ أَعْيُنَهُمْ،

الصَّلوات المباركات الزّاكيات النّاميات الغاديات الرّائحات...».

وعنه ﷺ أيضاً في دعاء عيدي الأضحى والجمعة:

«اللّهُمَّ إِنَّ هَذَا الْمَقَامَ لَخَلْفَاتِكَ وَأَصْفِيَاكَ وَمَوَاضِعَ أَمْنَاتِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي اخْتَصَصْتَهُمْ بِهَا، قَدْ ابْتَزَوْهَا وَأَنْتَ الْمُقَدَّرُ لَذَلِكَ، لَا يُغَالِبُ أَمْرَكَ، وَلَا يَجَاوِزُ الْمُحْتَوَى مِنْ تَدْبِيرِكَ، كَيْفَ شِئْتَ وَأَنْتَ شِئْتَ، وَلِمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، غَيْرَ مَتَّهِمٍ عَلَى خَلْقِكَ، وَلَا لِإِرَادَتِكَ، حَتَّى عَادَ صَفْوَتُكَ وَخَلْفَاؤُكَ مَغْلُوبِينَ مَقْهُورِينَ مَبْتَزِينَ، يَرُونَ حُكْمَكَ مُبْدَلًا، وَكِتَابَكَ مَنْبُذًا، وَفَرَائِضَكَ مُحَرَّفَةً عَنْ جِهَاتٍ شَرَاعِكَ، وَسَنَنَ نَبِيِّكَ مَتْرُوكَةً. اللّهُمَّ الْعَنِ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَمَنْ رَضِيَ بِفَعَالِهِمْ وَأَشْيَاعِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ. اللّهُمَّ الْعَنِ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَمَنْ رَضِيَ بِفَعَالِهِمْ وَأَشْيَاعِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ. اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ، كَصَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ وَنَحِيَّاتِكَ عَلَى أَصْفِيَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَعَجَلِ الْفَرْجِ وَالرَّوْحِ وَالنَّصْرَةِ وَالتَّمَكِينِ وَالتَّأْيِيدِ لَهُمْ. اللّهُمَّ وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِكَ، وَالتَّصَدِيقِ بِرَسُولِكَ وَالْأَثْمَةِ الَّذِينَ حَتَمَتْ طَاعَتَهُمْ مَنْ يَجْرِي ذَلِكَ بِهِ وَعَلَى يَدَيْهِ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ...»^(٩).

وَأَمَّا الشَّرْطُ الثَّانِي مِنْ شُرُوطِ التَّمَحُّضِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ - وَالَّذِي هُوَ، كَمَا أَسْلَفْنَا، نَاجِمٌ مِنْ طَاعَةِ وَلِيِّ اللَّهِ -، فَهُوَ الْقُرْبُ مِنْ جَمْعِ أَهْلِ الْوَلَاءِ وَالِاتِّصَالِ بِهِمْ، وَالِابْتِعَادُ عَنْ جَمْعِ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالْجَفَاءِ وَالِانْقِطَاعِ التَّامِّ عَنْهُمْ. وَهَذَا مَا أَوْصَى بِهِ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهِ الْكَرِيمَ وَأَكَّدَ لَهُ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، حَيْثُ تَعَرَّضْتُ آيَاتِهِ مِنْ جِهَةٍ لِمُضْرَرَّةِ الدَّخُولِ فِي أَهْلِ الْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وَكَقَوْلِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ومن جهة أخرى، فقد دعت آيات الكتاب العزيز - أيضاً - النبي ﷺ إلى البُعد والانعطاف عن أهل الجفاء والمُعرضين عن آيات الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. وَإِمَّا يُنسِبَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

كما دعا القرآن الكريم المؤمنين والصالحين السالكين سبيل الحق، وفي مناسباتٍ مختلفة، إلى الالتحاق بجمع الصالحين وأهل الولاء، وحذرهم من الاقتراب من أولئك الذين انقطعوا عن ولاية الله، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومما جاء في كلمات إمامنا السَّجَّاد عليه السلام حول هذه المسألة:

قوله في دعائه المعروف بـ (دعاء مكارم الأخلاق):

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، واجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ إِذَا كَبُرْتُ، وَأَقْوَى قُوَّتِكَ فِيَّ إِذْ نَصَبْتُ، وَلَا تَبْتَلِيَنِي بِالْكُسَلِ عَنْ عِبَادَتِكَ، وَلَا الْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ، وَلَا بِالْتَعَرُّضِ لَخِلَافِ مَحَبَّتِكَ، وَلَا بِمَجَامَعَةٍ مِّنْ تَفَرَّقَ عَنْكَ، وَلَا بِمَفَارِقَةٍ مِّنْ اجْتِمَاعِ إِلَيْكَ»^(١٠).

وقوله مُلْتَمِساً رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

«وَأَلْبَسْ قَلْبِي الْوَحْشَةَ مِنْ شَرِّ خَلْقِكَ، وَهَبْ لِي الْإِنْسَ بِكَ وَبِأَوْلِيَائِكَ وَأَهْلِ طَاعَتِكَ، وَلَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلَا كَافِرٍ عَلَيَّ مَنَّةً، وَلَا لَهُ عِنْدِي يَدًا، وَلَا بِي إِلَيْهِمْ حَاجَةً، واجْعَلْ سَكُونِ قَلْبِي وَأُنْسَ نَفْسِي وَاسْتِغْنَائِي وَكَفَايَتِي بِكَ وَبِخِيَارِ خَلْقِكَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلْنِي لَهُمْ قَرِينًا، واجْعَلْنِي لَهُمْ نَصِيرًا، وامْنَنْ عَلَيَّ بِشَوْقٍ إِلَيْكَ، وبِالْعَمَلِ لَكَ بِمَا تَحِبُّ وَتَرْضَى»^(١١).

وفي المسألة والدعاء الذي علَّمه عليه السلام لأبي حمزة الثمالي:

«اللَّهُمَّ اَلْحِقْنِي بِصَالِحٍ مِّنْ مَّضَى، وَاجْعَلْنِي مِّنْ صَالِحٍ مَّنْ بَقِيَ، وَخُذْ بِي سَبِيلَ الصَّالِحِينَ».

وأما ثالث شروط التمحّض في طاعة الله، فهو الاقتداء والتأسي بوليّ الله في أخلاقه وخصاله وسلوكه، وهو ما أكّد عليه القرآن الكريم، جاعلاً إياه نتيجةً للإيمان بالله وثمرَةً للذكر الكثير:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

[الأحزاب: ٢١].

والاقتداء برسول الله ﷺ وبالأئمة والأولياء من أهل بيته عليه السلام، يجب أن يستتبع، من جهة: التحرّر والتخلّص من الرذائل الخلقية والسلوكية والابتعاد عنها واجتنابها. ومن جهة أخرى: التحلّي بفضائلهم ومحاسن أخلاقهم والعمل على وفق نهجهم وسلوكهم. ولأجل ما في هذين الأمرين من أهميّة، نجد أنّ القرآن الكريم يؤكّد على الاقتداء والتأسي بالصالحين من أولياء الله تعالى، حتّى لقد أمر النبيّ الأعظم ﷺ به، وهو الذي وصفه الباري سبحانه بأنّه صاحب الخلق العظيم، قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤﴾، إلى أن يقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيمَ هَدَيْنَاهُمُ اقْتَدِهٖ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٠﴾.

والظاهر أنّ أمره ﷺ بترك سؤال الأجر على الرسالة، وجعل الهدف منها مُنحصراً في أنّها (ذكرى للعالمين)، بعد أمره بالاقتداء بالرسل الربّانيين، كلّ ذلك، لا يهدف إلّا إلى القول بأنّ كون الرسالة ذكرى للعالمين يتنافى مع أخذ الأجر الدنيوي عليها. وأمّا ما قدّمه لنا القرآن في موضع آخر على اعتبار أنّه أجرٌ

للرسالة، وهو مودة آل محمد ﷺ، فما ذاك إلا نفس الاقتداء بالصالحين، الذي أشارت إليه الآية الكريمة هنا، وليس عنواناً آخر وراء ذلك، بل ما هو إلا نتيجة وثمره للرسالة المحمدية، وهو - أيضاً - حقيقة ذكر الله ولبّ لبابه، كما تقدّم بيانه سابقاً.

وإلى هذه الحقيقة يُشير إمامنا السّجّاد عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق، عندما يقول:

«اللّهم صلّ على محمد وآله، وحلّني بحلّة الصّالحين، وألبسني زينة المتّقين، في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النّائرة، وضمّ أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وسرّ العائبة، ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السّيرة وسكون الرّيح، وطيب المخالقة، والسّبق إلى الفضيلة، وإيثار التّفضّل، وترك التعيير والإفضال على غير المستحقّ، والقول بالحقّ وإنّ عزّ، واستقلال الخير وإنّ كثّر من قولي وفعلي، واستكثار الشّرّ وإنّ قلّ من قولي وفعلي، وأكمل ذلك لي بدوام الطّاعة، ولزوم الجماعة، ورفض أهل البدع، ومُسْتَعْملي الرّأي المخترع».

وفي دعاء آخر له بعنوان: (في الاستعاذة من المكاره وسيّء الأخلاق)، يقول عليه السلام:

«اللّهمّ إنّّي أعوذ بك من هيجان الحرّص، وسورة الغضب، وغلبة الحسد، وضعف الصّبر، وقلة القناعة، وشكاسة الخلق، وإلحاح الشّهوة، ومَلَكَةِ الحميّة، ومتابعة الهوى ومخالفة الهدى، وسنة الغفلة، وإيثار الباطل على الحقّ، والإضرار على المأثم، واستصغار المعصية، واستكثار الطّاعة، ومباهاة المُكثّرين، والإضرار بالمقلّين، وسوء الولاية لمن تحت أيدينا، وترك الشّكر لمن اصطنع العارفة عندنا، أو أنّ نُعْضد ظالماً، أو نُخْذِل مَلْهُوفاً، أو نروم ما ليس لنا بحقّ، أو نقول في العلم بغير علم. ونعوذ بك أنّ ننطوي على غشّ أحد، وأنّ نُعْجَب بأعمالنا، ونُمدّ في

آمالنا، ونعوذ بك من سوء السَّريَّة واحتقار الصَّغيرة...»، إلى آخر الدَّعاء.

وأما رابع الشُّروط، فهو الصَّبْر على طاعة الله وأوليائه. إذ الطَّاعة التي لا يُرافقها الصَّبْر تبقى عاجزةً عن إيصال صاحبها إلى المقصود، وإنَّما هي مشروطةٌ بالصَّبْر عليها في الصَّعوبات والشَّدائد.

نعم، ينبغي هنا أن نُشير إلى أنَّ نفس الاقتداء بأولياء الله تعالى - والذي هو الشَّرط الثالث من شروط التَّمَحُّض في طاعة الله وأوليائه - من شأنه أن يُؤدِّي إلى الصَّبْر على الطَّاعة.

وقد أكَّد الله تعالى مراراً وتكراراً على أهميَّة الصَّبْر، حتَّى أمر به رسوله الأعظم ﷺ طالباً منه أن يَتَّقِدِي بسائر رسله، يقول تبارك اسمه:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والصَّبْر - أيضاً - هو ما يطلبه الإمام السَّجَّاد عليه السلام في دعائه الذي لقَّنه لأبي حمزة، إذ يقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ صَبْرًا جَمِيلًا».

وعن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ عَنْ اللَّهِ يَقُولُ: أَيْنَ أَهْلُ الصَّبْرِ؟؟ قَالَ: فَيَقُومُ عَنْقُ مِنَ النَّاسِ، فَتَسْتَقْبِلُهُمْ رُفْرُةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: مَا كَانَ صَبْرُكُمْ هَذَا الَّذِي صَبَرْتُمْ؟؟ فَيَقُولُونَ: صَبَرْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَبَرْنَاهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ. قَالَ: فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ: صَدَقَ عِبَادِي، خَلُّوا سَبِيلَهُمْ لِيَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^(١٢).

وأيضاً، من شروط التَّمَحُّض في طاعة الله وأوليائه، المداومة عليها إلى أن يَنْقُضِي أَجَلَ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بل والموت عليها وفي سبيلها. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، إشارة واضحة ومؤكَّدة إلى هذا الشَّرط الذي بيَّناه، وإنَّ الإسلام الحقيقي ليس إلَّا طاعة الله تعالى طاعةً

تكون جامعةً لكافة الشرائط المزبورة. وهذا ما ورد في بضع آياتٍ كريمةٍ من سورة الأنعام، حيث أعطت وصفاً كاملاً للإسلام ونبّهت على أنه نفس الانقياد والتسليم والخلوص في طاعة الله، وهي قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ١٦٤﴾.

وفي دعاء مكارم الأخلاق يقول عليه السلام:

«اللهم اختم بعفوك أجلي، وحقّق في رجاء رحمتك أمني، وسهّل لي بلوغ رضاك سبلي، وحسّن في جميع أحوالي عملي. اللهم صلّ على محمد وآل محمد، ونبّهني لذّكر في أوقات الغفلة، واستعملني بطاعتك في أيام المهلة، وانهج لي إلى محبتك سبيلاً سهلاً، أكمل لي بها خير الدنيا والآخرة».

ومن (أدعية الأيام) في دعاء يوم الأحد، يقول عليه السلام:

«اللهم إنّي أبرأ إليك في يومي هذا، وما بعده من الآحاد، من الشّرك والإلحاد، وأخلص لك دعائي تعرّضاً للإجابة، وأقيم على طاعتك رجاءً للإثابة، فصلّ على محمد خير خلقك، الداعي إلى حقك، وأعزني بعزك الذي لا يُضام، واحفظني بعينك التي لا تنام، واختم بالانقطاع إليك أمري، وبالمغفرة عمري، إنّك أنت الغفور الرحيم».

المرحلة الرابعة: مرحلة العبوديّة

مرحلة العبوديّة المحضّة لله تعالى مرحلة لا يتمكّن العبد من بلوغها والوصول إليها إلاّ بعد طيّه المراحل السّابقة عليها، من الذّكر الكثير، فالعزم على الطّاعة، فالمدامّة عليها. وفي هذه المرحلة، يتحوّل العبد ليصير إلهياً، بتام

وجوده وكيانه، بجميع جوارحه وجوانحه، بأفعاله ونواياه، وخواطره وسوانحه، بمعنى: أن إرادته وفعله ونيته وتصرفاته تخضع كلها لله تعالى خضوعاً كاملاً؛ ليحصل العبد مع ذلك على ملكة التذلل والانقياد الخالص للحق جل شأنه.

في المراحل الثلاث المتقدمة، يكون العبد قد طوى جميع الحجب الظلمانية، كما أنه يكون قد تمكن - ببركة الصلوات والرحمة الإلهية - من تمزيق حجب الظلمات النفسانية واحداً تلو الآخر، ليتمكن بعد ذلك، وبمعونة الإكثار من الذكر والعزم على طاعة الحق والمواظبة عليها، من الخروج من الظلمات إلى النور، كما قال جل وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ﴾ (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝﴾ (٤٣)

[الأحزاب].

فالعبد أثناء طيّه لهذه المراحل يكون مشمولاً لصلوات الله، وهذه الصلوات هي وحدها التي تُخرجه من جبّ الحجب الظلمانية، وتسجبه إلى الأعلى حيث طبقات الأنوار الإلهية. ولأنّها صلوات تنزل على جميع المؤمنين والصالحين والأبرار، حيث كانت منشأً لقطع الإنسان مراحل النفسانية، وسبباً لخرقه حجب الانانية المظلمة؛ لأنّها كذلك، يُمكن أن نطلق عليها اسم: (صلوات الأبرار). وذلك في قبال الصلوات الأفضل والأعلى درجة، التي نعبّر عنها بأنّها: (صلوات الأطهار)، وذلك لاختصاصها بالمطهرين من عباد الله الذين تحرّروا وتخلّصوا من الحجب الظلمانية، ويسرون بشكلٍ مُستمرٍّ في عوالم الأنوار الإلهية، وهذه الصلوات هي التي وردت الإشارة إليها في آية أخرى من سورة الأحزاب، وذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

وهذه الصَّلوات مُخْتَصَّةٌ بالبيوت المطهَّرة، كَبَيْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الذي هو بَيْت الطَّهارة، وبَيْت النُّور. يقول تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ومن هنا، تواتر عن النَّبِيِّ ﷺ في تفسير هذه الآية الشريفة أَنَّهُ عَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفِيَّةَ هذه الصَّلوات، بأنَّ يقولوا:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ».

وأما الأطهار الذين مُنَحُوا شرف الاختصاص بهذه الصَّلوات، فهم أولئك الذين خرقوا الحجب الظلمانيَّة فجعلوها خَلْفَ ظهورهم، وتحرَّروا من قيود النَّفْسانيَّة، ليتَمَكَّنُوا من الوصول إلى مقام العبوديَّة المحضة لله المتعال، ومن هنا كانوا طاهرين مطهَّرين من كلِّ رَجَسٍ وظُلْمَةٍ ومعصية، فتأتي هذه الصَّلوات لترتقي بهم في مراتب الأنوار الإلهيَّة، وتعينهم على قطع ميادين النُّور في عالم الوصال والفناء والبقاء في الله.

إِنَّ بَيْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ هو بَيْتٌ من بيوت النُّور الإلهيِّ، كما أشارت إلى ذلك الآيات من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... إلى قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ [نور: ٣٥، ٣٦]، وقد ورد في العديد من الروايات أَنَّ بَيْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، والذي هو نفسه بَيْت آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، هو أَوْضَحُ مُصَدِّقٍ لهذه البيوت التي تتحدَّث عنها الآية.

وعليه: فالصَّلوات الخاصَّة ببَيْتِ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ هي صلواتٌ تُحَرِّقُ الحجب النُّورانيَّة، وتُوجِبُ الانتقال من مرحلة نورانيَّة إلى مرحلة أكثر نورانيَّة، وبحسب الظاهر، فإنَّ العالم النُّوريَّ الذي لمحمد وأهل بيته ﷺ هو ذاك العالم النُّوريَّ الذي تتحدَّث عنه الآية الكريمة في سورة النَّجْم، وهذا العالم، ليس

أفضل العوالم النورية فحسب، وإنما هو - أيضاً - عالم لا نهاية له ولا حد.

خصائص مقام العبودية:

لمقام العبودية خصائص ولوازم عدة، نُشير إلى بعضها وأهمها حسبما نستفيد من المعارف القرآنية ومن كلمات المعصومين عليهم السلام، ولا سيما الإمام السَّجَّاد عليه السلام:

الخصوصية الأولى: التذلل والاستكانة لله المتعال

من أهم خصائص العبودية لله تعالى، أن يتحلَّى العبد بأقصى درجات التذلل والتواضع والاستكانة إليه، وقد نُقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الإطار العديد من الروايات والأخبار التي تُظهر مدى تواضعه لله تعالى واستكانته إليه، ولعلَّ أوضحها ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿طه ١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشَفَّيَ ﴿طه: ١، ٢﴾.

وروى في أصول الكافي عن إمامنا الباقر عليه السلام أنه قال:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لم تُتعب نفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة، ألا أكون عبداً شكوراً»^(١٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله عشر سنين على أطراف أصابعه، حتى تورمت قدماه، واضفر وجهه، يقوم الليل أجمع، حتى عُوتَبَ في ذلك، فقال الله عز وجل: ﴿طه ١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشَفَّيَ ﴿...﴾ الحديث^(١٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«أفطر رسول الله صلى الله عليه وآله عشيّة خميس في مسجد قبا، فقال: هل من شراب؟! فأتاه أوُس بن خولى الأنصاريّ بعُسّ مخيضٍ بعسل، فلما وضعه على فيه نحاه، ثم قال: شرابان يُكتفى بأحدهما من صاحبه، لا أشربه ولا أُحرّمه، ولكن

أتواضع لله، فإنه مَنْ تواضع لله رفعه الله، وَمَنْ تكبر خفضه الله...»^(١٥).

وفي النهج الشريف، عن أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصف رسول الله صلى الله عليه وآله:

«فتأس بنبيك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله، فإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعزى. وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه، والمقتصر لأثره، قَصَمَ الدُّنْيَا قَضْمًا، وَلَمْ يُعْرِها طَرْفًا، أَهْضَمُ أَهْلَ الدُّنْيَا كَشْحًا، وَأَخْصَمُ مَنْ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ، وَوَحَادَةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ. وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جَلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيُخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقِعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِي، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السَّيْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ، فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانَةَ - لِأَخْدَى أَزْوَاجِهِ - غِيْبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ... إِلَى أَنْ يَقُولَ: فَتَأْسَى مُتَأْسٍ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصِرَ أَثَرُهُ، وَوَلَجَ مَوْجُهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَمًا لِلْسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَنَذِيرًا بِالْعُقُوبَةِ، خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا كَحَيْصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعْ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ، فَمَا أَعْظَمَ مَنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنَا، حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا نَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأُ عَقْبَهُ، وَاللَّهُ لَقَدْ رَقَعَتْ مَدْرَعَتِي هَذِهِ، حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: أَعُزُّبُ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى»^(١٦).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً:

«ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبد بهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتندل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتوحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه. فالله الله في عاجل

البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنّها مَصِيدَة إبليس العُظمى، ومكيدته الكُبرى، التي تُساور قلوب الرّجال مساورة السّموم القاتلة، فما تُكدي أبداً، ولا تُشوي أحداً، لا عالماً لعلمه، ولا مقلّاً في طمره. وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصّلوات والزّكوات، ومجاهدة الصّيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم، ولما في ذلك من تغفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً، والتّصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً، ولحوق البطون بالمتون من الصّيام تذلّلاً، مع ما في الزّكاة من صُرف ثمرات الأرض وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر»^(١٧).

وعن سعيد بن كلثوم قال: كُنْتُ عند الصّادق جعفر بن محمّد عليه السلام، فذكر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأطراه ومدحه بما هو أهله ثمّ قال: «والله ما أكل عليّ بن أبي طالب من الدّنيا حراماً قطّ حتّى مضى لسبيله، وما عَرَضَ له أمران قطّ هما الله رضا إلاّ أَخَذَ بأشدهما عليه في دينه، وما نَزَلَتْ برسول الله صلى الله عليه وآله نازلة قطّ إلاّ دعاه ثقةً به، وما أطاق عمل رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الأُمَّة غيره.. إلى أن يقول: وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحدٌ أقرب شَبَهاً به في لباسه وفقهه من عليّ بن الحسين عليه السلام، ولقد دخل أبو جعفر ابنه عليه، فإذا هو قد بَلَغَ من العبادة ما لم يُبلِّغه أحدٌ، فرآه وقد اصْفَرَ لونه من السّهر، ورَمَضَتْ عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من السّجود، وقد ورمّت ساقاه وقدماه من القيام في الصّلاة، فقال أبو جعفر عليه السلام: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء، فبكيتُ رَحمةً له، فإذا هو يفكر، فالتفت إليّ بعد هنيئة من دخولي، فقال: يا بني، أعطني بعض تلك الصّحف التي فيها عبادة عليّ بن أبي طالب، فأعطيته، فقرأ فيها شيئاً يسيراً، ثمّ تركها من يده تضجّراً وقال: مَنْ يَقْوَى على عبادة عليّ بن أبي طالب عليه السلام»^(١٨).

إنَّ للتَّذلُّ والاستكانة إلى الله مصاديق وموارد كثيرة، أُشير إلى بعضها في المرويَّات التي نقلناها آنفاً، كالزَّهد والعبادة والخشوع. ومن بين هذه المصاديق، التَّذلُّ في الدَّعاء والمناجاة، الذي يُمكن أن نجد - وبوفرة - نماذج عجيبةً له في أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام.

يقول عليه السلام في دعاء أبي حمزة الميء بالتَّذلُّ والتَّضرُّع والخضوع لله تبارك وتعالى:

«سَيِّدِي، عَبْدُكَ بِيَابُكَ، أَقَامَتْهُ الْخِصَاصَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ، يَقْرَعُ بَابَ إِحْسَانِكَ بِدَعَائِهِ، وَيَسْتَعْطِفُ جَمِيلَ كَرَمِكَ بِمَكْنُونِ رَجَائِهِ، فَلَا تُعْرِضْ بَوَجْهِكَ الْكَرِيمَ عَنِّي».

وفي الدَّعاء العاشر من أدعية الصَّحيفة السَّجَّادِيَّة يقول عليه السلام:

«يَا غَنِيَّ الْأَغْنِيَاءِ، هَا نَحْنُ عِبَادُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَنَا أَفْقَرُ الْفُقَرَاءِ إِلَيْكَ، فَاجْبُرْ فَاقْتَنَا بَوْسَعَكَ، وَلَا تَقْطَعْ رَجَاءَنَا بِمَنْعِكَ، فَتَكُونَ قَدْ أَشْقَيْتَ مَنْ اسْتَسْعَدَ بِكَ، وَحَرَمْتَ مَنْ اسْتَرْفَدَ فَضْلَكَ، فَإِلَى مَنْ حِينْتِذِ مُنْقَلِبِنَا عَنْكَ؟ وَإِلَى أَيْنَ مَذْهَبِنَا عَنْ بَابِكَ! سُبْحَانَكَ، نَحْنُ الْمُضْطَرُّونَ الَّذِينَ أَوْجَبَتْ إِجَابَتَهُمْ، وَأَهْلُ السَّوَاءِ الَّذِينَ وَعَدْتَ الْكُشْفَ عَنْهُمْ، وَأَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِمَشِيَّتِكَ، وَأَوَّلَى الْأُمُورِ بِكَ فِي عَظَمَتِكَ رَحْمَةً مَنْ اسْتَرْحَمَكَ، وَغَوْثَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِكَ، فَارْحَمْ تَضَرَّعَنَا إِلَيْكَ، وَأَغْنِنَا إِذْ طَرَحْنَا أَنْفُسَنَا بَيْنَ يَدَيْكَ».

وفي الدَّعاء الحادي عشر من الصَّحيفة:

«فَهَا أَنَا ذَا يَا إِلَهِي، وَاقِفْ بِيَابَ عَزِّكَ وَقُوفَ الْمُسْتَسْلِمِ الدَّلِيلِ، وَسَائِلِكَ عَلَى الْحَيَاءِ مِنِّي سَوَالِ الْبَائِسِ الْمَعِيلِ، مَقَرُّ بَأْنِي لَمْ أَسْتَسْلِمْ وَقْتُ إِحْسَانِكَ بِالْإِقْلَاعِ عَنْ عَضْيَانِكَ، وَلَمْ أَخْلُ فِي الْحَالَاتِ كُلِّهَا عَنْ امْتِنَانِكَ، فَهَلْ يَنْفَعُنِي يَا إِلَهِي إِقْرَارِي عِنْدَكَ بِسَوْءِ مَا اكْتَسَبْتُ؟ وَهَلْ يُنْجِينِي مِنْكَ اعْتِرَافِي لَكَ بِقَبِيحِ مَا ارْتَكَبْتُ؟ أَمْ أَوْجَبْتَ لِي فِي مَقَامِي هَذَا سَخَطُكَ؟ أَمْ لَزَمَنِي فِي وَقْتُ دَعَائِي مَقْتُكَ! سُبْحَانَكَ،

لا أَيْأَسُ مِنْكَ وقد فَتَحْتَ لي باب التَّوْبَةِ إِلَيْكَ، بل أقول مقال العبد الذَّلِيلِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ... - إلى أن يقول: - فقام إِلَيْكَ بِقَلْبٍ طاهرٍ نقيٍّ، ثمَّ دعاكَ بصوتٍ حائلٍ خفيٍّ، قد تَطَأْتَ لك فأنحنى، ونكَّسَ رأسه فأنثنى، قد أَرَعَشْتَ خَشْيَتُهُ رَجْلَيْهِ، وَأَغْرَقْتَ دُمُوعَهُ خَدَّيْهِ، يَدْعُوكَ بيا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، ويا أَرْحَمَ من انتابه الْمُسْتَزْهِمُونَ، ويا أعْطَفَ مَنْ أطاف به الْمُسْتَغْفِرُونَ... إلى أن يقول ﷻ: أتوب إِلَيْكَ في مقامي هذا، توبة نادمٍ على ما فرط منه، مُشْفِقٍ مِمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ، خالص الحياء مِمَّا وقع فيه، عالمٌ بأنَّ الْعَفْوَ عن الذَّنْبِ الْعَظِيمِ لا يتعاضدك، وأنَّ التَّجَاوُزَ عن الإِثْمِ الْجَلِيلِ لا يَسْتَصْعِبُكَ، وأنَّ احتمال الجنايات الفاحشة لا يتكادُّكَ، وأنَّ أَحَبَّ عبادك إِلَيْكَ مَنْ تَرَكَ الاستكبار عَلَيْكَ، وجانبَ الإِضْرارَ ولزَمَ الاستغفار...».

وأيضاً في الدَّعاء السَّادس عشر من أدعية الصَّحيفة:

«اللَّهُمَّ يا مَنْ بِرَحْمَتِهِ يَسْتَغِيثُ الْمُذْنِبُونَ، ويا مَنْ إلى ذِكْرِ إِحْسَانِهِ يُفْرَحُ الْمُضْطَرُّونَ، ويا مَنْ لِحَيْفَتِهِ يَنْتَحِبُ الْخاطِئُونَ، يا أُنْسَ كُلِّ مُسْتَوْحِشٍ غريبٍ، ويا فَرَجَ كُلِّ مَكْرُوبٍ كَتِيبٍ، ويا غَوْثَ كُلِّ مُخْذُولٍ فريدٍ، ويا عَضْدَ كُلِّ مُتَحَنِّجٍ طريد... - إلى أن يقول: - أَنْتَ الَّذِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِالرَّحْمَةِ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَارْحَمْنِي، وَأَنْتَ الَّذِي سَمَّيْتَ نَفْسَكَ بِالْعَفْوِ، فاعْفُ عَنِّي. قد ترى يا إلهي فيضَ دمعِي مِنْ خِيفَتِكَ، وَوَجِيبَ قَلْبِي مِنْ خَشْيَتِكَ، وانتقاضَ جوارحي مِنْ هَيْبَتِكَ، كُلَّ ذَلِكَ حَياءً مِنْكَ لِسوءِ عَمَلِي، وَلِذَاكَ حَمْدَ صَوْتِي عَنِ الْجَأْرِ إِلَيْكَ، وَكُلَّ لِسَانِي عَنِ مَنَاجَاتِكَ.... - إلى أن يقول: - يا إلهي، لو بَكَيْتُ إِلَيْكَ حَتَّى تَسْقُطَ أَشْفَارُ عَيْنِي، وَانْتَحَبْتُ حَتَّى يَنْقَطِعَ صَوْتِي، وَقُمْتُ لَكَ حَتَّى تَنْتَشِرَ قَدَمَايَ، وَرَكَعْتُ لَكَ حَتَّى يَنْخَلَعَ صُلْبِي، وَسَجَدْتُ لَكَ حَتَّى تَنْتَفِقًا حَدَقَتَايَ، وَأَكَلْتُ تَرَابَ الْأَرْضِ طَوْلَ عَمْرِي، وَشَرَبْتُ مَاءَ الرَّمَادِ آخِرَ دَهْرِي، وَذَكَرْتُكَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ حَتَّى يَكُلَّ لِسَانِي، ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَى آفَاقِ السَّمَاءِ اسْتَحْيَاءً مِنْكَ،

ما استوجبتُ بذلك نحوَ سيئةٍ واحدةٍ من سيئاتي...».

وفي الدعاء الثالث والخمسين يقول ﷺ:

«رَبِّ أَفْحَمْتَنِي ذُنُوبِي، وَأَنْقَطَعْتَ مَقَالَتِي، فَلَا حِجَّةَ لِي، فَأَنَا الْأَسِيرُ بَيْلِيَّتِي، الْمَرْتَمَنُ بِعَمَلِي، الْمُرْتَدُّ فِي خَطِيئَتِي، الْمُنْتَحَيَّرُ عَنْ قَصْدِي، الْمُنْقَطِعُ بِي. قَدْ أَوْقَفْتُ نَفْسِي مَوْقِفَ الْأَذْلَاءِ الْمُذْنِبِينَ، مَوْقِفَ الْأَشْقِيَاءِ الْمُنْجَرِّينَ عَلَيْكَ، الْمُسْتَخَفِّينَ بِوَعْدِكَ، سَبْحَانَكَ!! أَيُّ جُرْأَةٍ اجْتَرَأْتُ عَلَيْكَ؟! وَأَيُّ تَغَرُّبٍ غَرَّرْتُ بِنَفْسِي؟! مَوْلَايَ، ارْزَحْمْ كَبُوتِي لِحَرِّ وَجْهِي، وَزَلَّةَ قَدَمِي، وَعُدْ بِحِلْمِكَ عَلَى جَهْلِي...».

الخصوصية الثانية: الانقطاع إلى الله

من النتائج والخصوصيات التي تترشح من مقام العبودية، الانقطاع عما سوى الله تعالى، والاتصال المباشر به، فالذين فازوا بنيل مقام الخضوع والانقياد التام للحق تعالى، وأفنوا إرادتهم في فناء الخالق جل شأنه وفي حضرة، فأولئك قومٌ تعلقت قلوبهم بعز قُدسه، وأولئك قومٌ جعلوا أنفسهم، بكامل وجودهم وكيانهم، تبعاً لعالم الأمر الإلهي، فلم يريدوا إلا ما أراد الله، ولم تهتف قلوبهم إلا لما يحبه الله، وتخلصوا وابتعدوا عن كل ما يُبغضه الله.

وفي القرآن الكريم، يقول تعالى مخاطباً نبيه الأعظم ﷺ طالباً منه أن يقوم بتعريف نفسه للناس أجمعين، وأن يحكي لهم عن مقام عبوديته:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١١-١٤].

والعبادة المتلازمة مع الإخلاص في دين الله، التي تحكي عنها هذه الآية الشريفة، ما هي إلا نفس الانقطاع التام لله تعالى، وقد فصلته الآيات الأخيرة من سورة الأنعام أكثر من ذلك، وذلك في قوله عز وجل:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٣) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٤)﴾.

هذا، وقد تعرّض المعصومون عليهم السلام في الكثير من كلماتهم للتفصيل بشأن مقام العبوديّة إلى الله تعالى، وحول آثار هذا المقام ونتائجه، والتي منها خصوصيّة الانقطاع إلى الله، ولأنّنا بنينا في هذه المقالة على الاختصار والاقتصار على العناوين العامّة والرئيسيّة، نكتفي لذلك بنقل بعض هذه الكلمات، على سبيل المثال لا الحصر.

ومّا ورد من ذلك، ما في المناجاة الشّعبانيّة المرويّة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، والتي واظب عليها أئمّتنا عليهم السلام، وذلك قوله عليه السلام:

«إلهي، بك عليك إلّا ألحقّني بمحلّ أهل طاعتك، والمثوى الصّالح من مرضاتك... - حتّى قوله: - إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنزّر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تحرق أبصار القلوب حُجُب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدّسك... - ويقول أيضاً: - إلهي، وألحقني بنور عزّك الأبهج، فأكون لك عارفاً، وعن سواك مُنحرفاً، ومنك خائفاً مراقباً، يا ذا الجلال والإكرام».

وفي الدّعاء الذي علّمه أمير المؤمنين عليه السلام كميل بين زياد: «واجعل أوقاتي من اللّيل والنّهار بذكرك مغمورةً، وبخدمتك موصولةً، حتّى تكون أعمالي وأورادي كلّها وزداً واحداً، وحالي في خدمتك سرّمداً». وفي دعاء يوم الأحد المرويّ عن إمامنا السّجّاد عليه السلام قوله:

«فصلّ على محمّد خير خلقك، الدّاعي إلى حقّك، وأعزّني بعزّك الذي لا يُضام، واحفظني بعينك التي لا تنام، واختم بالانقطاع إليك أمري، وبالمغفرة عمري، إنّك أنت الغفور الرّحيم».

وفي الدّعاء (٢١) من الصّحيفة السّجّاديّة: «واشغل بطاعتك نفسي عن كلّ ما يرد عليّ، حتّى لا أحبّ شيئاً من سخطك، ولا أسخط شيئاً من رضاك. اللهم صلّ على محمّد وآله، وفرّغ قلبي

لمحبّتك، واشغله بذكرك».

وفيها أيضاً في الدعاء (٥٢):

«إلهي، أسألك بحقّك الواجب على جميع خلّقتك، وباسمك العظيم الذي أمرت رسولك أن يسبحك به، وبجلال وجهك الكريم الذي لا يبلى ولا يتغيّر ولا يحول ولا يفنى، أن تصليّ على محمّد وآل محمّد، وأن تُغنيني عن كلّ شيءٍ بعبادتك، وأن تُسليّ نفسي من الدّنيا بمخافتك، وأن تُثنييني بالكثير من كرامتك برحمتك...».

وفي دعائه عليه السلام المعروف بـ (مناجاة المريدين)، فإنّه عليه السلام لم يكتفِ فيها ببيان جملةٍ من علائم الانقطاع إلى الله، بل وأشار - أيضاً - إلى عددٍ من أوصاف المتقطّعين إليه، قال:

«إلهي، فاسلك بنا سُبُل الوصول إليك، وسيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك، قرب علينا البعيد، وسهّل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين همّ بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدّوام يطرقون، وإيتاك في اللّيل والنهار يعبدون، وهمّ من هيبتك مُشفّقون، الذين صفّيت لهم المشارب، وبلغتهم الرّغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم المآرب، وملأت ضمائرهم من حبّك، وروّيتهم من صافي شربك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلّوا، ومنك أقصى مقاصدهم حصلوا. فيا مَنْ هو على المقبلين عليه مقبّل، وبالعطف عليهم عائِد مُفضّل، وبالعافلين عن ذكره رحيمٌ رؤوفٌ، وبجذبهم إلى بابه ودودٌ عطوفٌ، أسألك أن تجعلني من أوفرهم منك حظاً، وأغلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من ودك قسماً، وأفضلهم في معرفتك نصيباً. فقد انقطعت إليك همّتي، وانصرفت نحوك رغبتني، فأنت لا غيرك مُرادني، ولك لا لسواك سَهري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك مُنى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبّتك ولهي، وإلى هواك صابتي، ورضاكَ بُغيتي، ورؤيتك حاجتي... إلى أن يُخاطب الحقّ تعالى شأنه

بالقول: يا نعيمى وجنتي، ويا دُنْيَايَ وآخرتي، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

الخصوصية الثالثة: الذكر الدائم

ومن جُملة خواصِّ مقام العبودية أيضاً، الحصول على مقام الذكر الدائم، والتنزه والتحرر من أيِّ نحوٍ من أنحاء النسيان والغفلة. ولأجل أهميّة ذلك، نجد أن الله تبارك وتعالى قد خاطب النبي الأعظم ﷺ في القرآن الكريم، مراراً وتكراراً، أمراً إياه بدوام الذكر، نظير ما جاء في الآية التالية:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ولأنَّ الرسول الأكرم ﷺ قد حاز على مقام العبودية التامة، ولأنَّه - دون ريبٍ - قد امتثل الأمر الإلهي بالدوام على الذكر، فإنَّ وجوده المبارك ﷺ هو عين ذكر الله، ولأجل ذلك سُمِّي في القرآن الكريم باسم: الذكر، قال تعالى:

﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

ولهذا السبب أيضاً، أُطلق على أهل بيته ﷺ في القرآن اسم: أهل الذكر، وجُعِلَتْ بيوتهم بيوتاً للذكر والنور الإلهيين، ونالت هذه البيوت شرف أن الله جلَّ شأنه رَفَعَهَا وأَعْلَاهَا:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وفي وصف أولئك الذين نالوا مقام العبودية والذكر الإلهي يقول إمامنا السَّجَّاد عليه السلام:

«إلهي، فاجعلنا ممَّن اصطفَيْته لقُرْبِكَ وولايَتِكَ، وأخلصته لودِّكَ ومحَبَّتِكَ، وشوقته إلى لقائك، ورضيَّته بقضائك، ومنحته بالنَّظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعدته من هجرِكَ وقِلاك، وبوَّأته مقعد الصَّدق في جوارك، وخصصته

بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، وهيئت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك، ورغبت في ما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالحى بريتك، واختزته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك. اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم مُخلعة من مهابتك...».

المرحلة الخامسة: مرحلة الرضا

مرحلة الرضا لا يصل إليها إلا الشخص الذي وفق لطي مراحل الذكر الكثير، ودوام الطاعة، وعبودية الحق تعالى. وهي أعلى المراحل الواقعة في أوج السلوك العرفاني، وفيها يحصل للعارف الفناء في الرضا الإلهي، بحيث يصبح رضاه عين رضا الحق سبحانه.

وتسمى هذه المرحلة في الاصطلاح القرآني بـ (النفس المطمئنة)، التي وقعت مخاطبة من قبل الله تعالى في قوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (١٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (١٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (١٩) وَأَدْخُلِي جَنِّي (٢٠)﴾ [الفجر].

وأبرز الشخصيات التي تمكنت من الوصول إلى هذه الدرجة هم محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، وقد شرفهم الله تعالى في القرآن الكريم ببلوغهم هذا المقام السامي. ففي أحد المواضع يُشير إلى مقام الرضا الذي ناله النبي ﷺ ويقول مخاطباً إياه:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

ويقول في موضع آخر:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الصّحى: ٥].

ويأتي في أماكن أخرى بعبارات تؤكد هذه الحقيقة التي أشرنا إليها، وهي أنّ رضا الله في رضا رسوله ﷺ، من قبيل قوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وفي موارد أخرى، يقوم بعطف طاعة أولي الأمر على طاعة الرسول، في إشارة إلى مقام الرضا الذي ناله أهل بيت النبي ﷺ، والذين هم المصاديق الحقة لأولي الأمر، وفي إشارة - أيضاً - إلى أنّ رضاهم متحد مع رضا الله ورضا نبيه ﷺ. هذا، بالإضافة إلى الآيات الواردة بتعابير أخرى ومضامين مختلفة، أو تلك الآيات الواردة في بيان مقام الرضا لدى أمير المؤمنين عليه السلام خاصة، نظير الآيات الكريمة في آخر سورة الليل، والتي يتعين أن يكون المراد منها أمير المؤمنين عليه السلام بقرينة آية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾ [المائدة: ٥٥]، والآيات في سورة (هل أتى). قال تعالى:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾.

وفي هذا السياق أيضاً، الرواية المتواترة التي مفادها: أنّ الله يرضى لرضا فاطمة عليها السلام، ويغضب لغضبها. وقد روي عن سيد الشهداء عليه السلام أنّه قال يوم عاشوراء:

«رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصّابرين».

وفي دعاء أبي حمزة الثمالي يقول إمامنا السّجاد عليه السلام:

«اللّهُمَّ تقبل منّي، وأعلّ ذكرّي، وارفع درجتي، وحطّ وزري، ولا تذكرني بخطيئتي، واجعل ثواب مجلسي وثواب منطقي وثواب دعائي رضاك والجنة».

ولمقام الرضا خصوصيات وآثار، لعلنا نوفق إلى بيانها مفصلاً في فُرصة أخرى.

ونختم هنا بالقول: بأنّ ما تعرّضنا له في هذه المقالة حول العرفان الإسلاميّ الأصيل في المعارف السّجّاديّة لا يعدو أن يكون فهرساً إجمالياً للعناوين الرّئيسيّة العامّة في هذا المبحث، ونرجو من الله تعالى أن يوفّقنا لتفصيلها والمزيد من التّحقيق فيها. وما توفّيقني إلّا بالله، عليه توكلّت وإليه أنيب.

* * *

الهوامش:

- (١) راجع: السيوطي، جلال الدّين، الدرّ المنثور في التّفسير بالمأثور ٣: ٢٢٣، دار المعرفة، بيروت.
- (٢) من الدّعاء ١٧ من الصّحيفة السّجّاديّة.
- (٣) من الدّعاء ٤٨ من الصّحيفة السّجّاديّة.
- (٤) نهج البلاغة، الخطبة: (٢٢٢)، ص: ١٠٨، نسخة المعجم المفهرس، الطّبعة الرّابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النّشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٥) نهج البلاغة، الخطبة: (٨٧)، ص: ٣٣، نسخة المعجم المفهرس، الطّبعة الرّابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النّشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٦) نهج البلاغة، الخطبة: (١٩٣)، ص: ٩٥، نسخة المعجم المفهرس، الطّبعة الرّابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النّشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٧) من الدّعاء ٣١ من الصّحيفة.
- (٨) من الدّعاء ٢٠ من الصّحيفة، وهو المعروف بدعاء مكارم الأخلاق.
- (٩) الدّعاء ٤٨ من الصّحيفة السّجّاديّة.
- (١٠) من الدّعاء ٢٠ من الصّحيفة السّجّاديّة.
- (١١) من الدّعاء ٢١ من الصّحيفة.
- (١٢) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشّيعه ١٥: ٢٤٠، كتاب الجهاد، الباب: (٢٠)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (عليه السلام)، الطّبعة الأولى ١٤١٢، قم.
- (١٣) راجع: الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي ٢: ٩٥، كتاب الإيمان والكفر، باب: الشُّكر، الحديث: السادس، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطّبعة الرّابعة ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلاميّة طهران.

- (١٤) الطَّبْرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج ١: ٣٢٦، تعليق: السيّد مُحَمَّد باقر الخرسان، نشر: دار النُّعمان للطباعة والنَّشر، النّجف الأشرف ١٣٨٦هـ.
- (١٥) الحرّ العاملي، مُحَمَّد بن الحسن، وسائل الشَّيعة ١٥: ٢٧٧، كتاب الجهاد، الباب: (٣١) من أبواب جهاد النَّفس، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عَليهِ السَّلَام، الطَّبعة الأولى ١٤١٢، قم.
- (١٦) نهج البلاغة، الخطبة: (١٦٠)، ص: ٧٠، نسخة المعجم المفهرس، الطَّبعة الرَّابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النَّشر التابعة لجامعة المدرسين، قم.
- (١٧) نهج البلاغة، الخطبة: (١٩٢)، ص: ٩٠، نسخة المعجم المفهرس، الطَّبعة الرَّابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النَّشر التابعة لجامعة المدرسين، قم.
- (١٨) المجلسي، مُحَمَّد باقر، بحار الأنوار ٤٦: ٧٥، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٣، دار إحياء الثُّراث، بيروت.

الإمام السجاد عليه السلام

رائد الفقه الإسلامي على مذهب أهل البيت عليه السلام

□ السيد محمد رضا الحسيني الجبالي (*)

تقديم

إنَّ الإمام زين العابدين عليَّ بن الحسين بن عليَّ بن أبي طالب عليه السلام (٣٨ هـ - ٩٥ هـ) كان له دورٌ متميِّزٌ بين الأئمَّة الإثني عشر؛ حيث عاش مرحلةً فاصلةً بين أسلوبين من الجهاد الذي اضطلعوا به: الجهاد العسكري الذي قام به بعد الرسول الأكرم ﷺ كُلُّ من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ثُمَّ الحسن المجتبي السبط الأكبر عليه السلام، ثُمَّ الحسين الشهيد بكر بلاء عليه السلام في سبيل الخلافة.

وقد كانت فظاعة شهادة الحسين عليه السلام وشناعة عمل القتل بهيئت أوجب على الأئمَّة من بعده تبديل أسلوب الجهاد وأدواته بل ووجهته، من الجهاد المعلن في سبيل الخلافة الحقَّة وتوليِّ الحكم والسلطة، إلى الجهاد المعلن في سبيل الشريعة والدستور والأحكام. مع الحفاظ في كُلِّ من الدورين على الهدف غير المعلن؛ لكون كُلِّ منهما مكملًا للآخر في تحقيق أصل (الإمامة) التي هي

(*) أستاذ في الحوزة العلميَّة، وباحث في علوم الحديث والتاريخ.

استمراراً لأهداف (النُّبُوَّة) الإلهيَّة.

وهذا البحث يتكفَّل بيان أسباب هذا التَّبَدُّل وأهدافه وأساليبه عمل الإمام السَّجَّاد عليه السلام في سبيل تحقيقه وتنفيذه.

شموليَّة الإسلام لأُمور الدِّين والدُّنيا:

إنَّ الإسلام الَّذي اختاره الله عزَّ وجلَّ ديناً خاتماً لرسالات السَّماء، وجعله للبشريَّة ديناً قيماً لا عوج فيه، جمع في تعاليمه كُلَّ مزِيَّةٍ تؤثر في كمال البشر وسعادتهم في الحياة الدُّنيا، وتؤدي إلى نجاتهم وفوزهم في الحياة الآخرة؛ ولذا احتوى ما يخصُّ العقائد والالتزامات الفكريَّة والعلميَّة، كما احتوى الأحكام والوظائف العمليَّة، سواء في ذلك ما يرتبط بدنيا الإنسان، أم ما يرتبط بدينه.

وقد تبلور هذا في سيرة المسلمين في عصر الرِّسول ﷺ؛ حيث عاشوا معه على عقائد والتزامات، منها الخضوع لحكومته ﷺ وولايته عليهم، وكونه أولى منهم بأنفسهم، وكذا عاشوا معه على تطبيق الدِّستور الإلهي، وهي الشريعة والالتزام بأحكامها المنزلة في كتاب الله وما جاء به من سننه وقضاياه ﷺ.

قيام الإمامة بشؤون الإسلام كافة:

وكذلك كان شأنُ الإمامة بعد النُّبُوَّة؛ فإنَّ الَّذين خَلَفَهم رسول الله ﷺ من بعده أئمَّةٌ للأُمَّة، إنَّما جعلهم بمنزلته في كونهم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأنَّهم أمناء على دنيا النَّاس ودينهم، كما كان الرِّسول نفسه، فهم يقومون بما قام به من واجبات التَّعليم والإرشاد والهداية، وعلى الأئمَّة لهم ما كان عليهم له من الانقياد والطَّاعة، ومن هنا اتَّفقت كلمة العلماء على أنَّ الإمامة - بعد النُّبُوَّة - هي: «رئاسة عامَّة على أُمور دين الأُمَّة ودنياها». وأنَّ الإمام هو الَّذي له هذه الرِّئاسة.

وكذلك عاشت الأئمة في عصر الخلافة والخلفاء هذا الواقع، فإن المتربّعين على أريكة الخلافة - بأيّ طريقة أو وجهٍ تسنّموها - كانوا يرون أنفسهم أولياء على الناس وحاكميهم على دنياهم، وكانوا يرون أنّ لهم السُّلطان وإدارة الدولة وشؤونها، وكذلك كانوا يتدخّلون في الشؤون الدّينية والأحكام الشرعيّة، فيقيمون الصّلوات ويعيّنون القضاة، بل يحاسبون الآخرين على مخالفتهم في الفقه والأحكام والالتزامات المحدّدة.

والأئمة من أهل البيت عليهم السلام الذين نعتقد - نحن الشيعة - بكونهم خلفاء منصوبين من قبل الله وبوصيّة النبي عليه السلام بالنّصّ الجليّ، جعلهم أئمةً لأئمته، لا بدّ أن يكونوا كذلك: حُكّاماً وولاءً على أمور الدولة والقيادة، كما هم أدلّة على الأحكام ومحدّدون لحدودها وقائمون بشؤونها، ولا معنى لإخلاء إمامتهم عن أيّ جزء أو شرط أو صفةٍ ثبتت لأصل (الإمامة) سواء ما يرتبط بالدّين أم الدُّنيا.

موقف أهل البيت عليهم السلام من هذا الواقع:

وقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون هذا الواقع، منذ أوّل لحظةٍ فارق النبي عليه السلام هذه الحياة الدُّنيا، لما ثبت لهم من حقّ الإمامة الإلهيّة والوصاية النّبويّة، بنصوصٍ واضحةٍ وأدلّةٍ صريحةٍ لائحة، لم يتصوّر أحدٌ قيام أحدٍ بمخالفتها؛ ولذا لما تمّت الأمور في سقيفة بني ساعدة على خلاف ذلك، كان الاستنكار المعلن من أمير المؤمنين عليه السلام وجماعة أهل البيت أوّل خطوة واضحةٍ وصريحةٍ لم تخفَ على أحد، وقامت سيّدة نساء العالمين فاطمة الزّهراء عليها السلام بإعلان ذلك على رؤوس الأشهاد، بصرخاتها المدويّة في أذن التّاريخ، بخطبها التي قطعت الطّريق على كلّ محتجّ، وكُلّ قائل، وكُلّ حديث، حتّى قضت بما نابها من جرّاء ذلك، ومما جرى عليها من الاعتداء: مغصوبة الإرث، مكسورة الصّلع، وعلى

عضدها من أثر السَّياط كمثل الدُّملج.

وبقي أمير المؤمنين عليه السلام منحاذاً عن حقّه، صابراً، وفي العين قذًى، وفي الحلق شجى، يرى تراثه نهياً^(١)، فظلّ حريصاً على سلامة ما أوصي به وأوكل إليه، يراقب عن كذب تصرُّفاتهم، حفاظاً على الإسلام أن لا تضيع أصوله وفروعه، وعلى أهدافه أن لا تقلع من الجذور بيد من تسلَّلوا - باسم الدين والصُّحبة من المنافقين - إلى المناصب العليا والمقامات الرَّفِيعَة المتقدِّمة، ولم يترك موقعه، ولم يفرِّغ السَّاحة لهم، بل بدأ بتدبير مهمٍّ، وقام يذر بذور الحقِّ في المواقع الحصبة حتى أنبت نباتاً حسناً، وهي الثُّلَّة الخيِّرة من الرِّجال العارفين الذين وقفوا عند الصَّرورة مواقف مشرِّفة لنصرة الحقِّ، وكانوا حملته ورعاته، ونقلته ورواته، وهو عليه السلام على طول المدَّة، يصرخ بالإعلان عن حقّه المغصوب، ويشتكى على من تعدَّى على سلطانه وولايته، وأضاع على الأُمَّة الفرص في التَّقدُّم والازدهار، والتَّزوُّد من علوم الأئمَّة الأطهار.

ولمَّا رجعت إليه الأُمَّة، وسلَّمت إليه الأزمَّة، أثبت جدارته، وأصرَّ على إعلان إمامته، وقاوم أولئك الذين صنعتهم الفترة المظلمة من الجناة النَّاكثين، والعتاة الباغين، وشتَّت فلول البُله المارقين، وحقَّق ونفَّذ ما أمره رسول الله صلى الله عليه وآله من قتال هؤلاء المجرمين، فجاهدهم على أصل حقّه في الإمامة، كما أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وآله جاهد الكفَّار على أصل حقّه في النُّبوَّة.

وجاء دور الحسين السَّبطين عليهما السلام بإثبات حقِّها في الإمامة المنصوص عليها بقول الرَّسول صلى الله عليه وآله: «هما إمامان قاما أو قعدا»^(٢) فأثبت لهما الإمامة، سواء قاما بها بتطويع الأُمَّة وانقيادها، أو قعدا عنها بتخلُّف الأُمَّة وارتدادها عنهما، ولقد قاما بما وجدا من النَّاصرين وإن قُلُّوا، إثباتاً لحقِّهما وإعلاناً عن إمامتهما، ولمَّا لم يجدوا أعواناً قعدا، ولكن لم يقلعوا عن الإعلان عن حقِّهما في الإمامة، وعن ظلم معاوية ويزيد في غصب المقام الموضوع لهما، وقد طالبا به وقاما في سبيله حتى

ذهبا ضحيّة جهادهما، بعدوان الغاصبين وخذلان الخاذلين، فقضى الحسن عليه السلام مسموماً، وقضى الحسين عليه السلام شهيداً مظلوماً.

موقف الإمام السّجّاد ومن تلاه من الأئمّة عليهم السلام:

لقد كان قتل الإمام الحسين الشّهِيد عليه السلام بتلك الصّورة الفجيعة، وبتلك الجرأة على انتهاك حرّيات الله، والتّعدي على رسول الله، وبذلك التّحدّي السّافر لأحكام الله ولأعراف النّاس، كان ذلك حدّاً فاصلاً بين الإسلام وما فيه من عقيدة وشرعة، وبين ما كان يؤمّله النّاس من هذا الدّين من عدلٍ وإنصافٍ ورحمةٍ ورأفةٍ وأعرافٍ.

فإذا كان الحسين عليه السلام وهو ابن الإسلام وسبط رسول الله صلّى الله عليه وآله وصحابي من أصحاب الرّسول، وحاملٌ للإسلام الكامل بعقيدته وشريعته، الذي تلقّاه غصّاً من اللّبن، ومن فم رسول الله صلّى الله عليه وآله وفي حجره مباشرة، إذا كان هذا الحسين يقتل هكذا علناً، وفي وضوح النّهار، ويذبح كما تذبح الشّاة، بلا نكير يسمع، ولا رادع يمنع، ولا صوت يرفع!

فمن ذا الذي يرجي لهذا الدّين أن يحميه؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يرجع المياه المهدورة إلى مجاريها؟! وكيف يمكن أحداً أن ينادي بطلبه أقلّ حقّ مضاع؟! فكيف بمن ضاعت منه القيادة؟! فهل يمكنه أن يطلبها؟! أو غصبت منه أن يتقاضاها من غاصبها؟!

مع أنّ الذي حصل بقتل الإمام الحسين الشّهِيد عليه السلام كشف عن أنّ الأئمّة ابتعدت عن ذلك الذي كان للإسلام من شموليّة لحكم الدّنيا وحكم الدّين معاً، ولم يعرفوا عن هذا الواقع شيئاً أصلاً! وإلّا فما ذلك الصّمت والسّكوت، والخنوع والخضوع للظّلمة الفاسدين؟

وبهذا نعرف كلام الإمام الحسين عليه السلام: «فعلى الإسلام السّلام، إذا قد بُليت

الأمة براع مثل يزيد»^(٣).

ونعرف معنى قول الإمام الصادق عليه السلام: «ارتدّ الناس بعد قتل الحسين عليه السلام... ثم إنّ الناس لحقوا وكثروا»^(٤).

ففي مثل هذا الظرف القاسي، والذي فقد فيه الناصر من الناس، كان جهاد الإمام السّجاد زين العابدين عليه السلام هو السّبيل الوحيد لأداء ما كان على عاتقه من واجب الإمامة، وهو الحفاظ على الإسلام بعقيدته وشريعته، أصولاً وفروعاً؛ إذ كان هو الشّخص الوحيد الذي تتّجه إليه الأنظار، ويتوقّع منه الانتصار، باعتباره وليّ الثّار، وأكبر مَنْ في الدّنيا من بني النّبيّ المختار، مع فضله وعلمه وما عرف له من جميل الآثار، فهو الأوّل للقيام بعملٍ على مستوى المسؤوليّة الملقاة على عاتقه.

والحقّ أنّه قد أدّى هذا الواجب الثّقيل الصّعب بأفضل ما يمكن، كما فصلنا صوراً من أدائه في كتابنا (جهاد الإمام السّجاد عليه السلام). فقد استغلّ الإمام عليه السلام ما وصلت إليه الأحوال بالأمة من الانخزال عن العقيدة، ونكوصها عن الالتزامات تجاه الإمامة، وإعراضها عن معرفة هذا الحقّ للإمام، وكانت السّلطات تعرف من الأمة هذا الموقف وهذه الحال، فلذا كانت لا تأبه بتصريحات الإمام ونداءاته وإعلامه عن إمامة نفسه وعن إمامة أهل البيت عامّة. ولمعرفة الإمام عليه السلام هذه الحال، كان يعلن عن إمامة نفسه بصراحة، واستحقاقه المقام بالنّصّ والليّاقة، وكذلك يعلن في خطبه وأدعيته وفي المناسبات المختلفة عن أنّ هذا المقام مقام أهل البيت عليه السلام؛ لئلاّ يتصور أحدٌ أنّه عليه السلام تقاعس عن مطالبة الإمامة، أو تنازل عنها؛ لأنّ منصب الإمامة ليس لأحدٍ حتى الإمام نفسه أن ينزعه عن نفسه، أو يتخلّى عنه؛ لأنّه لباس ألبسه الله إيّاه وأثبتته له، ولا يكون إعراض الأمة عنها وعن الإمام موجباً لزوال الحقّ ولا لنفيه، وإنّ سكّت الإمام وسكن ولم يتّخذ إجراءً في سبيل استرجاع الحقّ لفرض

عدم الناصر.

البديل الموازي في الهدف:

ولما بلغ الأمر إلى ما آل إليه من إبعاد الإمام عليه السلام من منصبه في السُّلطة الدُّنيويَّة، ومنعه من أداء دوره الإلهي في هذا المجال، فإنَّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام في مجموع ما قام به من جهودٍ جبَّارةٍ في النُّضال ضدَّ الحكومات الأمويَّة والمروانيَّة المتعاقبة في عصره، ممَّا يعدُّ جهاداً في تقويض أسسها وتقويت الفرص على التَّدابير التي كانوا يتَّخذونها، قد قام بإحياء الإمامة وأخذ زمام أمرها بالمبادرة إلى شقِّها الثَّاني، وهو أمر منصبه في مجال السُّلطة الدِّينيَّة، وهو إمام الشَّريعة الإسلاميَّة، وإثبات الحقِّ الشَّرعيِّ للأئمَّة في قيادة النَّاس وهدايتهم إلى الحقِّ من شريعة الله ودينه، وتطبيق الدِّستور بنصِّه الصَّحيح الذي أوحاه الله إلى رسوله، وأورثه الرِّسول إلى الأئمَّة من بعده، لينشروه من أصفى ينابيعه وروافده، وهم أئمَّة أهل البيت عليهم السلام؛ لكونهم أدري بما في البيت.

ثمَّ إنَّ السُّلطات - بعد استتباب الأمر لهم - لم يكن لهم اهتمامٌ كبيرٌ بالأُمور الشَّرعيَّة والدِّينيَّة، وقد صرَّح بهذا معاوية في بداية سلطته العامَّة بقوله: «إني ما قاتلتكم لتصلُّوا أو تصوموا، وإنَّما قاتلتكم لأنَّامر عليكم»^(٥). وهكذا كان شأن جميع من جاء بعده من الحُكَّام، وإنَّما كانوا يقومون بظواهر من الشَّرع ليخدعوا بها النَّاس، ويظهروا أنَّهم ملتزمون بالإسلام والشَّريعة، وإن كانوا بها جاهلين، بل لها مخالفين، فلهذا لم يكثرثوا بمن كان يهتَّم بأمر الأحكام الشَّرعيَّة ما لم يتعرَّض للسُّلطان، ولم يزاحم العرش، ولا ما يقوم به من مخالفات في داخل البلاط من الشَّهوات والنَّزوات.

فكان من الإمام السَّجَّاد عليه السلام أن بدأ العمل على هذا الجانب؛ ليحقِّق هذا الشَّطر من الإمامة، بعد أن لم يستطع تنفيذ ذلك الشَّطر، ولم تتعرَّض له

السُّلطات؛ لأنَّها لم تر في هذا ما يهدّد ملكها وسلطانها، واطمئنّانها بعدم تمكُّن تأثير ذلك فيها وضرره عليها، لوجوه:

أولاً: لأنَّ أحداً لم يجرؤ على المعارضة والتَّعرُّض للسُّلطة؛ للخوف المستولي على الأُمَّة، ومنَّ حاول مثل ذلك فإنَّ مصيره هو مصير القائمين بحركة الحرَّة، والتَّوابين، وابن الأشعث، وزيد الشَّهيد عليه السلام؛ حيث أُبِيدوا؛ لأنَّهم لم يجدوا الأنصار.

ثانياً: لأنَّ السُّلطات كانت تجد من يبرّر لهم مخالفتهم للشَّريعة، ويصحّحها لهم بوضع الفتاوى الباطلة، وصنع الأحاديث الموضوعة، من قبل وعّاظ السُّلاطين، بل من السَّهل صنع الفقهاء تكبير رؤوسهم والتَّنْفخ في جلودهم، وإعطائهم سماتٍ بارزةً من القضاء والفتوى، بل الإمامة الفقهيَّة، مثل ما صنعه مع الزُّهري.

تدابير الأئمّة عليهم السلام لتحقيق هذا الهدف:

إنَّ الأئمّة عليهم السلام من بعد الحسين الشَّهيد عليه السلام وبدءاً بالإمام زين العابدين السَّجّاد عليه السلام قاموا بتدابير دقيقة للوصول إلى الهدف وتحقيقه، عبر المراحل التَّالية:

١. توجيه الأُمَّة إلى أهميَّة الشَّريعة، وتحديد موجبات الاهتمام بها.
٢. إثبات انحصار العلم بالفقه الصَّحيح عند أهل البيت عليهم السلام واستمراره عندهم.
٣. التَّصدّي لفقهاء السُّلطة وما يدور في فلکهم.
٤. تحصيل الاعترافات من كبار فقهاء العصر بأعلميَّتهم وأفقهيَّتهم.
٥. تكوين مدرسةٍ لتربية الأجيال من الفقهاء الكبار.
٦. خلق الأعمال الفقهيَّة الخالدة.

والنتيجة التي حصلت من تلك التدابير والجهود هي: ظهور المذهب الفقهي المستقل عن السلطات، والبعيد عن أغراضهم السياسية ومصالحهم الشخصية، اعتماداً على النص الصحيح والتعبد به، مضافاً إلى الأصول القويمة المتلقاة من الأئمة عليهم السلام أنفسهم، والتي توافقت الكتاب، والسنة الموثوقة، والعقل العادل، والمنطق العرفي السليم، وهي مناهل ثرة لا رتواء أهل العلم بالمعرفة الشاملة، ومنابع فياضة لإرواء المناطق التي لم ينص عليها بالخصوص، لاندراجها تحت المناهل العامة التي وضعت لتكون قواعد تحل مسائل المكلفين في صور الشك، أو الجهل، وفقدان النصوص الخاصة، أو إجمالها، أو تعارضها والارتباك فيها.

ولذا لا يوجد في الفقه الشيعي ما يسمى بمناطق الفراغ، ولا حاجة إلى اللجوء إلى القياس الظني، ولا المصالح المرسلة التي تعتمد على اجتهاد الرأي، أو استصلاح البشر، المرفوض عندهم؛ لأن فرض هذه الأمور يعني العجز في الدستور الإسلامي، أو القصور في شموليته وقابليته، بما يشك في ربانيته وخاتمته، والعياذ بالله.

ولنفضّل في تبين الجهود في هذه المراحل:

أولاً: أهمية الشريعة وموجبات الاهتمام بها

وكما أسلفنا، فإن الشريعة تعتبر نصف الدين؛ إذ هي عقيدة ودستور، ويكفي هذا لوجوب الاهتمام بها على المسلم المعتقد، مع أن الشريعة تدخل في صميم حياة المسلم الشخصية، والأسرية، والاجتماعية، فتحدّد له المسار فيما يجب عليه وما يحرم، وما يلزم له أن يفعل أو يترك، فإذاً يجب عليه العلم بأحكامها في جميع ما حوله، وما له، أو عليه، ومن هنا فإن من الواضح ضرورة الاهتمام بها بعد الاعتقاد بالإسلام، وأنه دين الله، والالتزام بما أنزله الله على رسوله عليه السلام، وهي الثمرة العينية التي يجتنيها المسلم المكلف من انتمائه الديني،

وبها تثمر مزرعته في الدنيا ليحني ثمارها اليانعة في دار بقائه وخلوده في الآخرة. ولما انفلت من المسلمين الشطر الأول من الدين، وهو الالتزام بالإمامة في مجال الحكم والسلطة، وخرج من إمكاناتهم تنفيذه، فقد أصبحت العناية بالشطر الثاني من الدين - وهو الأحكام العملية، وهي الشريعة - من أهم الواجبات على المكلف، وهذه هي الوجهة السياسية التي اتخذها الأئمة عليهم السلام في ذلك الظرف.

ثانياً: انحصار العلم بالفقه الصحيح عند أهل البيت عليهم السلام واستمراره عندهم

لقد استفاضت النصوص المعلنة عن أن العلم الصحيح هو الموجود عند أهل البيت عليهم السلام:

منها قولهم: «إنّ علياً عالم هذه الأمة، والعلم يتوارث، ولم يهلك أحدٌ منا إلا ترك من أهله من يعلم مثل علمه»^(٦).

وكان عليٌّ عليه السلام ينادي: «سلوني قبل أن تفقدوني...»^(٧).

وكان الحسن المجتبي عليه السلام يجلس في مسجد رسول الله ﷺ، ويجتمع الناس حوله: «فيتكلّم بما يشفي غليل السائلين، ويقطع حجج القائلين»^(٨).

وكان للحسين عليه السلام في مسجد جدّه الرسول ﷺ مجلسٌ انتبه إليه حتّى الأعداء، حتّى قال معاوية: «ليس فيه من الهزلي شيء»^(٩).

وابن عمر مجّد الحسنين عليهم السلام، فقال: «ابنا رسول الله ﷺ، إنهما كانا يغرّان بالعلم غرّاً»^(١٠)، أي: يزقّانه كما يزقُّ الطائر فرخه.

وأقرّ ابن الأزرقي الخارجي بأنّ أهل البيت عليهم السلام: «منار الإسلام ونجوم الأحكام»^(١١).

وقد وصل أهل البيت كلّهم علمهم بعلم جدّهم الرسول ﷺ المتّصل بوحي السّماء بطريق جبرئيل عن الله، فكان كلّ واحدٍ منهم يقول: «حديثي حديث

أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث رسول الله»، وقال الشاعر الشيعي:

ووال أناساً قولهم وحديثهم روى جدنا عن جبرئيل عن الباري
وقد كان الإمام السّجاد عليه السلام الأكثر تأكيداً على هذا الجانب إعلاناً وتطبيقاً؛
لأنّه الأسبق تأسيساً وتشبيهاً بعد المرحلة الأولى كما ترى.

ثالثاً: التّصديّ لفقهاء السّلطة ومن يدور في فلّكهم

لقد تصدّى الأئمة عليهم السلام بشدّة لأعوان الظّلمة من الفقهاء وأهل العلم
المتلبّسين به، والمتنسّبين إليه، واعتبروهم شركاء معهم في ظلمهم وعدوانهم
وتجاوزاتهم للحدود، فهذا الإمام السّجاد عليه السلام يقول للزّهري وهو من الرّؤوس
الكبيرة وذوي الجلود المنفوخة، في بلاط الأمويّين والمروانيّين، قال في رسالته
القارعة إليه: «واعلم أنّ أدنى ما كتمت وأخفّ ما احتملت: أن آنست وحشة
الظّالم، وسهّلت له طريق الغيّ، بدنوّك منه حين دنوت، وإجابتك له حين
دعيت، فما أخوفني أن تبوء بإثمك غداً مع الخونة، وأنّ تسأل عمّا أخذت
بإعانتك على ظلم الظّلمة... أوليس جعلوك قطباً أداروا بك رحي مظالمهم؟!
وجسراً يعبرون بك إلى بلاياهم؟! وسلماً إلى ضلالتهم؟! داعياً إلى غيهم، سالكاً
سبيلهم، يُدخلون بك الشكّ على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجّهال إليهم،
فلم يبلغ أقصى وزرائهم، ولا أقوى أعوانهم إلّا دون ما بلغت من إصلاح
فسادهم»^(١٢). ويقول في نهاية رسالته إليه: «فحمد الله الذي عافانا ممّا ابتلاك
به».

وكان يقول لمن يشاجره في المسائل الفقهيّة: «يا هذا، لو صرت إلى منازلنا
لأريناك آثار جبرئيل في رحالنا، أيكون أحد أعلم بالسُّنة منّا؟!»^(١٣).

ويقول لرجل من أهل العراق: «أما لو كنت عندنا بالمدينة، لأريناك مواطن
جبرئيل من دورنا، استقانا النّاس العلم، فتراهم علموا، وجهلنا؟!»^(١٤).

وهكذا قاوم الإمام الانحراف الفقهي الذي مُنيت به الأئمة طوال عهد الخلفاء المبطلين، بالتزام الشريعة وأخذها ممن حاول التفقه من طرق لا تتصل بمنابعه الصافية المأمونة، بل اعتمدوا الآراء والمقاييس العقلية التي لم ينزل الله بها من سلطان، فكان يقول - بكُل صراحة -: «إنَّ دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، لا يصاب إلا بالتسليم، فمن سلّم لنا سلم، ومن اقتدى بنا هدي، ومن كان يعمل بالقياس والرأي هلك»^(١٥).

واسمع قوله في تهديد المنحرفين: «ومن وجد في نفسه ممّا نقوله أو نقضي به حرجاً، كفر بالذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم، وهو لا يعلم»^(١٦).

هكذا شدّد الإمام النكير على تلك البوادر المضلّة، وحارب بدعة تقليد غير أهل البيت ﷺ من المذاهب المصطنعة، المجعولة من قبل السُلطة، والمعطاة لأصحابها البعداء عن الأئمة ﷺ سبباً ولا يرتبطون بهم نسبياً.

وهو - في نفس الوقت - يحدّد المنع الفياض، والمنهل العذب للشريعة، وحثّ الأئمة على تقليد أهلها وهو فقه أهل البيت ﷺ.

رابعاً: اعتراف كبار علماء العصر وفقهائهم بأفقيّة الإمام ﷺ

إنّ الجهود المذكورة سبّبت اعتراف كبار الفقهاء، بأنّ الإمام السّجّاد ﷺ هو أفقه أهل عصره، بما فيهم علماء البلاط ووعاظ السلاطين. فهذا أبو حازم - وهو من الزُّهاد والفقهاء المعروفين - يقول: «ما رأيت هاشمياً أفضل من عليّ بن الحسين، وما رأيت أحداً كان أفقه منه»^(١٧).

ومثله قال الزُّهري ابن شهاب المقدّم في البلاط^(١٨).

وكذلك من الأئمة الشافعي الذي تأخّر عنه قال: «وجدت عليّ بن الحسين وهو أفقه أهل المدينة...»^(١٩).

خامساً: تكوين مدرسة لتربية الأجيال من الفقهاء الكبار

لقد سعى الإمام السّجّاد ﷺ في تركيز فقه أهل البيت ﷺ بين الأئمة وتبيينه

وبثّه، بتعليمه لأكبر عدد ممكن ممّن حوله من طُلاب العلم القاطنين في المدينة، أو المهاجرين الوافدين من أطرافها، مضافاً إلى الأعداد الكبيرة من الإماء والعبيد الذين كان يشتريهم ليعتقهم بعد أن يعلّمهم طوال سنة، يعيشون معه، ثمّ يموّهم لينتسروا في الأرجاء ويبثّوا تعاليمه، وقد تحدّثنا عنهم في كتاب (جهاد الإمام السّجاد عليه السلام).

وكذلك بثّ العلم والوعي بين طُلاب العلم الذين كانوا يحضرون دروسه التي كان يلقيها في مسجد الرّسول ﷺ في المدينة، وقد تألّفت منهم مجموعة كبيرة تقدّر بألف شخص، سمّوا بـ (القراء).

والمراد بهم الذين يعرفون القراءة، ويدرسون الكتب بما في ذلك القرآن الكريم، ولم تختصّ التسمية بقراء القرآن فقط، كما هو المعروف اليوم، أو قبيل اليوم.

ولو فرض كون المراد خصوص الذين يقرأون القرآن، فلا ينافي أن يكونوا طلبة للفقّه وقراء لغيره من كتب العلم أيضاً؛ إذ لا معنى لمن يقرأ القرآن بحيث يكون معروفاً بذلك أن لا يقرأ غيره من كتب العلم.

مع أن قارئ القرآن لا بدّ أن يكون مدركاً لمعانيه عاملاً بمؤدّاه بما في ذلك العقائد والفقّه وغير ذلك. فكلّمة (القراء) بأيّ من هذه الوجوه فرض معناها، فهي دالّة على أن تلك المجموعة كانوا من أهل العلم طُلاباً وغيرهم، فإذا قرأنا النّصّ نجده يقول: «إنّ القراء كانوا لا يخرجون إلى مكّة حتّى يخرج عليّ ابن الحسين، فيخرج وخرجنا معه ألف راكب»^(٢٠).

وهذا يدلّ على التزام القراء ركاب الإمام عليه السلام دون غيره من الصّحابة الذين كان عددهم كثيراً في ذلك العصر، ولا التّابعين الكبار الذين كان عددهم أكثر. فالتزام الخروج مع خصوص الإمام عليه السلام فيه من الدّلالة الواضحة على اعتقادهم بأعلميّة الإمام بأمر الحجّ، وهذا هو شأن النّاس وديدهم أنّهم

يصحبون الأعراف بأحكام الحج ليكون مرشداً لهم.

وإذا عرفنا أنَّ المتكلم بذلك النص هو سعيد بن المسيب الفقيه المعترف بعلمه، نجد مدى ما كان للإمام السَّجَّاد عليه السلام من الاعتراف له بالعلم بالأحكام.

إنَّ انتشار تلك المجموعة بين الأُمَّة واحدةً من ثمار تلك الجهود الحثيثة في مدرسة الإمام عليه السلام، وقد نبغ فيهم الكثيرون من أمثال سعيد بن جبير الشَّهيد، الَّذِي كان ابن عباس - حبر الأُمَّة وبحرها - إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، يقول لهم: «أليس فيكم ابن أمَّ الدَّهْمَاء؟! يعني: سعيد بن جبير»^(٢١).

وابن عمر، لما سئل عن فريضة في الإرث، قال للسَّائل: «أئت سعيد بن جبير فإنه أعلم بالحساب مِنِّي»^(٢٢). فإذا كان واحدٌ من تلامذة الإمام السَّجَّاد عليه السلام بهذا المستوى أن أُرْجِع إليه صحابيَّانِ مِمَّنْ يعدُّ من العلماء والفقهاء، فكيف بالإمام نفسه؟!

إنَّه حقاً كان الأفقه والأعلم بلا منازع.

سادساً: خلق الأعمال الخالدة

إنَّ من جهود الإمام السَّجَّاد عليه السلام أَنَّهُ خَلَدَ تراثاً عظيماً، تستمتع منه الأجيال: فمضافاً إلى رسالة الحقوق الوثيقة الإنسانيَّة العظيمة، التي تعتبر من مفاخر الإسلام.

وإلى الصَّحيفة السَّجَّادِيَّة التي هي من نواجز الفكر الإسلامي العريق. فهناك الأدعية الكثيرة والعظيمة التي استدركت ملحقات للصَّحيفة الأولى، والتي سَمَّيت بالثانية والثالثة، وهكذا إلى السَّابعة، ويحتوي مجموعها على كنز علميِّ عرفانيِّ تربويِّ أخلاقيِّ، بل موسوعة فذة تفتخر بها الأُمَّة الإسلاميَّة مدى الأجيال.

ثمَّ إنَّ الحديث الشَّريف يعتبر ثاني مصادر الفكر الإسلامي بعد القرآن

الكريم، وكانت رواية الحديث هي السمة البارزة للفقهاء الأوائل، وكان للإمام دورٌ كبيرٌ في هذا المجال؛ حيث أثبت علماء الرجال (١٧٠) راوياً ممن اتَّصل بالإمام ورووا عنه الحديث، كما سجَّله الشيخ الطُّوسي في كتاب (الرجال).

وأما جهده الحثيث في تخليد الحديث، فقد ذكروا له ما يلي:

(نسخة) رواها حفيده عبد الله بن إبراهيم من أبناء الحسين الأصغر.

والنسخة في مصطلح الحديث هي: الكتاب الجامع للروايات المنقولة عن المنسوبة إليه بالخصوص من دون تحديد موضوع ولا ترتيب أبواب.

(كتاب حديثه عليه السلام) جمعه داود بن علي بن بشير، أبو سليمان الدَّهَّان الكوفي.

وهذا العنوان يقتضي أن يكون حديثه من الكثرة ما يُجمع بين دفتين.

كما يدلُّ على كثرة حديثه عليه السلام أنَّهم أعدَّوه من (الحفاظ الكبار) وقد ترجمه الذهبي في كتابه (تذكرة الحفاظ).

ومجموع هذه الشواهد تكون حجراً يلقم به من قال في الإمام عليه السلام: «إنَّه قليل الحديث».

وهذا ظلم سافر من ذلك القائل ومن لفَّ لفَّه.

ونقترح أن يجمع حديث الإمام في (جامع) ليكون دليلاً عينياً على جهد الإمام عليه السلام، كما يتحدَّد معه أهمُّ الموضوعات التي كان يعتني بها، والله الموفق والمعين.

وأما في الفقه:

فقد أثار عنه ما ألفه المحدث الشَّهير أبو حمزة الثمالي في كتاب (الجامع في الفقه).

كما أنَّ كتابه (المنسك) الذي بقي محفوظاً، هو من التراث الإسلامي الخالد، وهو يجمع ما يرتبط بالحجِّ في ثلاثين باباً، يحتوي على أحكامه الواجبة وسننه المندوبة.

وقد وفَّقني الله لتحقيقه، ونسأله تعالى التَّوفيق لنشره.

وأخيراً:

تمهيد الإمام السَّجَّاد عليه السلام لمن يليه من الأئمَّة عليهم السلام:

إنَّ من كبار تلامذة الإمام السَّجَّاد عليه السلام هم أولاده الثلاثة: الإمام الباقر محمد، وزيد الشَّهيد، والحسين الأصغر، وقد اشتركوا جميعاً في رواية (المنسك) عن أبيهم الإمام عليه السلام، كما شرحنا ذلك في ما قدَّمناه للكتاب. كما أنَّ كلاً منهم - وخاصة الحديث والفقه.

وكذلك روى عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام حفيده الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام. وقد كانت جهود الإمام السَّجَّاد عليه السلام العلميَّة، وبالأخصَّ الفقهيَّة، تمهيداً للإمام الباقر عليه السلام أن يتزعم المدرسة الفقهيَّة لأهل البيت عليه السلام وأن يوسَّعها، وإلَّا فإنَّ من غير الممكن أن توجد تلك المدرسة الكبيرة التي عمل فيها الإمام الباقر عليه السلام فجأة، في فترة إمامته (٩٥ - ١١٤) وكذلك الإمام الصَّادق عليه السلام الذي تمكَّن من إنمائها وترويتها حتى بلغ عدد تلاميذه في نهاية عصره ما ينوف على (أربعة آلاف) طالب علم وراو للحديث، منهم (٧٠٠) شيخ في مسجد الكوفة فقط، كما حدَّده مؤرِّخو العلم.

الخاتمة:

نتيجة البحث:

وهكذا فقد أثبتنا أنَّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام تمكَّن بجهاده وجهوده من بسط ولاية أهل البيت عليه السلام على الأُمَّة، وإنقاذها من الضَّلالة التي أرادها لها المحرِّفون لسنن الدِّين والرَّسالة، وتمكَّن الإمام أن يُحافظ على الشَّريعة

الإسلامية في ظلّ أهل البيت عليهم السلام، وحسب معرفتهم ومن معين علومهم، بعد أن سُلبت منهم السُّلطة الحكوميّة بأقصى وجه يعتمد سفك الدِّماء الطَّاهرة، وإزهاق الأرواح البريئة، وسحق الكرامات، وهدر الحرمات، مثل ما انتهى إليه الأمر في كربلاء.

وقد تمكّن الإمام السَّجَّاد عليه السلام بجهاده المرير من فرض الولاية التَّشريعية على السَّاحة بأفضل وجه وأقواه وأحكمه، بحيث لم يتمكّن الأعداء من سلبه وإبادته، على الرُّغم من العراقيل التي وضعها الحُكَّام بعد ذلك في طريق الأئمة وأصحابهم، حتى بلغ الأمر ببعض الأذنان أن يصرّح: بأنّ أهل البيت قد تفرّدوا في الفقه بمذاهب شاذّة!

وهذا واحد من نتائج الضُّغوط التي مارسها الطُّغاة الحاكمون بالزُّور، في مواجهة الأئمة عليهم السلام الذين قاوموا كلّ ذلك إلى حدّ الشَّهادة، ونشروا الحقّ حتى من وراء قضبان السُّجون الرّهيبية، وكذلك أصحابهم الثُّقات الذين حملوا هذا الحقّ ونشروه، وهم مطاردون، يحملون على أكتافهم أعمدة المشانق، ويواجهون فقهاء السُّلطة الذين اصطنعتهم، ونفخت في جلودهم في قبال أهل البيت عليهم السلام إطفاءً لنورهم، وإخفاءً للحقّ الذي حملوه، ونشروه، وضحّوا من أجل الحفاظ عليه، إحياءً لشرعية الإسلام، ولتتمّ الحجّة، ولئلاّ تخلو الأرض منها على مدى الأيام.

وبجهدهم وجهودهم، ظلّ الفقه الشَّيعي، فقه أهل البيت عليهم السلام خالداً حيّاً يلمع بين المذاهب الإسلاميّة الأخرى، ويستهوِي إليه روّاد الحقيقة النّاصعة، وطلاب الحقّ المبين.

وعليّنا أن نسعى في إبراز معالم فقه الإمام السَّجَّاد عليه السلام والتَّقيب عن جذوره، ليعرف الفقهاء في العالم الإسلاميّ أنّه الأسبق والأقوم والأفضل؛ لأنّه ينتمي إلى أهل بيت الرِّسالة والنُّبوة والإمامة، بأفضل الطُّرق وأصحّها على

الإطلاق.

وفَقَّنا الله تعالى لذلك.

* * *

الهوامش:

- (١) كما تدلُّ على ذلك خطبته الثالثة من نهج البلاغة، المعروفة بالشَّقْشَقِيَّة، راجع: نهج البلاغة، الخطبة: (٣)، ص: ٥٤، نسخة المعجم المفهرس، الطبعة الرَّابِعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النُّشْر التابعة لجامعة المدرسين، قم.
- (٢) من حديثٍ مُتَّفَقٍ عليه بين المسلمين، صرَّح بذلك الشَّيْخُ المفيد في النُّكْت، ورواه الصَّدوق في العلل عن الحسن بن عليٍّ عليه السلام، والخَزَّاز في كفاية الأثر من حديث أبي أيُّوب الأنصاري، وابن شهر آشوب في المناقب، وقال: «أجمع عليه أهل القبلة»، وأورده مجد الدِّين في التَّحْف، ورواه النَّاصر في ينابيع النَّصيحة، وقال: «لا شبهة في كون هذا الخبر مِمَّا تلقتُه الأُمَّة بالقبول وبلغ حدَّ التَّواتر، فصَحَّ الاحتجاج به».
- (٣) الكوفي، أحمد بن أعثم، الفتوح ١٧: ٥، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى ١٤١١، دار الأضواء، بيروت. ابن نما الحلي، مُحَمَّد بن جعفر، مثير الأَحْزان: ١٥، منشورات المطبعة الحيدريَّة ١٣٦٩ هـ. ق، النجف الأشرف.
- (٤) المفيد، محمد بن النُّعمان، الاختصاص: ٦٤، تحقيق: علي أكبر غفاري والسَّيِّد محمود الزَّرندي، الطبعة الثَّانية ١٤١٤، نشر دار المفيد، بيروت.
- (٥) راجع: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٥٩: ١٥٠، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى ١٤١٨، دار الفكر، بيروت. أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطَّالبيين: ٤٥، تقديم وإشراف: كاظم المظفر، الطبعة الثَّانية ١٣٨٥ هـ. ق، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف.
- (٦) الصَّفَّار، مُحَمَّد بن حسن، بصائر الدَّرَجَات: ١٣٨، تصحيح وتعليق: الحاج ميرزا حسن كوجه باغي، منشورات الأعلمي، طهران. الكليني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ١: ٢٢٢، كتاب الحجَّة، باب: إِنَّ الأئمة عليهم السلام ورثة العلم، الحديث الثَّاني، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الرَّابِعة ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلاميَّة طهران.

- (٧) قد رُوي ذلك في كثير من كتب الشيعة والسنة، ورواه الزبيري في تخريج الأحاديث والأخبار ٣: ٣٦٥، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، الطبعة الأولى ١٤١٤، نشر - دار ابن خزيمة، الرياض، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٣: ١٦٥، ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياتي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٨) الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤل: ٣٣٨، تحقيق: ماجد بن احمد العطية.
- (٩) راجع: ترجمة الإمام الحسين (عليه السلام) لابن عساكر: ٢١٢، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الثانية ١٤١٤، نشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم.
- (١٠) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٧٤، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى ١٤١٨، دار الفكر، بيروت.
- (١١) المصدر نفسه ١٤: ١٨٤.
- (١٢) راجع: تحف العقول لابن شعبة: ٢٧٥، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية ١٤٠٤، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، قم. وقد نقلها الغزالي في كتاب إحياء العلوم ناسباً لها إلى أخ الزهري في الدين، فراجع.
- (١٣) الديلمي، الحسن بن أبي الحسن، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٣٠٠، نشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث. الحلواني، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ٩٤، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام)، الطبعة الأولى ١٤٠٨، قم المقدسة.
- (١٤) الصفار، محمد بن حسن، بصائر الدرجات: ٣٢، تصحيح وتعليق: الحج ميرزا حسن كوجه باغي، منشورات الأعلمي، طهران.
- (١٥) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٢٤، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين ١٤٠٥.
- (١٦) المصدر نفسه.
- (١٧) راجع: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤١: ٣٧٣، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى ١٤١٨، دار الفكر، بيروت. الشيخ الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع ١: ٢٣٢، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، منشورات مكتبة الحيدرية ١٣٨٥ هـ. ق، التجف الأشرف.
- (١٨) الحافظ العجلي، معرفة الثقات ٢: ١٥٣، الطبعة الأولى ١٤٠٥، مكتبة الدار، المدينة المنورة.
- (١٩) ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٧٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٢ م.
- (٢٠) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال ١: ٣٣٣، تصحيح وتعليق: المير داماد

- الاسترادي، تحقيق: السيّد مهدي الرّجائي، نشر مؤسسة آل البيت عليه السلام، ١٤٠٤، قم.
- (٢١) الحافظ المزني، تهذيب الكمال في أسماء الرجال ١٠: ٣٦٤، تحقيق وضبط: الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الثالثة ١٤٠٩، مؤسسة الرسالة، بيروت. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٢٥، إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط ومأمون الصّاغري، الطبعة التاسعة ١٤١٣، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٢٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ٦: ٢٥٨، دار صادر، بيروت. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٣٦، إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط ومأمون الصّاغري، الطبعة التاسعة ١٤١٣، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

الإمام السَّجَّادُ عليه السلام

ودوره الريادي في مواجهة انحراف السلطة

□ أ. حسين بركة الشامي (*)

تعرَّض شيعة أهل البيت عليهم السلام بعد واقعة كربلاء الأليمة واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام على يد بني أمية ومشروعهم التخريبي إلى خطرين كبيرين:

الأول: يتمثل بسياسة التحريف والتشويه للتراث الإسلامي، والتعدي على مفاهيمه وأحكامه وقيمه، من خلال حملات المسخ، والاختلاق، والوضع، والتضليل، كما تجلَّى ذلك في دسِّ الروايات المزورة، وإخفاء فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام، وافتعال مناقب أخرى كاذبة لأشخاص آخرين.

وقد انعكس هذا بشكل واضح على علوم التفسير والفقه والحديث والتاريخ، وهذا الخطر الفكري للمشروع الأموي قد لا يدرك أبعاده العامة من الناس، ولكنه غير خفي على الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم الأبرار الذين يتمتعون بوعي رسالي أصيل، وحضور فاعل في الساحة، واهتمام خاص بالفكر وقضايا الأمة.

والثاني: يتجلَّى في ملاحقة أصحاب الأئمة وأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام

(*) باحث إسلامي / العراق.

بالقتل والسجن والتشريد؛ حيث طالت السياسة الأموية آنذاك أولئك الرجال الأفذاذ، والشخصيات التي حملت مبادئ وقيم مدرسة أهل البيت عليه السلام على مستوى الفكر والممارسة، أمثال: حجر بن عدي، وميثم التمار، وسعيد بن جبير، وعمر بن الحمق الخزاعي، ورشيد الهجري، ونظائرهم من الأبرار والصالحين. وكان الهدف الأساس الذي تسعى إليه السياسة الأموية الحاكمة، هو استفراغ مدرسة أهل البيت عليه السلام من الكفاءات العلمية، والشخصيات الرسالية، والعناصر الثقافية، إضافة إلى سياسة التجهيل العامة الذي تبناها المشروع الأموي في المجتمع الإسلامي؛ بحيث تتحوّل الأمة بالتدريج إلى ركाम بشريّ فاقد الإرادة، يعبث بكرامته ومقدراته وثوراته الأمويون.

وهنا يأتي دور الإمام السّجاد عليه السلام باعتباره الشاهد والرّائد في هذه الأمة لمواجهة المشروع الأموي بجميع أبعاده وأدواته، وذلك من خلال التشخيص الدقيق، والرؤية الواضحة، والخطوات الرّاسخة التي اتّبعها في هذا المجال. وقد كان من بين أبرز أهمّ تلك الخطوات الإصلاحية الرائدة ما يلي:

١- الاهتمام بنشر العلم وترسيخ الأخلاق والتّركيز على بناء الجماعة الصّالحة التي تُشكّل القاعدة الفكرية والعلمية لنشر الحديث والأحكام الشرعية وعلم الكلام والتّفسير والأخلاق، وذلك من خلال إعداد جيلٍ من الفقهاء وحملّة الحديث والرّواية ورجال الفكر والمعرفة.

ويذكر التاريخ أنّ الإمام السّجاد عليه السلام كانت له حلقةٌ كبيرةٌ في المسجد النبوي الشريف تضمّ شخصياتٍ من الصّحابة الكرام، والتّابعين الأخيار، وأعداداً من صحبه، ممّن نهل من علومه. فقد جاء في تاريخ دمشق أنّ الإمام زين العابدين كان إذا جلس في المسجد بين القبر والمنبر، وانعقدت له حلقةٌ كحلقة أبيه في روضة كرياض الجنّة، يقول عنها القائل: «إذا دخلت مسجد رسول الله ورأيت حلقةً كأنّ على رؤوسهم الطير»^(١).

فمن الصَّحابة الَّذِينَ نهلوا العلم والحديث منه ﷺ جابر بن عبد الله الأنصاري، وعامر بن وائلة الكناني، وسعيد بن المسيب المخزومي، ومن التَّابعين سعيد بن جبير مولى بني أسد، ومُحمَّد بن جبير بن مطعم، وعبد الله بن جعفر، وإبراهيم والحسن ابنا مُحمَّد بن الحنفية.

ومن أصحابه وتلامذته ثابت بن دينار - أبو حمزة الثمالي - وفرات بن أحنف، وأبان بن تغلب بن رباح، والفرزدق الشَّاعر، وغيرهم الكثير من الرِّجال والرُّواة.

٢- معالجة مشاكل الواقع الإسلامي وقضايا المجتمع؛ حيث تعرَّض المجتمع الإسلامي في ظلَّ العهد الأموي للإهمال والامتهان وسياسة التَّجهيل، فكان منهج الإمام السَّجاد عليه السلام هو الاعتماد على برامج اجتماعية ومشاريع ثقافية وتربوية من شأنها أن تُعيد المجتمع إلى مساره الصَّحيح، وذلك من خلال عدَّة مشاريع بارزة في حياته، وهي:

أ. الاهتمام بالفقراء والمساكين.

بكثرة الصَّدقات عليهم ورعايتهم من النَّاحية الاجتماعية والنَّفسيَّة والأخلاقيَّة، حتَّى روى أحمد بن حنبل وغيره: «أنَّ عليَّ بن الحسين عليه السلام كان يعول مائة أهل بيتٍ من فقراء المدينة في كُلِّ بيتٍ جماعة»^(٢).

ب. كثرة الإعتاق للعبيد في سبيل الله.

واهتمامه بتربيتهم وتعليمهم، حتَّى روى السيِّد ابن طاووس بسنده عن الصَّادق عليه السلام: «كان عليَّ بن الحسين عليه السلام إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبداً له ولا أمة، وكان إذا أذنَّب العبد والأمة يكتب عنده أذنَّب فلان، أذنَّب فلانة، يوم كذا وكذا، ولم يعاقبه فيجتمع عليهم الأدب. حتَّى إذا كان آخر ليلةٍ من شهر رمضان، دعاهم وجمعهم حوله، ثمَّ أظهر الكتاب، ثمَّ قال: يا فلان فعلت كذا وكذا ولم أوْدُبْكَ، أتذكر ذلك؟ فيقول: بلى يا بن رسول الله، حتَّى يأتي على

آخريهم ويقرّريهم جميعاً. ثم يقوم وسطهم ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم وقولوا: يا عليّ بن الحسين إنّ ربّك قد أحصى عليك كلّ ما عملت، كما أحصيت علينا كلّ ما عملنا، ولديه كتابٌ ينطق عليك بالحقّ، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً مما أتيت إلّا أحصاها، وتجد كلّ ما عملت لديه حاضراً كما وجدنا كلّ ما عملنا لديك حاضراً، فاعفُ و اصفح كما ترضو من المليك العفو، و كما تحبّ أن يعفو المليك عنك، فاعفُ عنا تجده عفواً، وبك رحيماً، ولك غفوراً، ولا يظلم ربك أحداً، كما لديك كتاب ينطق علينا بالحقّ، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً ممّا أتيناها إلّا أحصاها...»^(٣).

ج. التركيز على الجانب الروحي والأخلاقي في حياة الأمة.

والالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه والتّورّع عن المعاصي والدّنوب والآثام من خلال إحياء العبادة بتلاوة القرآن والدّعاء والمناجاة والانقطاع إليه سبحانه بالصّلاة والصّيام والأذكار والدّعوات الخاشعة التي جمعت في صحيفة معروفة بـ (الصّحيفة السّجادية).

وهي الصّحيفة التي تحتوي على كنوز المعارف وغرر الأدعية والمناجاة والتّوسّل، وما تستبطن في نصوصها من مفاهيم العقيدة والقيم الأخلاقيّة والإنسانيّة.

وكذا ما تركه الإمام السّجاد عليه السلام من (رسالة الحقوق) التي تضمّنت خمسين حقاً، ابتداءً من حقوق الله ورسوله والإمام المفترض الطّاعة وحقوق النّفس والرّحم والنّاس والمعلم والحاكم والغريم.. وغيرها من الحقوق التي حدّدها الإمام زين العابدين عليه السلام بكلّ دقّة ووضوح، وهي - بحقّ - وثيقةٌ دستوريّة سبقت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بثلاثة عشر قرناً، ولو لم يترك الإمام السّجاد عليه السلام إلّا رسالة الحقوق لكفى الأمّة أن تعيش بصلاحٍ وهدى ورشاد.

هذا، إلى غير ذلك الخطب والرّسائل والحكم والمواعظ التي تركها، والتي

تناولت جوانب كثيرة ومجالات متعددة في علوم القرآن والعقائد والحديث والفقه والأخلاق.

هذه كانت أهم المعالم والمرتكزات الأساسية لدور الإمام السَّجَّاد عليه السلام في الحياة الإسلامية.

وبعد رحيله جاء دور الإمامين الصادقين الباقر والصادق عليه السلام، وهو دور هام وكبير في تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي؛ ففيه ازدهرت مدرسة أهل البيت عليه السلام واتسعت دائرتها، وباتت تشكل في حينها مرجعية فكرية وروحية واجتماعية للمسلمين، كما أنها مثلت في الوقت نفسه تحدياً يواجه جميع الاتجاهات والتيارات المنحرفة عن المنهج الإسلامي القويم.

الشيعة في العراق:

ولما كان التاريخ كثيراً ما يعيد نفسه كما يُقال، فلا بد أن نستعرض واقع شيعة أهل البيت عليه السلام في العراق الجديد، فمنذ مجيء حزب البعث الجائر في العراق عام ١٩٦٨م، الذي انتهج ذات المشروع الأموي، وإن اختلفت أشكاله وصوره ومسمياته.

فعلى الصعيد الفكري والمعرفي فقد أكد هذا الحزب على محاربة الدين، وتشويه الحقائق، ومسح القيم الأخلاقية، واختراق المناهج التعليمية في المدارس والجامعات، وبث مقولاته وأفكاره عبر برامج من شأنها أن تجعل حازماً بين الأمة والارتباط بهويته المتمثلة بالإسلام.

أمّا على الصعيد العام، فقد انتهج حزب البعث سياسة خطيرة تمثلت بملاحقة العلماء والفقهاء في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، كالإمام الشهيد الصدر، وكوكبة كبيرة من تلامذته ووكلائه ومحبيه، إضافة إلى اتباع سياسة الجريمة في جميع المجالات التي عمدت إلى تخريب القيم الأخلاقية،

والتقاليد الاجتماعية، والأسرية، وإشاعة الفساد والقتل العام الذي ملأ المقابر الجماعية، واستخدام الغازات السامة في الأهوار وكردستان.

ولا يسعنا إحصاء واستقصاء جميع صفحات الجريمة التي تعجّ بها ملفات حزب البعث في الحقبة المقيتة السوداء التي حكم فيها العراق في الأربعة عقود الماضية.

وفي ٩ نيسان ٢٠٠٣ وقع التحوّل التاريخي الكبير في ظلّ ظروف وأوضاع حرجة وعصيبة كان يعيشها الشعب العراقي، وفي معادلاتٍ سياسية قاهرة إقليمية وعالمية، ومصالح دولية معقدة حتّى أصبح العراق ساحة خصبة لمشاريع الصراع وتصفية الحسابات الدولية على حساب مصلحة وإرادة الشعب العراقي.

إنّ ما أفرزته مرحلة ما بعد سقوط صدام في الساحة العراقية عموماً، وعلى شيعه أهل البيت عليه السلام على وجه الخصوص جملة من الأوضاع والمظاهر والتي تلخّص بما يلي:

(١) انهيار مؤسسات الدولة جميعاً بفعل قرارات الاحتلال دون تهيئة البديل السريع والمناسب لتلك المرحلة ممّا أدّى إلى حدوث فوضى عامّة في البلاد.

(٢) اختفاء حزب البعث ومؤسساته البوليسية والإجرامية وعودتها بمظاهر مختلفة أخرى تحاول اختراق الوضع الجديد الذي حصل في العراق والالتفاف عليه.

(٣) انتشار الحساسية الطائفية في المجتمع بالشكل الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ العراق، ولا شك أنّ لمخلفات حزب البعث وأزلامه دوراً يقف وراء هذا التّصعيد الطائفي.

(٤) بروز الجماعات الإرهابية والتكفيرية التي تُشيع القتل وتُبيح دماء وحرّمات شيعه أهل البيت عليه السلام وتطال مقدّساتهم ومساجدهم.

٥) شيوع عصابات السلب والنهب والخطف، الأمر الذي أدى إلى إحداث حالة القلق والخوف وعدم الاستقرار الاجتماعي.

٦) استهداف العقول المفكرة والكفاءات العلمية والثقافية والجامعات ودور العبادة بالقتل والتفجير وإشاعة سياسة التهجير القسري لأبناء الشيعة، ونهب دورهم وحرقتها في بعض الحالات من قبل العصابات المسلحة للجماعات الإرهابية والمليشيات المدعومة من قبل بعض الجهات المتطرفة.

٧) تحبّط سياسة الاحتلال في العراق وارتكابهم الأخطاء الفادحة، وجعلهم في التعامل مع مكونات الشعب العراقي، وانتهاجهم السياسة الطائفية والعنصرية من خلال ترسيخ منطق المحاصصة على حساب الكفاءة والنزاهة، الأمر الذي أدى إلى تعقيد الأوضاع، وتضيق القلق الأمني وعدم الاستقرار. هذه هي أبرز التداعيات التي أحدثتها حالة التحوّل والتغيّر التاريخي في العراق، وانعكست آثارها بطريقة سلبية على عموم الشعب العراقي، وعلى شيعة أهل البيت عليه السلام على وجه الخصوص.

أمّا الآفاق الجديدة التي فتحت أمام حاضر ومستقبل شيعة أهل البيت عليه السلام فيمكن إجمالها في النقاط التالية:

أولاً: إنهاء حالة الدكتاتورية والاستبداد التي استحكمت وترسّخت جذورها في العراق منذ القديم، وما عكسته من آثار وخيمة ومظهر الدمار والتخريب على كلّ المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية.

ثانياً: فتح أبواب الحرية والتعبير عن الرأي وغياب الرقابة القمعية على فكر وتراث مدرسة أهل البيت عليه السلام وانتشاره في أوساط المجتمع الذي حرم منه إبان العهد البائد.

ثالثاً: خوض التجربة السياسية من قبل أتباع مدرسة أهل البيت عليه السلام، والدخول في المعترك السياسي والاجتماعي من أوسع أبوابه ممّا منح الشيعة

الخبرة والكفاءة والشُّعور بالمسؤولية في إدارة الشَّأن العام وبناء مؤسسات الدولة بعد أن كان الشيعة محاصرين في الزوايا ويعملون بأحسن حالاتهم كمعارضة على طول تاريخهم الطويل.

رابعاً: انطلاق مدرسة أهل البيت عليه السلام على مستوى العراق والمنطقة والعالم وامتدادها الفكري والثقافي، وامتلاكها مؤسسات إعلامية تبث من خلالها أفكارها وآراءها ومفاهيمها، والتعريف بتراثها الأصيل الذي كان ثروة في صناديق، فأصبح بحمد الله في متناول الجميع.

خامساً: ظهور شيعة أهل البيت عليه السلام كقوة سياسية واجتماعية في العراق، وأنهم يشكلون الأكثرية مما يجعل العراق قاعدة لمدرسة أهل البيت عليه السلام، وساحة خصبة لتعميق وتنمية الفكر الشيعي والانطلاق به نحو الآخرين.

هذه هي أهم الآفاق الجديدة المفتوحة أمام شيعة أهل البيت عليه السلام في العراق علينا أن نستثمرها بأحسن استثمار لصالح الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل، وأن نشد على أيدي كل العاملين المخلصين لخدمة هذه المدرسة المباركة الرائدة.

* * *

الهوامش:

(١) راجع كتاب الإمام جعفر الصادق لعبد الحليم الجندي: ١٣٨، نشر- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٧، القاهرة.

(٢) راجع: تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٤، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى ١٤١٨، دار الفكر، بيروت.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٣، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، الطبعة الأولى ١٤١٤، نشر مكتب الإعلام الإسلامي.

الرَّاسُخُونَ فِي الْعِلْمِ

في مواجهة الفتنة

□ د. أحمد راسم النفيس (*)

أصبح الآن رفع المصاحف في التظاهرات الاحتجاجية المنددة بالإساءة للإسلام، أو تلك الداعية إلى تحكيم شرع الله تقليداً راسخاً. إنَّه التقليد الذي ابتكره عمرو بن العاص في حملته الهادفة إلى تقويض معسكر الشريعة الإسلامية بقيادة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. ليس كُلُّ من رفع أو يرفع المصاحف يفعل هذا غشاً وخداعاً، فالأصل هو افتراض حسن النوايا، إلّا أنَّ الأمر يحتاج إلى دراسة وتأملٍ في علاقة المسلمين بالقرآن، ومدى فهمهم لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فضلاً عن التزامهم بأحكامه، واقتدائهم بهديه، وهل يعدُّ رفع المصاحف دليلاً قاطعاً على رغبة من يحملونها، ومن باب أولى قدرتهم على فهم ما فيها من قيم ومضامين وأحكام، أم أنَّ الأمر يمكن اعتباره نوعاً من التبسيط المخل؟!؟

(*) كاتب وباحث في الفكر الديني والسياسي / مصر.

المسلمون الآن - والحمد لله - لا يعانون من فقر في تلاوة القرآن، وها هي مساجدهم وفضائياتهم عامرة (بأفضل القراء) من أصحاب الأصوات الرّخيمة الذين يبكون ويتباكون، وتختفهم العبرات فتنتطق الزّفرات والأثّات والآهات، ورغم كلّ هذا فما زال واقعهم البائس والمتخلف يراوح مكانه، ولا زال البون بينهم وبين (التي هي أقوم) شاسعاً بما يقطع معه بأنهم لا يهتدون بهذا القرآن كما يفترض أن يكون!!

قراءة وقراءة!!

رغم أنّ شهادة الواقع هي الأبلغ والأقوى على افتقاد المسلمين لقراءة القرآن قراءة في العمق (قراءة من أحكموه) بدلاً من تلك القراءة الشّكليّة إلّا أنّ هذا لا يغني عن استحضار الدّليل من كلام سيّد المرسلين ﷺ، ومن كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

أخرج الشّيخان عن أبي سعيد الخدري، قال: «بيننا نحن عند رسول الله ﷺ، وهو يقسم قسمًا إذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجلٌ من بني تميم، قال: يا رسول الله اعدل! فقال رسول الله: ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل! قد خبتٌ وخسرتُ إن لم أعدل. فقال عمر: يا رسول الله! ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: دعه فإنّ له أصحاباً يحقّر أحداكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثمّ ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثمّ ينظر إلى نضيه - وهو قدحه - فلا يوجد فيه شيء، ثمّ ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجلٌ أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقةٍ من النّاس. قال أبو سعيد: فأشهد أنّي سمعت الحديث من رسول الله، وأشهد أنّ علي بن أبي طالب قاتلهم

وأنا معه، فأمر بذلك فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي الذي نعتُهُ»^(١).

في مقابل أولئك الذين قرأوا القرآن قراءة لا تتجاوز تراقيهم ولا تؤثر في أرواحهم ولا عقولهم، يقف أولئك الذين قرأوا القرآن فأحكموه، أي: فهموا ما فيه من مبادئ أخلاقية حاكمة وعقلوه، وهم من بكى الإمام علي بن أبي طالب حزناً لفقدهم عندما استشهدوا بين يديه وقال عنهم:

«أَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَيَّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّوْهُ وَلَهُ اللَّقَاحُ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ رَحْفًا رَحْفًا، وَصَفًّا صَفًّا؟! بَعْضُ هَلَكٍ، وَبَعْضُ نَجَا. لَا يُبَشِّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزِّوْنَ عَنِ الْمَوْتِ، مُرَّةَ الْعَيْنِ مِنَ الْبُكَاءِ، مُخْصَصُ الْبُطُونِ مِنَ الصَّيَامِ، ذُبُلُ الشَّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ، عَلَى وَجُوهِهِمْ غَبْرَةُ الْخَاشِعِينَ، أَوْلَيْكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَنْظُمًا إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ»^(٢).

مدرستان وطريقتان يُقرأ فيهما وبهما القرآن: الأولى شكل بلا مضمون، والثانية قراءة الشكل والمضمون.

المدرسة الأولى ترى فيها تلك الوجوه المتوردة، والجيوب الممتلئة من التكبُّب بكتاب الله، والارتزاق بقراءة النصِّ الإلهي بالألحان ولا بأس بشيء من الدموع والعبرات!!.

والمدرسة الثانية من قرأوا القرآن فأحكموه، وعرفوا حقيقة الدنيا وحقيقة ما يريده الباري عزَّ وجلَّ منهم، فصاروا «مُخْصَصُ الْبُطُونِ مِنَ الصَّيَامِ، ذُبُلُ الشَّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ، عَلَى وَجُوهِهِمْ غَبْرَةُ الْخَاشِعِينَ».

المدرسة الأولى خرَّجت لنا من حملوا سيوفهم على عواتقهم، يجرِّكونها في هوى ألسنتهم، أو دفاعاً عن أسيادهم المستكبرين، يضربون بها لا يفرقون بين

البرّ والفاجر، وبين وليّ الله وعدوّ الله، كما أنتجت لنا وعّاظ السلاطين الذين أتقنوا فنّ الإفتاء لصالح إدامة الظلم والطغيان، وهي التي أنتجت لنا تلك الحالة العشوائية التي يتقلب فيها المسلمون الآن وقبل الآن وإلى أن يعود إليهم عوازب أحلامهم.

الأزمة التي عاشها المسلمون وما زالوا يعيشون فيها ناجمة - بكل تأكيد - عن قراءة البعض لكتاب الله بالألحان والأهواء، ولا نعني بالألحان قراءة القرآن بصوت حسنٍ تظهر فيه روعة المعاني وبلاغة النص، بل قراءته بلحن القول: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْبِنَكُمْهُمْ فَلَعَفَنَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣٠].

قراءة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيِّثَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِكَلِمَةٍ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

إنّها قراءة صوتيّة لسانية تتغافل عمداً عن تلك المفاهيم الجامعة والمبادئ القرآنية الثابتة (أم الكتاب)، التي تشكّل ركيزة لفهم الدين باعتباره أداة لتغيير واقع الناس نحو الأفضل (التي هي أقوم)، من خلال تحقيق العدل ورفض الظلم والوقوف في وجه كلّ أنواع الفراعنة والظلمة والمستكبرين، باسم الله لا

باسم الصّراع الطّبقّي، ولا باسم الدّيموقراطية أو الليبرالية وغيرها من القيم الإنسانية المحدثّة، اتّفقنا معها أم لم نتفق.

إنّها القراءة المزيّفة التي حوّلت القرآن من كتاب يرفع راية العدالة ورفض الانصياع والرّكون إلى الظّلمة والقبول بالظّلم، ويحمل بشارّة للمستضعفين بالخلاص من المستكبرين، إلى صكّ ممنوح لهؤلاء المستكبرين لافتراس المستضعفين، ما أقاموا الصّلاة، أو ما بقوا على ظاهر الإسلام (إلا أن تروا كفراً بواحاً ليس لكم من الله فيه سلطان)!!.

صراع المدرستين

الصّراع داخل الإسلام كان ولا زال يدور بين مدرستين (مدرسة الذين قرأوا القرآن فأحكموه)، ومدرسة قراءة القرآن بالألحان (ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله).

الذين قرأوا القرآن فأحكموه (يعطفون الهوى على الهدى، ويعطفون الرّأي على القرآن)، بينما يصرّ قادة الفتنة على (أنّ يعطفوا الهدى على الهوى، والقرآن على الرّأي) أو كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في وصف المهدي المنتظر: «يَعْطِفُ الْهُوَى عَلَى الْهُدَى إِذَا عَظُفُوا الْهُدَى عَلَى الْهُوَى، وَيَعْطِفُ الرّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَظُفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرّأْيِ»^(٣).

إنّه وصف دقيق لواقع الحال ونهاية المآل لهذا الجدل الدائر بين فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

الجدل الدائر ليس بالضرورة جدالاً مذهبياً أو فقهيّاً بين فريقين يفهم كلّ منهما النّص بطريقة ما، وفقاً لقواعد وضعها العلماء والمفسرون، بل هو بين مَنْ يُريد إخضاع وتأويل النّص القرآني وفقاً لهواه ورغبته العارمة في الإمساك

بمفاتيح السُّلطة والثَّروة، وفريق آخر ينطلق من فهمٍ محكمٍ لكتاب الله يبدأ من أمَّهات المفاهيم القرآنية التي تدعو لإقامة العدل ونبذ الظُّلم، أي: أن القرآن هو نقطة البدء والانطلاق على عكس الفريق الآخر الذي يجعل النص في خدمة الهوى السَّياسي، سواء كان هذا النص قرآنياً أو نبوياً، وفي هذه الحالة يتَّسع المجال لوضع وتلفيق الروايات ونسبتها إلى رسول الله. والمهم أن يتحقَّق الهدف والمراد، ألا وهو أكل الدُّنيا بالدين!!.

الآية السابعة من آل عمران

من هنا تأتي أهمية تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران، وهي الآية التي فضحت الدَّجل الذي يمارسه أصحاب الأهواء والرَّغبات الدُّنيوية، وكشفت أفعالهم وتحايلهم على عباد الله باسم الله، والله ورسوله منهم ومن أفعالهم براء إلى يوم الدين.

يقول تعالى في سورة آل عمران:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

من وجهة نظرنا، فإنَّ مشكلة المسلمين لم تكن خلافهم حول المتشابهة واتِّفاقهم حول المحكم، بل في التفافهم حول المحكم وقراءة المتشابهة بالأهواء والألحان، وصولاً لإقصاء المحكم أو المبادئ الدِّنيَّة الحاكمة التي تفرز بالضرورة مواقف أخلاقية وسياسية حازمة في انحيازها للعدل ضدَّ الظُّلم، وللاستقامة ضدَّ الانحراف والطغيان، وكانت النتيجة هي تلك النُّظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الحاكمة باسم الإسلام رغم أنها «لا تتعلَّقُ مِنْ

الإسلام إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُ مِنَ الْإِيْمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ»^(٤)، والتي لبست «الإسلامَ لُبْسَ الْفَرِّو مَقْلُوبًا»^(٥).

الوسيلة التي استخدمها ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، والذين ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ من أجل إنجاز هذا الهدف، تمثلت في إقصاء وتهميش (الراسخين في العلم)، سواء أولئك الذين قرأوا القرآن فأحكموه، وتمسكوا بأمهات المبادئ القرآنية ﴿أَمْ الْكُذِّبُ﴾، وضحوا واستشهدوا من أجل إيمانهم، أو أولئك الذين كانوا على قمة جبل الرُّسوخ في العلم من آل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

إنها ببساطة سياسة الإضلال خطوة خطوة: «أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامُ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا، عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ»^(٦)؛ لتصبح هذه الأهواء التي اتبعت، والأحكام التي ابتدعت مجاملة لهذا وإرضاء لذلك، دين الله وثواب الأمة التي لا يجرؤ أحد على المساس بها أو الاقتراب منها وإلا علا الصُّراخ والصَّجيج والعجيج على الإسلام الذي حُرِّفَ والدين الذي حُورِبَ وإلى الله المشتكى «مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَالًا، وَيَمُوتُونَ ضَلَالًا، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تَلَّى حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا سِلْعَةٌ أَنْفَقَ بَيْعًا وَلَا أَعْلَى ثَمَنًا مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ»^(٧).

ومن ثم فقد أمكن لهؤلاء تقديم إسلامٍ بديل، شكل بلا مضمون، وطقوسٍ صوتية لا روح فيها ولا معنى لها؛ ل يبقى الحال على ما هو عليه، ولا بشارة للمستضعفين بعد أن (أنعم) الله على المستكبرين فصاروا ملوكاً لدولة الإسلام بعد أن كانوا ملوكاً لدولة الكفر!!.

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره:

«المُحْكَمَاتُ هُنَّ اللَّوَاتِي قَدْ أُحْكِمْنَ بِالْبَيَانِ وَالتَّفْصِيلِ، وَأُثْبِتَتْ حُجَجَهُنَّ

وَأَدْلَتْنَهُ عَلَى مَا جُعِلَ عَلَيْهِ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَوَعِدَ وَوَعِيدٍ وَنَوَابٍ وَعِقَابٍ وَأَمْرٍ وَزَجْرٍ وَخَيْرٍ وَمَثَلٍ وَعِظَةٍ وَعِيرٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ثُمَّ وَصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ بِأَنَّ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّ أَصْلَ الْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ عِمَادُ الدِّينِ وَالْفَرَائِضِ وَالْحُدُودِ، وَسَائِرُ مَا بِالْخَلْقِ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، وَمَا كُتِّفُوا مِنَ الْفَرَائِضِ فِي عَاجِلِهِمْ وَآجِلِهِمْ. وَإِنَّمَا سَمَّاهُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّ هُنَّ مُعْظَمُ الْكِتَابِ، وَمَوْضِعُ مَفْزَعِ أَهْلِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ^(٨).

وينقل عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكُمْ﴾، قَالَ: هِيَ الثَّلَاثُ الْآيَاتِ الَّتِي هَهُنَا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ إِلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ، وَالَّتِي فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ^(٩).

ورغم أننا لا نقرّ بقصر المحكم على آيات سورة الأنعام أو آيات سورة الإسراء، إلّا أنّ تأمل ما ورد فيها من أحكام يرى فيها أمّهات المبادئ القرآنية الحاكمة للسلوك الإنساني الفردي والجماعي، وهو ما يدفع للتساؤل عن الطريقة التي همّشت بها هذه المبادئ لصالح النهج السلطوي التلفيقي، وكيف جرى استباحة أغلب هذه القيم والمبادئ باسم الدين ذاته؟! وكأنّ الإسلام لا يحرم هذه الانتهاكات إلّا على الأفراد، أمّا إذا حدثت نفس هذه الجرائم من الحكام وصارت هي القانون والنظام، فهي من المباحات باسم المصلحة والحفاظ على النظام العام؛ درءاً للفتنة بالفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَآيَاتُهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ

كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَعْهَدُ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴿١٥٢﴾.

إنها قيم العدل، ورعاية الضعيف واليتيم، وحماية كيان الأسرة، ومحاربة الفقر، ومنع الظلم والاعتداء، وحرمة النفس التي حرم الله إلا بالحق، ومن خلال المحاكمة المنصفة العادلة، أي: أن الحاكم هو من يحتاج إلى إقامة الدليل على صحة حكمه، بينما يقول أحد رموز الفتنة وهو القاضي ابن العربي في مرافعته عن معاوية بن أبي سفيان في كتاب (العواصم من القواصم) ما نصه: «قد علمنا قتل حجر بن عدي كلنا، فبعضنا يقول: قتله ظلماً، وقائل يقول: قتله حقاً. فإن قيل: الأصل قتله ظلماً إلا إذا ثبت عليه ما يوجب قتله. قلنا: الأصل أن قتل الإمام بالحق، فمن ادّعى أنه بالظلم فعليه الدليل. ولو كان ظلماً محضاً لما بقي بيت إلا ولعن فيه معاوية، وهذه مدينة السلام مكتوب على أبواب مساجدها: خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم معاوية خال المؤمنين»^(١٠).

فالأصل (أي: الشرع والدين) عند هؤلاء أن (قتل الإمام «معاوية» لمن قتل هو الحق، ومن ادّعى أنه الظلم فعليه الدليل)، وبالتالي فقد صارت أفعال من يسميه هؤلاء الناس بالإمام هي المحكم، والآيات القرآنية الحاكمة متشابهة، والأمر واضح لا يحتاج إلى شرح ولا دليل!!.

أما إذا كان لا بد من دليل على عدالة الطاغية فهذه أبواب بغداد مكتوب عليها (معاوية خال المؤمنين)، وهل يحتاج المرء بعد هذا إلى أي دليل!؟.

ألم يقرأ القوم سورة القصص ليدركوا أن الله تبارك وتعالى أرسل نبيه موسى ﷺ لاقتلاع فرعون وهامان وجنودهما من الأرض، ووضع هدفاً لهذه البعثة المباركة، وهو إعادة الحق للذين استضعفوا في الأرض، ويُري كل طاغية

متفرعنٍ ومستبدٍّ ثمرة ظلمه في الدنيا قبل الآخرة.

﴿طسـ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَاِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِخُّ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمْ مِمَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

أليست هذه الآيات من المحكمات الواضحات، وهل تحتاج معرفة فرعون والفراعنة وهامان وجنودهما إلى فتوى من أي شيخ أو ممن سماه أشباه الناس عالماً، وهو في حقيقة الأمر لا يعدو كونه خادماً من خدام فرعون، وشاهد زور، ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ بَأَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

ألا يعد ذلك الشيخ - الذي أفتى بأن من حق (الإمام معاوية) أن يقتل، وأن من لا يعجبه هذا القتل أن يأتي بالدليل على أنه قتل بغير حق - واحداً من أولئك الذين يتبعون ما تشابه منه؛ إدامة للفتنة وأدامة للظلم، وهل هناك فتنة أبشع من هذا؟؟!!

الراسخون في العلم

يقول الراغب الإصفهاني في مفردات القرآن: «رسوخ الشيء ثباته ثباتاً متمكناً. والراسخ في العلم: المتحقق به، الذي لا يعرضه شبهة، فالراسخون في العلم هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾»^(١١).

الراسخون في العلم درجات بعضها فوق بعض في القمّة، منهم أهل الذكر الذين عناهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿فَتَتْلَوْهُ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

وقد روى الطبري وغيره في تفسير هذه الآية: «حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الطُّوسِيُّ، قَالَ: ثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ صَالِحٍ، قَالَ: ثَنِي مُوسَى بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ جَابِرِ الْجُعْفِيِّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَتَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ عَلِيٌّ: نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ»^(١٢).

والمعنى أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم في القمة العالية من أهل الذِّكْرِ، وهم يفيضون من علمهم ومعرفتهم على كُلِّ من نهج نهجهم وسار على دربهم علماً راسخاً وقولاً ثابتاً، يثبت الله به الذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. إِنَّهُ المعنى الذي ذكره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عندما قال: «أَيُّنَ الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ»^(١٣).

ولما كان أهمّ خصائص العلم هو انتقاله من العالم إلى المتعلم، ومن الأستاذ إلى التلميذ؛ فالرَّاسِخُونَ في العلم يعلمون تلاميذهم علماً راسخاً لا تعثره شبهة، ومن هنا تتعلّم الأمة كُلُّهَا علماً راسخاً ثابتاً، وتواصل سيرها على بصيرة، ويصبح التلاميذ هم - أيضاً - راسخون في العلم هذه المرة من خلال اعتمادهم منهجاً يقينياً، وأخذهم العلم والموقف من نبع العلم الصافي الذي لا يعثره كدر ولا يشوبه شوب.

ولذا نرى الإمام عليّ ينصح الأمة محذراً من دعاة الفتنة المعتمدين على آرائهم وأهوائهم فيقول:

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِصْبَاحٍ وَاعِظْ مُتَعِظٌ، وَامْتَاخُوا مِنْ صَفْوٍ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدْرِ. عِبَادَ اللَّهِ، لَا تَرْكَبُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلَا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمُنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرْفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يُلْتَصِقُ،

وَيُقَرَّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ»^(١٤).

أحد أصحاب العلم الراسخ المأخوذ عن أهل الذكر الأكثر رسوخاً هو عمار بن ياسر - رضوان الله عليه - الذي وقف كالطَّوْد الشَّامخ مع الإمام علي عليه السلام في كُلِّ موقفه حتَّى لقي ربه شهيداً، ويكفيه شهادة رسول الله في حقّه: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية»^(١٥)؛ حيث يروي ابن أبي الحديد عن أسماء بن حكيم الفزارى، قال: «كنا بصفين مع عليّ تحت رايه عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظللنا برداء أحمر؛ إذ أقبل رجلٌ يستقرى الصَّف حتّى انتهى إلينا، فقال: أيُّكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار: أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم! قال: إنَّ لي حاجةً أفأنطق بها سرّاً أو علانية؟ قال: اختر لنفسك، أيُّهما شئت. قال: بل علانية، قال: فانطق، قال: إيّي خرجتُ من أهلي مستبصراً، حتَّى ليلتي هذه، فإني رأيتُ في منامي منادياً تقدّم، فأذن وشهد أن لا اله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله ﷺ، ونادى بالصلاة، ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة، فصلينا صلاةً واحدةً، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوةً واحدةً، فأدركني الشكُّ في ليلتي هذه، فبتُّ بليلاً لا يعلمها إلا الله، حتَّى أصبحت، فأتيْتُ أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟، قلت: لا، قال: فالفقه، فانظر ما يقول لك عمار فاتّبعه، فجئتُك لذلك. فقال عمار: تعرف صاحب الرّاية السّوداء المقلّبة لى، فإنّها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله ﷺ، ثلاث مرّات وهذه الرّابعة، فما هي بخيرهنّ ولا أبرهنّ، بل هي شرهنّ وأفجرهنّ، أشهدتُ بدراناً واحداً ويوم حنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإنّ مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيه؟! والله لوددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاويه يريد قتالنا، مفارقاً للذى نحن عليه كانوا خلقاً

واحداً، فقطّعتة وذبحتة، والله لدمائهم جميعاً أحلّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟! قال: لا بل حلال، قال: فإنّهم حلال كذلك، أترانى بيّنت لك؟ قال: قد بيّنت لى، قال: فاختر أياً ذلك أحببت. فانصرف الرجل فدعاه عمار، ثم قال: أما إنّهم سيضربونكم بأسيا فكم حتى يرتاب المبطلون منكم، فيقولوا: لو لم يكونوا على حقّ ما ظهروا علينا؛ والله ما هم من الحقّ على ما يقضى عين ذباب؛ والله لو ضربونا بأسيا فكم حتى يبلغونا سَعَفَات هجر لعلمنا أنّا على حقّ، وأنّهم على باطل»^(١٦).

والمعنى أنّ الإمام علياً - وهو الأكثر رسوخاً في العلم - أحال السائل على عمار بن ياسر صاحب العلم الراسخ واليقين الأكثر رسوخاً في صحّة موقفه أيّاً كانت النتائج التي ستنتهي بها جولة الصّراع الدّائرة، والتي لا يمكن لها أن تغيّر من حقيقة الأشياء.

لقد كان عمار بن ياسر واحداً ممن عناهم الرّسول ﷺ في الحديث الذي رواه ابن جرير الطّبري وغيره من المفسرين بقوله: «حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ سَهْلٍ الرَّمْلِيُّ، قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: ثنا فَيَّاضُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرَّقِّيُّ، قَالَ: ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ آدَمَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي أُمَامَةَ، قَالَ سُوَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَنْ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ؟ قَالَ: مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ، وَصَدَقَ لِسَانُهُ، وَاسْتَقَامَ لَهُ قَلْبًا، وَعَفَّ بَطْنُهُ، فَذَلِكَ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ»^(١٧).

وحدّهم الذين لم تمتلئ بطونهم من لعق الحرام هم القادرون على التّمييز بين الحقّ والباطل، بعد أن عجز الشّيطان الرّجيم عن استدراجهم وإغوائهم رغم أنّه أضلّ من بني آدم جبلاً كثيراً ممّن لا يعقلون ولا يتدبرون!!.

مفهوم الفتنة

أحد التّهويّات التي استخدمها وما زال يستخدمها القوم في تبرير جرائمهم

وشرعتها باسم الدين هو الخوف من وقوع الفتنة، والادعاء بأن الضرر الواقع من الانحراف بالإسلام نحو الفرعونية أقل بكثير من ذلك الضرر الناجم عن استمرار القتال والفوضى، علماً أن مسببي الفوضى والقتل والاضطراب هم أنفسهم قادة الضلال والفتنة!!.

ولك أن تلاحظ أن مفهوم الفتنة (التي وقى الله شرها) أو (الفتنة التي طهر الله منها سيوفنا، وعلينا أن نطهر ألسنتنا منها) تعني عند القوم التباس المفاهيم واختلاط الحق بالباطل، حتى لقد قسم بعضهم أبطال (الفتنة) إلى قسمين: مجتهد مصيب وله أجران، ومجتهد مخطئ وله أجر واحد!!.

تسرّب هذا المفهوم إلى كتب الفقه السياسي والاعتقادي؛ حتى لقد أصبح الدستور السياسي لخير أمة أخرجت للناس هو: (سلطان غشوم خير من فتنة تدوم)؟!.

يقول الراغب الإصفهاني في معنى كلمة (فتنة):

«أصل الفتن: إدخال الذهب النار؛ لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، أي: عذابكم. وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنة فيستعمل فيه، نحو قوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، وتارة في الاختبار نحو: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾. وجعلت الفتنة كالبلاء في أنها يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة أو رخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً، وقد قال فيهما: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، وقال في الشدة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، ﴿وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُمْ أَفْلَاحٌ دُونَ الْإِلَهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُنِي وَلَا تَفْتِنُنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، أي: يقول لا تبليني ولا تعذبني، وهم بقولهم هذا وقعوا في البلية والعذاب. وقال: ﴿فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّتُهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: يتليهم ويعذبهم. وقال:

﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾، أي: يوقعونك في بليّةٍ وشدةٍ في صرفهم إياك عما أوحى إليك، وقوله: ﴿فَنَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: أوقعتموها في بليّةٍ وعذابٍ، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ﴾، فقد سمّاهم ههنا فتنةً اعتباراً بما ينال الإنسان من الاختبار بهم، وسمّاهم عدواً في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوَّ لَكُمْ﴾، اعتباراً بما يتولّد منهم، وقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، أي: لا يجتبرون فيميز خبيثهم من طيبهم، والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريمة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضدّ ذلك؛ ولهذا يذمّ الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكانٍ، نحو قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ﴿مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَاتِنَةٍ﴾، أي: بمضللٍ.

الفتنة إذاً هي: الشدة والبلاء، وهي الاختبار والتمييز، وهي من الله تبارك وتعالى حكمةً وتديباً إلهياً ليميز الخبيث من الطيب، أمّا إن كانت من العباد فهي ظلمٌ وعدوانٌ وإسرافٌ.

من أين إذاً جاء القوم بمفهومهم المبتكر عن (الفتنة العمياء) التي لا يعرف فيها وجه الصواب والخطأ، تلك الفتنة التي انقسم أطرافها إلى مصيبٍ مجتهدٍ له أجران، ومجتهدٍ مخطئٍ حصل مقابل جرائمه ومقابل قيامه بفتنة الناس عن دينهم وعن صراط الله المستقيم على أجرٍ واحدٍ رغم أنّ فتنة العباد للعباد هي ظلمٌ وعدوانٌ وإسرافٌ ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾؟!.

الفتنة بكلّ أنواعها هي اختبارٌ وتمحيصٌ وتمييزٌ للخبيث من الطيب، سواء كانت فتنة الشرّ أو فتنة الخير ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. فهي اختبارٌ للوعي بمبادئ الدين، واختبارٌ للإرادة الإنسانية ومدى قدرتها

على الصُّمُود أمام الخوف من القتل أو الخوف على الرِّزْق وأمام الإغراءات الدنيوية والرشاوى التي يعرضها قادة الفتنة والضلال، سواء كانوا من الكفار أم من المنافقين المتمسّحين بالدين، والدين منهم براء.

اختراع مفهوم الفتنة

قلنا من قبل إنّ قادة الفتنة والضلال قد استخدموا المتشابه من أجل الالتفاف حول المحكم؛ لترسيخ حزمة من المفاهيم الملتبسة في أذهان جمهورنا ضحيّة فتاواهم المسخّرة لصالح الطُّغاة والفراعنة.

وكان أن قدّم لنا هؤلاء مفهوم الفتنة العمياء الصماء البكماء الكافرة، التي لا يُعرَف فيها وجه الصّواب من الخطأ، ومن ثمّ يصبح أمام المؤمن خيارٌ واحدٌ، هو لزوم الحياد وترك ما لفرعون لفرعون وما تبقى - إن بقي شيءٌ - لله.

اقرأوا معي تلك الروايات التي ازدانت بها (صحاح القوم)!

- روى البخاري، عن الحسن، قال: «خرجت بسلاحي ليالي الفتنة، فاستقبلني أبو بكر فقال: أين تريد؟ فقلت: أريد نصرة ابن عم رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار^(١٨)، قيل: هذا القاتل، فما بال المقتول؟! قال: إنّهُ أراد قتل صاحبه^(١٩).

- سمعتُ أبا وائل يقول: «دخل أبو موسى وأبو مسعود على عمار حين بعثه عليّ عليه السلام إلى أهل الكوفة يستنفرهم، فقالا: ما رأيُناك أتيتَ أمراً أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر، فقال: عمار ما رأيْتُ منكما منذ أسلمتما أمراً أكره عندنا من إبطائكما عن هذا الأمر^(٢٠).

- عن محمد بن عليّ، أنّ حرملة مولى أسامة أخبره، قال عمرو: «قد رأيْتُ حرملة قال: أرسلني أسامة إلى عليّ، وقال: إنه سيسألك الآن فيقول: ما خلف صاحبك؟ فقل له يقول: لك لو كنت في شدة الأسد لأحببت أن أكون معك،

ولكن هذا أمرٌ لم أره فلم يعطني شيئاً...»^(٢١).

مذهب سعد

إنَّه المنطق الذي استخدمه كاتبٌ كبيرٌ ومفكّر معروف، هو الدكتور طه حسين في كتابه المسمى (الفتنة الكبرى)، وأسماه (مذهب سعد) وأصحابه (الذين اعتزلوا المتخاصمين، وفرّوا بدينهم إلى الله، وقال قائلهم سعد بن أبي وقاص: لا أقاتل حتى تأتوني بسيفٍ يعقل ويبصر وينطق، فيقول: أصاب هذا وأخطأ ذاك)!! ومن ثمّ فهو: (لا يجادل عن أولئك ولا عن هؤلاء، وإنما يحاول أن يتيّن ويبيّن الظروف التي دفعت إلى هذه الفتنة التي فرقتهما وما زالت تفرقهم إلى الآن).

ولأنّ السيف لن ينطق كما لم تنطق بقرة موسى عليه السلام (رغم أنّ البقر تشابه عليهم)، والذي نطق هو الإنسان الذي أحياه الله، وقد مات سعد وأصحابه دون أن ينطق السيف، ومن ثمّ فلا جدوى من التّبين والبيان؛ لأنّ هناك شرطاً تعجيزياً هو أن ينطق السيف الذي لا يمكنه النطق، والذي لم يودعه الله عقلاً ليستخدمه ويميّز به بين الخطأ والصواب، وإنما أودعه الله الإنسان ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾!!.

ولو أنّ المسلمين من يومها اتّبعوا أمر ربهم، ولزموا صراط الله المستقيم، واتّبعوا أهل الذّكر والرّاسخين في العلم؛ لما احتاجوا من الأساس إلى سيفٍ يذبح، ناهيك عن سيف ينطق!!.

ثم يقولون لنا: إنّها كانت فتنةً كافرةً كما كان يزعم أبو موسى الأشعري: «إنّها قد جاءكم فتنةٌ كافرةٌ لا يدري من أين تؤتى، تترك الحليم حيران، كأني أسمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن فيقول: أنت فيها قائماً خيراً منك قاعداً، وأنت فيها جالساً خيراً منك قائماً، وأنت فيها قائماً خيراً منك ساعياً، فثلموا سيوفكم،

وقصّفوا رماحكم، وأنصلوا سهامكم، وقطّعوا أوتاركم، وخلّوا قريشاً ترتق فتقها، وترأب صدعها، فإن فعلت فلا نفسها فعلت، وإن أبت فعلى أنفسها ما جنت، سمّها في أديمها، استنصحوني ولا تستغشوني، وأطيعوني ولا تعصوني؛ يتبيّن لكم رشدكم، وتصلى هذه الفتنة من جناها»^(٢٢).

ولأننا لا نكتب عن التاريخ فنحن لا ننوي الاسترسال في سرد ما جرى، وكُل ما هنالك أننا نعرض للطريقة التي جرى بها (ابتكار) مفهوم الفتنة العمياء الكافرة التي لا يدري فيها وجه الصواب من الخطأ، وكيف أصبح هذا المفهوم مفهوماً رسمياً ومعتمداً لدى المدرسة الفكرية المتغلّبة على فراغ أو تيه العقل الإسلامي.

ذلك المفهوم الذي يجعل من (المسلم التائه الخيران) العاجز عن استخدام عقله من أجل التمييز بين الخطأ والصواب، والذي يطلب الجواب من السيف، وربما من النجوم والكواكب، ولا يطلبه من أهل الذكر الراسخين في العلم، هو المسلم النموذجي، أو كما قال أبو موسى الأشعري!!.

فتنة السامري

يحكي لنا القرآن الكريم عن أحد نماذج الفتنة والاضلال، نموذج السامري وعجل بني إسرائيل، واقرأ معي في سورة طه:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ۚ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۚ﴾^(٨٢)
 ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۚ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ۚ ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۚ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسَىٰ ۚ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُونَ ۚ ﴿٨٩﴾

وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَأْمَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِذِيحِي وَلَا يَرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾.

لم يكن بنو إسرائيل بحاجة لأن يتكلم العجل أو ينطق السيف؛ ليدركوا أنهم سقطوا في حفرة سحيقة حفرها السامري، ولم يكن مطلوباً منهم ليتبينوا سبيل الرشد من الغي سوى أمرين:

الأول: هو اتباع أمر وصي موسى هارون عليه السلام، الذي قال لهم: ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾.

والثاني: هو تحريك عقولهم ونفض غبار الأهواء وحب الدنيا عنها؛ ليدركوا أن العجل ليس إلهاً، بل هو مجرد تمثال مصنوع لا يضر ولا ينفع، ومن باب أولى لا ينطق: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾. ورغم ذلك فإن فينا من طلب من السيف أن ينطق!!.

الفتنة هنا هي الإضلال، وهي الاختبار، وهي العذاب الذي انساق إليه بنو إسرائيل عندما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتركوا هارون وسألوا السامري.

ونحمد الله أن أحداً لم يدافع عن بني إسرائيل أو السامري قائلاً إنها كانت فتنة عمياء كافرة، أو امتدح الذين وقفوا على الحياد بين موسى والسامري، كما أن أحداً لم يطالب بمنع إحراق العجل وإلقاء ما تبقى منه في اليم في انتظار أن

ينطق العجل، ويقرّ ويعترف بأنّه ليس إلهاً، بل هو صنمٌ لا يزيد ولا ينقص!!.

والخلاصة: أنّ فتنة الضلال والإضلال هي نتائجٌ منطقيّة لحالة الاستكبار والعنجهيّة التي تعمي من غلبت عليهم شقوتهم عن رؤية الحقائق الواضحة، وهي التي تحول بينهم وبين الإدراك والتمييز: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بَعَايَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

الشبهة والمتشابه

تضمّنت الآية الكريمة ذمّاً لرموز الضلال الذين يتصيّدون المتشابه، ويتقمّمون الأدلة من هنا وهناك؛ سعيّاً منهم لفتنة العباد عن طريق الهداية والرّشاد، وسعيّاً منهم لإيجاد تدبّينٍ بديلٍ عن التدبّين الرّسالي الصّحيح. ومن هنا تعيّن علينا بيان معنى الشُّبهة والمتشابه.

بعض المفسرين - ربما رغبةً منه في تنحية الرّاسخين في العلم عن التّصدّي لهداية الأُمّة ومنعهم من القيام بواجبهم في تصحيح المفاهيم المعوجة - قرّر أن يجعل وقف القراءة بعد ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ لازماً، والمعنى أنّ المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، ومهمّة الرّاسخين في العلم تقف عند حدّ الإقرار والتّسليم ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾؛ لينفسح الطّريق على مصراعيه أمام دعاة الضلال والفتنة، فالكلّ عندهم (في شرع الجهالة سواء).

الذين جعلوا الوقف لازماً لم يلزموا أنفسهم بضابط ولا رابط، ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلاّ أفتوا فيها؛ فأحلّوا الحرام، وحرّموا الحلال رغم أنّ أغلبهم كانوا كما وصفهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ رَجُلَانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ

بِكَلَامٍ بَدْعَةٍ وَدُعَاءٍ ضَلَالَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هَدْيٍ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ افْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ. وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا مُوضِعٌ فِي جُهَالِ الْأُمَّةِ، غَارٌّ فِي أَعْبَاشِ الْفِتْنَةِ، عَمٌ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ، قَدْ سَمَاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِمًا وَلَيْسَ بِهِ، بَكَرٌ فَاسْتَكْتَرَ مِنْ جَمْعٍ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ مَاءٍ آجِنٍ، وَاسْتَنَزَّ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِيًا ضَامِنًا لِتَخْلِيصِ مَا التَّبَسَّ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّا لَهَا حَشَوًا رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسَجِ الْعَنْكَبُوتِ لَا يَذَرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ، فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ، جَاهِلٌ خَبَّاطٌ جَهَالَاتٍ عَاشٍ رَكَّابٌ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعْصَ عَلَى الْعِلْمِ بِضُرْسٍ قَاطِعٍ، يُذَرِي الرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ الرِّيحِ الْهَاشِمِ، لَا مَلِيٍّ - وَاللَّهِ - بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلَا هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوضَ إِلَيْهِ، لَا يَحْسَبُ الْعِلْمُ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلَا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مِنْهُ مَذْهَبًا لغيرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَمَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَضَرَّعُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدَّمَاءِ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ. إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَالًا وَيَمُوتُونَ ضَلَالًا، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تَلَّى حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعًا وَلَا أَعْلَى ثَمَنًا مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ»^(٢٣).

ورغم كل ذلك فالوقف يلزم أهل البيت (أهل الذكر) ولا يلزمهم!!

ياللعجب!!

مع الراغب الإصفهاني في تفسير الشبهة

يقول الراغب الإصفهاني في معنى كلمة (شبه): «الشَّبهُ والشَّبهُ والشَّبه» حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية، كاللون والطعم والعدالة والظلم. والشبهة هو أن لا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينا كان

أو معنى، قال: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مِثْلَهَا﴾، أي: يشبه بعضه بعضاً لونا لا طعماً وحقيقة، وقوله: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: في العمى والجهالة.

والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشايبته بغيره إمّا من حيث اللفظ أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا ينبئ ظاهره عن مراده. وحقيقة ذلك أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه، ومتشابه من وجه. فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتيهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة؛ وذلك إمّا من ناحية غرابته نحو (الأب) و(يزفون)، وإمّا من جهة مشاركة في اللفظ كاليد والعين. والثاني يرجع إلى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب، ضرب لاختصار الكلام نحو: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾. وضرب لبسط الكلام نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ لأنه لو قيل: ليس مثله شيء كان أظهر للسامع. وضرب لنظم الكلام نحو: ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا﴾، تقديره: الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً، وقوله: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ تَرَىٰ يُؤْمِنُونَ﴾. والمتشابه من جهة المعنى: أوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامة؛ فإن تلك الصفات لا تتصور لنا؛ إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه، أو لم يكن من جنس ما نحسه.

والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعاً خمسة أضرب:

- الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص، نحو: ﴿فَأَقْصُوا الشُّرَكَاءَ﴾.
- والثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب، نحو: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾.
- والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ، نحو: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.
- والرابع: من جهة المكان والأمر التي نزلت فيها، نحو: ﴿وَلَيْسَ إِلَهِ بَآءٌ﴾.

تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا»، وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَشَرِ زَيْكَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾؛ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ عَادَتَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

والخامس: من جهة الشُّرُوط التي بها يصح الفعل أو يفسد كشرُوط الصلاة والنِّكَاح.

وهذه الجملة إذا تُصَوِّرَتْ، عُلِمَ أَنَّ كُلَّ مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسُورُونَ فِي تَفْسِيرِ الْمُشَابِهَةِ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ التَّفَاسِيمِ^(٢٤).

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«وَأِنَّمَا سُمِّيَتْ الشُّبُهَةُ شُبُهَةً لِأَنَّهَا تُشَبِّهُ الْحَقَّ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى، وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَدَعَاؤُهُمْ الضَّلَالُ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى»^(٢٥).

الشُّبُهَةُ إِذَا هِيَ اخْتِلَاطُ الْأُمُورِ عَلَى الْبَعْضِ عِنْدَمَا يَعْجِزُونَ لضعفِ فِيهِمْ عَنْ إدْرَاكِ وَجْهِ الصَّوَابِ مِنَ الْخَطَأِ، فَيَسْقُطُ الْبَعْضُ مِنْهُمْ فِي فِخَاخِ الدَّجَالِينَ وَالْكَذَّابِينَ وَالْمُزَوَّرِينَ، وَمَا أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ فِي تَارِيخِ كُلِّ الْأُمَمِ مِنَ الَّذِينَ يَخْلُطُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَمَنْ يَمُوهُونَ عَلَى النَّاسِ حَقَائِقَ الدِّينِ أَوْ حَقَائِقَ الْوَقَاعِ، أَوْ مَنْ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْكُلُوا الدُّنْيَا بِرَفْعِ شَعَارَاتِ الدِّينِ، فَيُنْقَادُ النَّاسُ وَرَاءَهُمْ، وَكَمَا يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فِي وَصْفِ هَؤُلَاءِ وَمَا يَجْرُونَهُ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ بَلْ وَعَلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ مِنْ بَلَاءٍ:

«إِنَّ الْفِتْنََ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلَاتٍ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ، يَحْمَنُ حَوْمَ الرِّيَّاحِ، يُصْبِنُ بَلْدًا وَيُخْطِئُ بَلْدًا»^(٢٦).

يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِفِتْنَتِهِمْ، أَيُّ: بِضَلَالَتِهِمْ الْمُؤَدِّيَةِ لْخَسَارَةِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ؛ لِيَنْصَبُوا فِخَاخَ الشَّعَارَاتِ وَالْوَعُودِ، فَيُنْقَادَ لَهُمُ الْبَسْطَاءُ وَمُحْدُودُ الْعِلْمِ وَضِعَافُ الْعُقُولِ، وَلَا يَدْرِكُ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ قَدْ سَقَطُوا فِي حُفْرَةٍ عَمِيقَةٍ، أَوْ ﴿فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ

مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴿٧٢﴾، إِلَّا بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، وبعد أن لم يعد مكانٌ سوى للحسرة والخذلان.

ولو أنّ هؤلاء قد عملوا بنصيحة الإمام عليه السلام التي ذكرناها سابقاً، «وَأَسْتَصْبَحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِّصْبَاحٍ وَاعِظٌ مُّتَعِظٌ، أَوْ امْتَاخُوا مِنْ صَفْوٍ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدْرِ»^(٧٢)، بدلاً من أن يركنوا إلى جهالتهم، أو ينقادوا لأهوائهم؛ لما أفلح أحدٌ في اصطيادهم وسوقهم إلى حتفهم وإلى مصيرهم الأسود الذي هو من دون أدنى شكّ نتيجة منطقية لإعراضهم عن سؤال أهل الذكر وعن اقتباس العلم من معدنه ممن لا يسألهم أجراً وهم مهتدون.

الفتنة التي تحدّث عنها الإمام علي عليه السلام هي نفسها الفتنة بمفهومها القرآني، ارتكاب الأخطاء التي تؤدي إلى نزول البلاء الدنيوي أو الأخروي، والتعرض لامتحانات ما كان أغنى الناس عن التعرض لها.

ليس هناك ما يمكن أن يسمى بفتنة انعدام الرؤية؛ لأنّ انعدام الرؤية يعني شيئاً واحداً هو سقوط التكليف، ويتعيّن على المكلف العاقل أن يختار الوقت الصّحيح والصّائب للرؤية قبل فوات الأوان، فما يشتهه على الجاهل اليوم سيراه بأمّ عينيه غداً، ولات حين مناص!!.

إنّ لم تستجب لنصيحة الرّاسخين في العلم، أو أولئك الذين انتقل إليهم العلم الرّاسخ، فليس من حقّك أن تقول لم أكن أعلم أو ما زلت غير قادرٍ على معرفة الفارق بين الخطأ والصواب، ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

ليس من حقّك أن تخدع غيرك، كما أنّه من العار أن تواصل خداع نفسك؛ لأنّ الفتن والضّلالات حتى وإنّ شبّهت حين أقبلت، فلا بدّ أنّها نبّهت أنّ حطّمت ودمرت وأهلك وأضاع عليك الفرصة التي لا تأتي في العمر إلّا مرة واحدة!!.

أما عن السبب الذي يدفع صنّاع الفتن والضلالات ممن سكن الرّيع في قلوبهم لسلوك طريق التّأويل المنحرف والمعوج فيبينه لنا الإمام علي عليه السلام بقوله: «إِنَّمَا بَدَأَ وَقُوعَ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامُ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا، عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِرَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخَفْ عَلَى الْمُتَرَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ؛ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ، فَيُمَرَّجَانِ! فَهَذَا يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى»^(٢٨).

الراسخون في العلم من النوع الثّاني، أو من تلك الحلقة الوسيطة بين أهل القمة أهل الذّكر وجمهور المؤمنين المتلقين (مثل عمّار بن ياسر) يشكلون ضرورة حياة وبقاء لهذا الدين، وهذه الأُمة حتّى ولو لم يبلغ علمهم ما بلغه علم أئمة الدّين عليهم السلام، وهم قد عرفوا حدودهم وقدراتهم وهم من وصفهم الإمام عليه السلام بقوله:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ الرّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ افْتِحَامِ السُّدَدِ الْمُضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةٍ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمُحْجُوبِ فَمَدَحَ اللَّهُ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفُهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخًا، فَاقْتَصَرَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُقَدَّرُ عَظَمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ»^(٢٩).

الخلاصة:

نعتقد أنّ قراءة القرآن قراءة متجدّدة هي فريضة العصر الرّاهن الذي يتعيّن على الأُمة الإسلاميّة أن تنهض وتقوم بها بدلا من الاكتفاء بما كتبه المفسّرون الأوائل في ضوء المتغيّرات الكونيّة التي تحيط بهم، والتي تحتمّ عليهم التّغيير

والإصلاح.

قراءة القرآن في ضوء ثوابته ومبادئه الأصيلة والحاكمة (أم الكتاب) بعيداً عن تلك الترهات والسخافات التي فرضتها عصور التخلف والاستبداد والظلام.

* * *

الهوامش:

- (١) صحيح البخاري ٤: ١٧٩، نشر دار الفكر ١٤٠١. صحيح مسلم ٣: ١١٢، دار الفكر، بيروت لبنان.
- (٢) نهج البلاغة، الخطبة: (١٢١)، ص: ٥٤، نسخة المعجم المفهرس، الطبعة الرابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٣) نهج البلاغة، الخطبة: (١٣٨)، ص: ٦٠، مرجع سابق.
- (٤) جاء في الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين (عليه السلام): «ما تتعلقون من الإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه».
- (٥) نهج البلاغة، الخطبة: (١٠٨)، ص: ٤٨، مرجع سابق.
- (٦) نهج البلاغة، الخطبة: (٥٠)، ص: ٢٠، مرجع سابق.
- (٧) نهج البلاغة، الخطبة: (١٧)، ص: ١٠، مرجع سابق.
- (٨) الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣: ٢٣١، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر ١٤١٥، بيروت.
- (٩) المصدر نفسه، صفحة: ٢٣٤.
- (١٠) العواصم: ٢١٩.
- (١١) الرّاغب الإصفهاني، مفردات غريب القرآن: ١٩٥، نشر: دفتر نشر الكتاب، الطبعة الثانية ١٤٠٤.
- (١٢) الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣: ٢٣١، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر ١٤١٥، بيروت. الثعلبي، تفسير الثعلبي ٦: ٢٧٠، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، الطبعة الأولى ١٤٢٢، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٢٧٢، تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، نشر دار

- إحياء التراث العربي ١٤٠٥، بيروت.
- (١٣) نهج البلاغة، الخطبة: (١٤٤)، ص: ٦٢، مرجع سابق.
- (١٤) نهج البلاغة، الخطبة: (١٠٥)، ص: ٤٦، مرجع سابق.
- (١٥) راجع: مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣: ٥، دار صادر، بيروت.
- (١٦) ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي، شرح نهج البلاغة ٥: ٢٥٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصورة عن الطبعة الثانية ١٣٨٥ لدار إحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ١٤٠٤.
- (١٧) الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣: ٢٥٢، ضبط وتوثيق وتخرىج صدقي جميل العطار، دار الفكر ١٤١٥، بيروت.
- (١٨) علماً أن الذي يُراد الانتصار له، هو خليفة المسلمين، والإمام المفترض الطاعة.
- (١٩) البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ٨: ٩٢، كتاب الفتن، باب: إذا التقى المسلمان بسيفيهما، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصورة عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول.
- (٢٠) المصدر نفسه ٨: ٩٨.
- (٢١) المصدر نفسه ٨: ٩٩.
- (٢٢) راجع: ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٥، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصورة عن الطبعة الثانية ١٣٨٥ لدار إحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ١٤٠٤.
- (٢٣) نهج البلاغة، الخطبة: (١٧)، ص: ٩، مرجع سابق.
- (٢٤) الرّاغب الإصفهاني، مفردات غريب القرآن: ٢٥٤، نشر: دفتر نشر الكتاب، الطبعة الثانية ١٤٠٤.
- (٢٥) نهج البلاغة، الخطبة: (٣٨)، ص: ١٨، مرجع سابق.
- (٢٦) نهج البلاغة، الخطبة: (٩٣)، ص: ٤١، مرجع سابق.
- (٢٧) نهج البلاغة، الخطبة: (١٠٥)، ص: ٤٦، مرجع سابق.
- (٢٨) نهج البلاغة، الخطبة: (٥٠)، ص: ٢٠، مرجع سابق.
- (٢٩) نهج البلاغة، الخطبة: (٩١)، ص: ٣٦، مرجع سابق.

الحرية

بين المنظور الإسلامي والفكر الغربي

□ الأستاذ: حفيظ الرحمن الأعظمي (*)

لم ترد كلمة «الحرية» في القرآن الكريم، إنما الذي ورد هو مشتقات منها، مثل كلمة (تحرير) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

وكلمة (محرراً) التي تتحدث عن نذر أم السيِّدة مريم عليها السلام حملها الله في قوله: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

وكلمة (الحر) في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۗ

(*) أكاديمي باكستاني.

ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ [البقرة: ١٧٨].

وعلى طريقة القرآن في ضرب الأمثال للناس؛ لإيضاح المفاهيم الضرورية بإثارة وتحفيز أدوات الفكر، وإعمال العقل، فقد ضرب مثلاً في سورة النحل يُعبّر عن الأهمية القصوى لقيمة الحرية في مسيرة الناس، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِيَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

فلا تساوي بين من يتمتع بالحرية ويعيش بها وبين من سُلبت منه الحرية، وهذا من أساسيات العلم.

وهناك مَنْ يزعم أَنَّ عدم ورود كلمة الحرية في القرآن، والاقتصار على مشتقاتها، التي جاءت بصدد تكليف الإنسان المخطئ بكفارة عن خطئه بتحرير إنسانٍ من عبودية الرّق (تحرير رقبة)، هو دليلٌ على أَنَّ الإسلام لم يعرف للإنسان حقوقاً، بل فرض عليه واجبات، وكلفه بتكاليف لا غير.

بيد أَنَّ الارتفاع بالقيم الإنسانية الأساسية، وعلى رأسها الحرية - وهي التي تعيننا في هذا المقام - من مستوى الحقوق للإنسان، إلى مستوى التكليف أو الالتزام أو الشرط لاكتمال إنسانية الإنسان، يدحض هذا الزعم، بل يجعل الحرية من أبرز مقاصد وقيم الإسلام، ويسلب مصداقية أية دعاوى باسم الشرع تُروّج لسلب حرية الإنسان - أي إنسان - أو التَّغُول عليها، أو تقييدها، أو التنازل عنها، أو حتّى القعود في سبيل تحصيلها، باعتبارها مجرد حقٍّ يمكن التنازل عنه في مقابل تمجيد الاستقرار والسُّكون، أو تكريس مفهوم الطاعة للسلطة. ومن أنواع السلطة التي حرّر القرآن منها المؤمنين به سلطة الآباء، وسلطة المملأ، وسلطة الفراعنة، وأيضاً سلطة الهوى بإيثار السلامة والخضوع وترك السَّعي لتحصيل الكرامة والمساواة والحرية، ولو استدعى الأمر الهجرة في أرض الله الواسعة^(١).

ويبدو أنَّ هذا المفهوم - رغم غياب كلمة الحرِّيَّة من مفردات القرآن - كان غايةً في الوضوح في ذهن الرِّعيل الأوَّل من المسلمين، كما يظهر ذلك في وصيَّة لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»^(٢). وكذا في قصَّة عمر بن الخطَّاب من عمرو بن العاص، ويتضح الأمر بجلاء في قول عمر: «مذكم تعبدتم النَّاس وقد ولدتهم أمَّهاتهم أحراراً»^(٣).

كما نلمح ذات التوجُّه في قصَّة ربيعي بن عامر مع رستم ببلاد فارس، حين سأله رستم عن دوافع مجيء العرب لقتال الفرس؟ فأجابه ربيعي: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»^(٤).

الحرِّيَّة إذن هي فريضةٌ وواحبُّ والتزامٌ وتكليفٌ قبل أن تكون حقًّا، والمسؤوليَّة عن نشرها وتوفيرها وحمايتها يدخل ضمن هذا التَّكليف للإنسان المكلف، وقد مثَّل ذلك سياق الحركة والدَّعوة ومناط التَّوحيد الحقَّ للصَّحابة والتَّابعين.

وليس من واجب الإنسان المكلف فقط السَّعي للحصول على الحرِّيَّة، والمحافظة عليها، والدِّفاع عنها، وألاَّ يسمح لنفسه أو لغيره بالإفْتئات عليها، بل إنَّ عليه - أيضاً - إلزاماً واجباً بالدِّفاع عن حقِّ الآخر في الحصول على الفرصة العادلة للتَّعرُّف على ملامح الحرِّيَّة، وأنَّ يوفرَّ له المناخ المناسب لممارستها، وتذوِّق نتائجها وآثارها، وما فُرض الجهاد إلَّا لذلك الهدف، أعني: تحرير النَّاس من الهيمنة على العقول والمقادير من قبل السُّلطة الباغية المستبدة، ثمَّ بعدها مَنْ شاء فليؤمِّن وَمَنْ شاء فليكفر..

القفزة هائلةٌ والبون شاسعٌ بين مفهوم الحقِّ السَّلبي أو العاطل، ومفهوم التَّكليف والواجب الإيجابي الحيِّ والفاعل والديناميكي..

وإذا كان الكون خُلِق لغايةٍ وليس عبثاً، والإنسان كائنٌ مكلفٌ، والعقل هو

مناط التكليف، ومن شروط قبول الإنسان ذلك التكليف الحرّية والاستطاعة والطاعة، فلا يعني شرط الحرّية هنا أنّ للإنسان من حيث المبدأ أن يرفض التكليف أو يقبله ولا يتحمّل تبعه الاختيار؛ لأنّ الإنسان قد سبق وأقرّ بالتوحيد حين شهد الله بالربوبية بنص: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف].

فليست الحرّية هنا والتي هي شرطٌ للتكليف، تمارس في قبول التكليف أو رفضه؛ لأنّ التكليف ليس موضوعاً للمساومة، وإنّما مجال الحرّية للإنسان هو في العمل وفقاً لمتطلبات هذا التكليف، أو ترك العمل بها وتحمل مسؤولية هذا الاختيار بتقديم مشيئته في الكفر على مشيئة الله في استخلافه وتكليفه، وتحمل عواقب ذلك في الدنيا والآخرة.. فأمر التكليف للإنسان محسوم في سورة الإنشقاق: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾.

والإنسان المكلف العاقل السميع البصير حرٌّ في العمل وفقاً للتكليف، أو له غير ذلك: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد].

غياب مباحث الحرّية في فكر السلف

على الرّغم من عدم ذكر الحرّية بلفظها في القرآن الكريم، فإنّ الباحث بين جنباته، ومن خلال آياته سوف يجد الحظّ الوفير الذي أخذته دلالات ومعاني الحرّية بأطيافها المختلفة، وقدر العناية الفائقة التي أولاها القرآن للاحتفاء بها. وحتى يمكننا تعقّب ذلك الحضور الأخاذ للحرّية بمختلف معاييرها وعناصرها لا بدّ أولاً من تصنيفها إلى فروعها المختلفة، وأنواعها التي تعارف عليها الفكر الإنساني. أي: المقصود هنا أنّه لكي نتمكّن من تتبّع الآيات التي

تُحدّد المفهوم القرآني للحرّية، والتي تشرح التّوصيف الإلهي لها، يجب أن نُحدّد أولاً أصناف أو أنواع الحرّيات التي أجمعت الخبرة الإنسانية المتراكمة على أنّها مطلوبةٌ وضروريةٌ للإنسان، فإذا وضعنا أمامنا أصناف الحرّية وتقسيماتها التي انتهت إليها أعمال العقل البشري، والتي تطوّرت كحصيلةٍ للتّجارب الإنسانية المتراكمة، أمكننا استخراج الآيات التي تُشير أو تدعم أو توضّح أو تضيف أو حتّى تُخالف هذه الأصناف من الحرّية وتراها مخالفةً لمقصود الإنسانية، من بين آيات القرآن الكريم.

ومن البديهي أن نتّجه أولاً إلى حصيلة الفكر الإسلامي، وإلى المصادر الإسلامية لمعرفة ما انتهى إليه الفقه في هذا المنحى.

إنّ الفكر الوارد إلينا من خلال التّاريخ الإسلامي قد شابه القصور الشّديد في اتّجاه التّنظير للحرّية، نتيجةً لأسبابٍ لا يتّسع المقام هنا لمناقشتها، والتّحدّث عن أسبابها، والتي على رأسها الاستبداد السّياسي الطّويل الّذي بدأ بمقتل الخليفة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد دفع هذا الاستبداد معظم العلماء والمفكرين المسلمين تاريخياً - بسبب الطّروف السّياسيّة - إلى صرف جهودهم في استنباط الحكم التّشريعي من الآيات، دون الوقوف عند الأهداف الكثيرة التي جاءت الآيات من أجلها، وأنزلت للفت النّظر إليها، وإدراك أبعادها، والتزامها في الحياة. فجعلوا الآيات موضوع الدّراسة هي آيات الأحكام حتّى يتمّ حفظ الدّين للأُمَّة في معاشها دون صرف جهدٍ كافٍ لآيات السُّنن وشروط البناء الحضاري ومقوّمات القيام بأعباء الاستخلاف الإنساني. وبقيت آيات القرآن العديدة حول الاستخلاف والتّوحيد وعلاقتها بالإنسان وتحريره وفلسفة السُّنن الاجتماعيّة في قصص الأنبياء تُتلى في العبادة فحسب. حتّى الآيات التي وردت لتبيّن أسباب سقوط الأُمم وانهيار الحضارات؛ ليأخذ المسلمون حذرهم، فلا تتسرّب إليهم إصابات الأُمم السّابقة وعللها، وجعلوها دليلاً على

تميّز الأمة الإسلامية وكأئها مبرأة من أن تسري عليها تلك السنن إن هي تولّت وأهدرت العدل والحرية والمساوات.

وقد أنفق الرسول ﷺ قرابة الثلاثة عشر عاماً - وهي الفترة التي قضاها في مكة - في إرساء العقيدة والتوحيد والإيمان في نفوس المسلمين، وكانت هي المرحلة التي يمكن أن تُسمّى مرحلة بناء الذات الحرة الواعية العزيزة بالله، وهي الذات الضرورية التحمل تبعات القيام بأعباء تأسيس الأمة، ونشر الدعوة، والدفاع عنها؛ لذلك نجد أن الآيات المكيّة من القرآن هي الآيات التي تخدم البناء العقيدي والإنساني والحضاري، بينما تأخّرت آيات الأحكام إلى المرحلة المدنيّة؛ وذلك لأنّ الحكم التشريعي إنّما يجيء ثمرة للوجود والبناء الذاتيّ الإسلامي. فالحكم التشريعي لا يُنشئ المسلم، ولا يُنشئ المجتمع، وإنّما ينظّمه ويحميه، ولعلّ ذلك كان سبب تأخّر الآيات التشريعيّة إلى الفترة المدنيّة؛ لتكون ثمرة لوجود فردٍ وجماعةٍ وأمةٍ وحضارة.. أمّا أن يكون الحكم التشريعي هو الأوّل فعلى مَنْ سيتنزّل؟! ومن سيُطبّقه بغية العدل والقسط إذا غاب الشّهداء على النّاس، وتراجعت خلافة الإنسان بمعانيها وبحقّها؟!!

ورغم ذلك الانصراف للعبادات والمعاملات دون السّعي للعدل السّياسي والدّفاع عن الحُرّيات العامة فلم يسلم حتّى الأئمّة الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل من بطش الحُكّام، وساءت علاقاتهم بالسلّاطين على الرّغم من محاولاتهم لتجنّبهم، فقد مات أبو حنيفة في السّجن، وعذّب ابن حنبل في محنة خلق القرآن، وكُسرت ذراع مالك في فتوى سياسيّة حين أفتى بأنّه لا قيمة لإيمان التّواطؤ على البيعة، أمّا الشّافعي فقد سيق في القيد مع تسعة من العلويّين، وتقدّم الشّافعي فصار في مواجهة الرّشيد، فلم يفقد اتّزانه فزعاً، أو غضباً، أو يأساً، ولم يتخلّ عن رباطة جأشه، وينجو الشّافعي بشهادة القاضي، فينجو بنجاته ذخّر زاخرٌ من اللّغة والأدب والشّعر فضلاً عن علوم الدّين.

قبول الأمر الواقع، دفع الفقهاء إلى مزيد من الانكباب والاستفاضة في شروح العبادات والمعاملات على النحو الذي وصل إلينا؛ ولذا نجد هذا الثراء والغنى في فقه العبادات والمعاملات، لكن في المقابل ضموً وضعفٌ في الفقه السياسي والدستوري باستثناء كتابات معدودة لا توازي القرون العديدة، ولا تضاهي الفقه الغالب.

أو كما يقول محمد الغزالي: «وتأثرت السياسة الإسلامية تأثراً بالغاً، وانهمزت الشورى انهماً واضحاً، ووقع للأمة ما وقع».

لا يعني ما سبق محاولة للإقلال من تأثير الحضارة الإسلامية الهائلة على مسيرة البشرية، بل وعلى الغرب الذي تسيطر حضارته على العالم منذ ثلاثة قرون وإلى الآن، لكننا نركز فيما سبق على أسباب تضخم فقه العبادات، وانكماش ما عداها، والذي لا يقل في الأهمية لنشاط الإنسان كخليفة عن الله في أرضه؛ لذلك لم يكتمل بناء مفاهيم وتعريفات واضحة للحرية الفردية، وعلاقات الحرية بين السلطة والفرد في التراث الإسلامي، أو يمكن القول بعدم وجود هذه التعريفات. وليس يعني ذلك أن المفكرين المسلمين لم ينشغلوا بعلاقة الحاكم والمحكوم، فالواقع أنها شغلهم دائماً، وإنما من خلال مفهوم آخر هو مفهوم العدالة، فالحاكم مخوّل بالحكم بشرط أن يكون عادلاً في حكمه، ومن هنا شعار (العدل أساس الملك)، لكن الوجه الآخر هو تمتع الناس بالحرية ودفاعهم عن حقهم فيها، وهو ما قيده الفقهاء خشية انفراط عقد الأمة وحدوث الفتنة، فكانت فتنة الاستبداد أم الفتنة التي وقع فيها المسلمون فأجهضت نهضتهم، وأثمرت تدهور حضارتهم، وأنجحت مؤامرات عدوهم.

خرائط الحرية: مقدمة في القياس الغائب

يمكن رسم خريطة الحريات في الدولة الحديثة كما يلي:

حُرِّيَّةُ فَرْدِيَّةٌ مَادِّيَّةٌ وتشمل:	حُرِّيَّةُ فَرْدِيَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وتشمل:
سلامة البدن	حُرِّيَّةُ الْعَقِيدَةِ
الأمن	حُرِّيَّةُ الْآرَاءِ
الملكيَّة والصَّنَاعَة والتَّجَارَة	حُرِّيَّةُ الْاجْتِمَاعِ
حرمة المسكن	حُرِّيَّةُ الصَّحَافَةِ
سِرِّيَّةُ الْمُرَاسَلَاتِ	التَّعْلِيمُ
-----	تكوين المجتمعات

ويمكن أيضاً تقسيمها بشكلٍ مختلفٍ كالتَّالِي:

حُرِّيَّةُ الْخِيَارَاتِ الْخَاصَّةِ	حُرِّيَّاتُ فِكْرِيَّةٌ / تَعْبِيرِيَّةٌ	حُرِّيَّاتُ مَدَنِيَّةٌ
حُرِّيَّةُ الْبَدَنِ	حُرِّيَّةُ التَّعْلِيمِ	حُرِّيَّةُ تَأْلِيفِ النِّقَابَاتِ
حَقُّ الْأَمْنِ	حُرِّيَّةُ الصَّحَافَةِ	حُرِّيَّةُ الْجَمْعِيَّاتِ وَالشَّرَكَاتِ
حَقُّ التَّنَقُّلِ	حُرِّيَّةُ الْاجْتِمَاعِ	حُرِّيَّةُ تَكْوِينِ الطَّوَائِفِ
حَقُّ الْعَمَلِ	-----	-----

وقد فرَّق (آيزيا برلين) أبرز المفكرين الغربيين الذين نظَّروا للحرِّيَّة بين:

حُرِّيَّاتُ سَلْبِيَّةٌ	حُرِّيَّاتُ إِيْجَابِيَّةٌ
وهي التي تُشكِّلُ قِيوداً على الدَّولة	وتشمل مبادرة المواطن بالفعل

وهكذا يمكن تحديد الحُرِّيات الأساسية بالتَّالي:

١. حُرِّيَّة العقيدة والاعتقاد.
٢. حُرِّيَّة الفكر.
٣. حُرِّيَّة الاختلاف.
٤. حُرِّيَّة السُّؤال والمجادلة والمناقشة وإبداء الرَّأي، وحُرِّيَّة الاجتهاد، وواجب الشُّورى.
٥. حقَّ العمل، وحقَّ المرء في سؤال دولته تقديم خدماتٍ له.
٦. حقَّ التَّنقُّل والانتقال.
٧. حُرِّيَّة الاجتماع وتكوين الجمعيات والنِّقابات والشَّرَكَات.
٨. سلامة البدن وحقَّ الأمن، وحرمة المسكن وسرِّيَّة المراسلات.
- وهناك حُرِّيَّتان إضافيتان أضافهما الإسلام إلى حُرِّيَّات الفرد والجماعة، وهما:
٩. حُرِّيَّة الدُّعاء وحقَّ الاستجابة.
١٠. حقَّ الخطأ وحقَّ المغفرة/ واجب الاجتهاد وأجر المحاولة.
- فأيُّ تلك الحُرِّيَّات يخالف الشرع أحكاماً ومقاصد؟

الحُرِّيَّة في الأمانة.. محاولةٌ اجتهادية

الآية القرآنيَّة التي توضَّح الصُّورة المهيبة لموقف العرض الإلهي من قبل الحقِّ - تبارك وتعالى - على الكائنات للأمانة، حين قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. تدلُّنا على أنَّ المقصود بالأمانة في هذه الآية الكريمة هي

الحرية؛ فالأمانة ليست محض التكليف، بل هي الحرية المتأسسة على تمييز الإنسان بالعقل، والتي هي مناط التكليف.

وقد اختلف المفسرون في شرح وبيان هذه الآية، فقال الإمام الزمخشري: «وهو يريد بالأمانة الطاعة، فعظم أمرها، وفخم شأنها.. وعرضها - أي: الأمانة - على الجمادات، وإبائها وإشفاقها مجاز...»، ثم يقول: «إنَّ ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عُرِضَ على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواها وأشدّها أن تتحمّله وتستقل به، فأبَت حمّله أو الاستقلال به، وأشفقت منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوّته؛ حيث حمل الأمانة ثمَّ لم يف بها»^(٥). وقال الفخر الرازي: «أي: التكليف...»^(٦).

وقال الإمام ابن كثير: «قال العوفي عن ابن عباس: يعني بالإمانة (الطاعة)، عرضها الله تعالى عليهم (أي: السَّمَاوَات والأَرْض والجبال) قبل أن يعرضها على آدم، فلم يُطَقنها، فقال لآدم: إِنِّي قد عرضت الأمانة على السَّمَاوَات والأَرْض والجبال فلم يُطَقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا ربِّ! وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله تعالى. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الأمانة الفرائض، عرضها الله على السَّمَاوَات والأَرْض والجبال إن أدّوها أثابهم، وإن ضيّعوها عذبهم، فكروها ذلك، وأشفقوا عليه من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها، ثمَّ عرضها على آدم فقبلها بما فيها... وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضَّحَّاك والحسن البصري وغير واحد: إنَّ الأمانة هي الفرائض، وقال آخرون: هي الطَّاعة»^(٧).

تتلخّص أقوال المفسرين السابق بيانها، وغيرهم ممَّن لم نذكرهم فيما يلي:

- إنَّ الأمانة هي التَّكليف أو الطَّاعات أو الفرائض أو قبول الأوامر والنَّواهي بشرطها.

• إِنَّ الإنسان قد ظلم نفسه بحمله لهذه الأمانة؛ لأنه تحمّل ما لا يُطيق جهلاً منه بطاقته.

وبذلك يمكن القول إنّ إجماع المفسرين على أنّ الأمانة هي التّكليف، ويؤكد ذلك الأستاذ العقاد في قوله: «ولقد وضع معنى الأمانة وضوحاً لا يقبل اللبس أو الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود، وهو (التّكليف)، فمن لم يذكره من المفسرين بنصّه، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته، وهي ملازمة له لا تنفك عنه»^(٨). ونلاحظ - أيضاً - أنّ المفسرين قد خلطوا في أقوالهم بين أساس التّعاقد وهو (التّكليف)، وبين شروط هذا التّكليف مثل (الطّاعة)، فأطلقوا اسم (الطّاعات) على التّكليف، فأصبح شرط التّعاقد (الطّاعة) اسماً لأساس التّعاقد (التّكليف). كما أنّهم لم يذكروا الشرط الآخر وهو (الحريّة) صراحةً، بل ألمحوا إليه بالقول: «إنّ أحسنّت جُزيت، وإنّ أسأت عوقبت»، فلم تذكر هنا الحريّة صراحةً، ولكن عوضاً عن ذلك أُشير إليها بذكر القدرة على الاختيار بين البدائل.

لكنّ التّكليف ليس بالأمر القابل للعرض، ناهيك عن القبول أو الرّفص من المخلوقات؛ حيث هو أساس خلق هذه الكائنات، فيمتنع لدينا قبول تفسير الأمانة بأنّها التّكليف. ويكون المقبول أنّ الأمانة التي عُرضت على الكائنات في هذه الآية هي قبول أو رفض شرطي التّكليف ابتداءً، وهما الطّاعة والحريّة، وليس التّكليف ذاته. وحيث إنّ السماوات والأرض هي كائناتٌ قد جُبلت على الطّاعة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ما يعني أنّها مخلوقاتٌ لا تعرف إلّا أنّ تكون طائعةً، ولا تقدر إلّا على فعل الطّاعة؛ لأنّها مفطورةٌ عليها، فيصبح عرض الأمانة بمعنى (الطّاعة) لا محلّ له؛ حيث لا محلّ لأنّ تعرض اختيار أمرٍ على مَنْ لا يملك أن يرفضه، فلا يبقى لنا إلّا شرط (الحريّة)، ما يعني أنّ الأمانة التي

عُرِضَتْ عَلَى الكائنات هي الحُرِّيَّة، حُرِّيَّة الاختيار بين البدائل، أَنْ تَمْلِك القدرة على الفعل والتَّرك، القدرة على أَنْ تقوم بواجبات التَّكليف، والقدرة على ترك هذه الواجبات، بل أَنْ تمنعها حتى من الحدوث، مع تمام المعرفة بثواب الفعل، والعقاب على التَّرك. ويصبح هنا من المفهوم أَنَّ السَّمَاوَات والأَرْض والجبال قد رفضن تحمُّل هذه المسؤوليَّة الجسيمة، وخفن من التَّبْعَات الهائلة المترتبة على القدرة على الاختيار بين البدائل، وكان لها ما أرادت، وفي ذلك يقول الفخر الرَّازي في تفسير هذه الآية نفسها عن رفض السَّمَاوَات والأَرْض: «لَمْ يَكُنْ إِبَاؤُهُنْ كِإِبَاءِ إِبْلِيسَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾» من وجهين: أحدهما أَنَّ هناك السُّجُود كان فرضاً، وها هنا الأمانة كانت عرضاً، وثانيهما أَنَّ الإِبَاء كان هناك استكباراً، وها هنا استصغاراً: استصغرن أنفسهن بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾»^(٩).

لَكِنَّ الْمَسْئُولِيَّةَ جَسِيمَةً فَلِمَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ؟!

الإنسان ذلك الكائن المكلف الفريد هو الذي قَبِلَ بِتَحْمُّلِ مَسْئُولِيَّةِ الحُرِّيَّة والقدرة على الاختيار، وبذلك أصبح الكائن المكلف الحرَّ المختار. ولو دَقَّقْنَا النَّظْرَ فِي هذه الآية لوجدنا من سياقها أَنَّ الأمانة لَمْ تُعْرَضْ فِي الأساس على الإنسان، وهي نقطةٌ تثير الانتباه والدهشة، وكأنَّ الحق - تبارك وتعالى - يخبرنا أَنَّ الإنسان، ذَلِكَ الكائن المتفرد، قد تقدَّم من تلقاء نفسه، من بين صفوف المخلوقات طالباً لها دون أَنْ تُعْرَضَ عليه، ولذلك فقد استحقَّها وفاز بها؛ لَّأنَّه لَا يَسْتَحِقُّ الحُرِّيَّةَ إِلَّا من يَتَشَوَّفُ إليها، وَلَا يَفُوزُ بِهَا إِلَّا من يَعِشْقُهَا وَيَرْغِبُ فِيهَا وَيَطْلُبُهَا.

هل يمكن القول إنَّ الإنسان قد مارس الحُرِّيَّةَ فِي الحصول على الحُرِّيَّة؟! فالحرِّيَّة اكتمالٌ للمعنى الإنساني ونفْيٌ للجهالة، وإذا كان الأمر كذلك - وهو في

زعمي كذلك - فكيف يستقيم أن يوصف الإنسان، الذي حمل شعلة الحرّية المقدسة، بأنه ظالمٌ لنفسه جاهلٌ لطاقته، بحمله لأمانة الحرّية، أو أنه تحمّل ما لا طاقة له به، وقاده جهله إلى حمل ما يثقل كاهله. هل من المعقول أو المقبول أن الخالق العظيم، الرؤوف الرحيم، الذي سبق حبه لخلقه حبهم إياه، والذي لا يقول لمن يدير إليه ظهره من خلقه، ناكراً مستكبراً موغلاً في الخصومة، لا يقول له إلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

انظروا إلى رقة التعبير! فالعلاقة قائمة على المحبة، وبها فقط تستمر أو تنقطع، وهو الله الذي حرّم الظلم على نفسه ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وجعله بين الناس محرماً، أن يعرض على الإنسان شيئاً لا يطيقه، ثم يصف الإنسان بعد ذلك بأنه ظالمٌ وجاهل؛ لأنه قبل وتحمّل هذا الأمر. إن الله هو القائل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فمناط التكليف الوسع، وهو أحد شروط التعاقد، فلا يستقيم أن يترك الإنسان ليتحمّل ما إن حمله فقد ظلم به نفسه، وساقه إلى الوقوع في ذلك جهله، ولا سبيل إلى الطاعة إلا من خلال الاستطاعة، إن التكليف التي تفرض على الناس لا يقصد بها قصم ظهورهم، ولا تسجيل العجز عليهم، ولا إرهابهم، حتى يصبح الدين امتحاناً، والعقيدة مصاباً، وإنما قصد بها إسعادهم، وتثبيت أقدامهم على طريق الخير، والأخذ بأيديهم في طريق التقدم والتطور، وتحبيب الفضائل، وتقييح الرذائل لديهم.

يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعليه فهل هناك من تفسير آخر لوصف الإنسان بأنه كان ظلوماً جهولاً غير الذي ساقته التفسير السابق ذكرها؟

الجماد لا يحرك نفسه، والنبات يحرك نفسه، ولكنه لا يعرف إلى أين، والحيوان يتحرك، ويعرف إلى أين يتحرك، ولكنه لا يعرف لماذا يتحرك، والإنسان هو الذي يعرف لماذا يتحرك، وما تأتي له ذلك إلا عن طريق الحرية، والإرادة المختارة التي تحدد له المسير، وتوضح له الاتجاه، وتكشف له علة اتخاذ هذا الاتجاه. إذا سلبت الإرادة الحرة المختارة من الإنسان نزل عن مرتبته، وانحط إلى أسفل، واعتري النقص ماهيته التي تميزه عن سائر الكائنات؛ فالحرية هي اكتمال النقص، وبدونها يصبح الإنسان ناقص المعنى، الإرادة الحرة المختارة هي التي ميزت الإنسان عن بقية المخلوقات، وبدون هذه الإرادة يصبح الإنسان ناقصاً في المعنى والماهية، وهنا يمكن أن نفسر كلمة (ظلوماً) بأنها (ناقصاً)، بدليل الآية: ﴿كَلَّمَا الْجَنَيْنِ ءَأَنْتُمْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمُوهُ شَيْئاً وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهراً﴾ [الكهف: ٣٣].

أي: لم تنقص منه شيئاً، فقبل أن يتحمل الإنسان أمانة الحرية ﴿كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾، أي كان ناقصاً في ماهيته الإنسانية جاهلاً بالعلم اللازم له لممارسة هذه الحرية، وتحمل مسؤوليتها، وبعد أن تحمّل أمانة الحرية اكتمل نقصه، وأعطى العلم النافي للجهالة، وأصبح جديراً بأن يكون سيد الكون.

بذلك التفسير لا يصبح التكليف عبئاً، والحرية كميناً أريد به الإيقاع بالإنسان الظالم الجاهل، إنما يصبح التكليف تشريعاً، والحرية اكتمالاً ورفعة، والإنسان مرفوع الهامة خلقاً وخلقاً، والسيادة على الكون من حقه، والحياة

زيادةً له من كُلِّ خير، والموت راحةً له من كُلِّ شرٍّ، والحبُّ والشوق يدفعانه ويرفعانه في مدارج الكمال والاكتمال.

ولقد استرعت آية الأمانة هذه انتباه حَتَّى مَنْ هم من غير الناطقين باللغة العربية (كلغة أم) ومن خارج العالم الإسلامي، فكتبت السيِّدة (أنا ماري شيمل) قائلة: «الإنسان هو الذي تحمّل الأمانة الإلهية، بينما أبت السماء والأرض أن تحمل هذه المهمة الكبيرة، مصداقاً للآية الكريمة (الأحزاب: ٧٢). وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في حقيقة هذه الأمانة، فمنهم من قال إنّها طاعة الله، ومنهم من قال إنّها تُشير إلى الإيثار بالله، ومنهم من رأى أنّها تعبر عن الحبِّ الإلهي، وفسرها آخرون باعتبارها تدلُّ على المسؤولية الفردية للإنسان في إطار حُرِّيَّة الاختيار. والإنسان مطالبٌ في القرآن بالتفكير، واستكشاف الآيات الإلهية التي أودعها الله في نفس الإنسان»^(١٠).

وتقول السيِّدة (كارين أرمسترونج): «ويصوّر موضعٌ رائعٌ من القرآن الله وهو يعرض الأمانة (الحُرِّيَّة)^(١١) على كُلِّ مخلوقاته الأخرى التي ترفضها، أمّا الإنسان فقد كان من التّهوُّر بدرجة جعلته يقبلها (الأمانة)، غير أنّ الله لم يترك البشر دون هداية، فقد أرسل رسلاً لا يحصون لكُلِّ الشعوب على وجه الأرض يعلمونهم ما أَرادهم. لكن ومنذ آدم، أوّل الأنبياء، رفض البشر الإنصات إلى تجلّيات الإرادة الإلهية. فهم إمّا فشلوا في استيعاب الرّسالة، أو لم يطبّقوها في حياتهم اليومية، وبعد ذلك استغلّوا العالم الطّبيعي استغلالاً مشيناً»^(١٢).

وتثير مسألة الإرادة الحرة للإنسان بعض الأسئلة، حيث إنّ في القرآن الآيات التي تقرُّ حُرِّيَّة إرادة الإنسان في الفعل والترك، وأنّه مسؤول أمام ربّه عن ذلك، ولكنّ هناك آياتٌ أخرى تتحدّث عن أنّ الله هو خالق الخلق وخالق لأفعالهم. فهل الحُرِّيَّة في التّفكير السّابق هي حُرِّيَّة مقيدة أم مطلقة؟ وهل تكون الحُرِّيَّة مقيدة؟ إنّ الحُرِّيَّة في هذا السّياق هي حُرِّيَّة مخلوقة؛ حيث إنّ الله هو خالق

كُلُّ شَيْءٍ فَكَيْفَ بِالْحُرِّيَّةِ المخلوقة: أهي حُرِّيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ؟

هناك الكثير من الآيات التي تتحدّث عن إرادة الإنسان الحرّة، وعن مسؤوليّته عن أعماله وأفعاله، وعن حسابه وثوابه على ما كسب من صالح الأعمال، وتوعّده بالعقاب الشّدِيد عما اكتسبه من آثام، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة].

ويقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

ويقول: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وأيضًا في سورة النساء: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٨).

ويقول: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي المقابل هناك الكثير من الآيات التي تسند الإرادة إلى الله، وأنّه الخالق للعباد ولأفعالهم، وهو المقدر للهداية والضلال، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

ويقول: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وأيضًا: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[القصص: ٦٨].

هل هناك تناقض؟ لتتحرك خطوة خطوة لمحاولة رفع الالتباس. وبغض النظر عن التصور الاعتقادي، أي: سواء كان المنطلق إيمانياً أو غير إيماني، فكيف يتصور العقل إرادة الإنسان على كُُلِّ احتمال^(١٣):

- ١- لا يتصور العقل أن تكون إرادة الإنسان مطلقة من كُُلِّ القيود؛ لأنَّ إرادة إنسانٍ واحدٍ تنطلق بغير قيد، هي قيدٌ لكُلِّ إنسانٍ سواه.
- ٢- وجود النَّاسِ جميعاً بإرادة مطلقة لكُلِّ منهم على السَّواء، مستحيلةٌ فرضاً، ومستحيلةٌ وجوداً.

ويقول في ذلك جون ستيوارت مل: «فالإنسان غير مسؤول أمام المجتمع عن شيءٍ من تصرُّفاته، إلَّا ما كان منها ذو مساس بالغير»^(١٤)، ويستطرد قائلاً: «إنني متنازلٌ عن كُُلِّ ما يمكن أن يستخلص لتأييد حجتي من فكرة الحق المجرد بوصفه شيئاً مستقلاً تماماً عن المنفعة؛ إذ أنني أعتبر المنفعة الهدف النهائي وراء جميع المسائل الأخلاقية... ونحن نرى أنَّ هذه المصالح لا تبيح إخضاع حُرِّيَّة الفرد تلقائياً إلى أية سيطرة خارجية، إلَّا فيما يختص بتلك الأعمال التي يأتيها الفرد، وتتناول مصلحة الآخرين، فإذا ارتكب المرء فعلاً ضاراً بغيره، استحقَّ الجزاء بلا منازع، إمَّا بقوة القانون، أو بحكم الرأْي العام، حينما لا يؤمن تدخل القانون»^(١٥). إذن الحُرِّيَّة المقيدة متصورة في العقل، كما جاء بها النقل.

- ٣- كما سبق أن ذكرنا أنه إذا كانت الإرادة المطلقة هي إرادة الله، فخلق النَّاسِ بغير إرادة حُرَّة لا يقبله العقل أيضاً؛ لأنَّه يعني أن يخلق النَّاسَ جميعاً متشابهين متماثلين متساويين في العمل الصَّالح الذي يساقون إليه، فلا فضل إذن للعاقل على غير العاقل، ولا تمييز للإنسان على الجهاد المجرد من الحس، فضلاً عن الحيوان.

٤- إنَّ وجب تكليف الإنسان - وهو واجب - فالعقل الإنساني لا يوجبه إذن، إلَّا على حالةٍ واحدة، وهي حالة الإرادة الحرَّة التي يخلقها فيه الخالق كما بيَّنها القرآن.

٥- الحرِّيَّة المخلوقة حُرِّيَّةٌ صحيحةٌ في التَّصوُّر العقلي، فلا يقال إنَّ الحرِّيَّة التي تخلق ليست بحرِّيَّة، فالحرِّيَّة غير القيد عند التَّمييز بينها، كما تمتاز قيمة المعدن نفيساً وغير نفيس، وكلاهما مخلوقٌ أو مصنوع، فإنَّ خَلَقْنَا أو صُنِعْنَا للآنية الدَّهِيَّة وللآنية النحاسيَّة، لا ينفي نفاسة الأولى، ولا يجعلها متساويتين. (انتهى).

هناك إرادةٌ مطلقةٌ للخالق، وهناك حُرِّيَّةٌ مقيدةٌ للإنسان، للقيام بواجب التَّكليف بالطَّاعة والتَّنفيد والحصول على الثَّواب، أو بالعصيان وعدم القبول وتوقُّع العقاب.

الأمانة هي الحرِّيَّة، والحرِّيَّة أمانة، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد وهب سبحانه الأمانة إلى الإنسان، وبذلك فالإنسان هو أهل لها، نسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وهو خير مسؤول.

بدون الحرِّيَّة: أينما يوجهه لا يأت بخير

إذا تتبَّع المسلم آية ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] يجد إشاراتٍ حكيمةً.

الرَّجل الذي لا يقدر على شيءٍ، وهو عالَّةٌ على صاحبه، ويعتمد عليه في كُلِّ

شيء، وأينما يوجهه فالنتائج سالبٌ أو صفريّ، وهو دائماً وأبداً مصاحبٌ للفشل في كلِّ أحواله ومشروعاته وأعماله وهيئاته وتنظيماته، هو رجلٌ ﴿أَبْكُمْ﴾، ولا يعقل أن يقصد المثل القرآني الشخص الأخرس، والذي غالباً ما يكون فاقداً للسمع أيضاً، لا يقصد الأخرس بالمعنى الحرفي للكلمة، أي: لا يستطيع النطق لعاهة فيه، ولكن قد يكون المقصود أنه الشخص الذي لا يستطيع السؤال والمناقشة والجدل، وإبداء الرأي وحرية التعبير عن هذا الرأي، كما أنه (لا يسمع)، أي: إنه محرومٌ بالتبعية، وفي الغالب من التفكير وتنمية مهارات الجدل والتعقل والتبصّر. هل تكون الإجابة، أو نستطيع القول إنَّ الشخص المحروم من حرية السؤال والمناقشة والجدل والتفكير، ومن حرية إبداء الرأي أو التعبير، هو الذي أينما توجهه لا يأت بخير، وإنَّ المقابل له، أي: الذي يملك تلك الحريات هو بالضرورة.

هل في غياب حرية الرأي والتعبير والمناقشة والجدل والتفكير إجابة ولو جزئية على تلك الحال التي وصل لها المسلمون؟

أما الآية التي تسبق التي ذكرناها لتوّنا، وهي الآية (٧٥) من سورة النحل فيقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَرِ رَحْمَتِنَا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هنا نجد الفرد (مملوكاً) أي سُلِبَت منه كل الحريات المكفولة له بحكم حمله للأمانة، وهي الحريات التي وهب على أساس تحمُّله لمسؤوليتها خلافة الله في أرضه - والتي ذكرنا أصنافها سلفاً - يصفه القرآن بأنه ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾، أي: إنَّ القدرة على أيِّ فعلٍ معدومة، فما هو توصيف الوضع المعاكس لذلك؟ هو الرّجل الذي رُزِقَ الرزق الوفير، فهو ينفق منه في السرِّ والعلن. فهل يكون القصد أنَّ النتيجة الحتمية للسلب الكامل لحرية الفرد وبالتالي الجماعة، هي الانهيار الاقتصادي وما يعقبه من انتشار الفقر، وانخفاض الدخل القومي

والفردى، أي: انخفاض الإنتاج، وانخفاض القيمة المضافة الناتجة عن عمل الأفراد والجماعات، واختلال الموازنات والميزانيات، وما يترتب على ذلك من ارتفاع الدين الخارجي والداخلي، وانهيار الخدمات، والوقوع في فخ العجز عن دفع أصل الدين ناهيك عن فوائده، ثم استجداء إلغاء أو جدولة الديون، وبعد ذلك رهن الموارد القومية، ورهن استقلال القرار السياسي لدى أصحاب الديون.

هل تقصد الآية ما سبق؟!

هل للحرية كل ذلك التأثير؟!

هل يستوي الفرد الحر والجماعة الحرة، مع الفرد والجماعة مسلوبي الحرية؟!
صدق الله العظيم!

وهنا يجب التأكيد على أن الحرية لا ترادف اتباع الهوى، فلا يوجد أعداء أخطر على الحرية من تقيي جاهل، أو عالم فاجر.

لذا كانت التزكية هي صنو الحرية، ومجاهدة النفس والهوى ركن الأمانة ومناط العدل؛ ليصبح الهوى تبعاً للحق، لا أن يكون الحق تبعاً للهوى. والعبادة والعمل والحركة هي مكونات مشروع التزكية لترقي بالنفس؛ لتقتدي بمحمد البشر الرسول، اتباعاً للتوجيه القرآني: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

هل نستطيع أن نقول إن التزكية أن نستبدل بالنفس المعوجة، نفساً حرة زكية كنفس الرسول القدوة، والله ولرسوله المثل الأعلى.

وهذه العملية هي مصداق للتوجيه القرآني: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أُولِيَ الْيَكْمَ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

فنفس الرسول من نسيج أنفسنا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وهي نفس هيئته ليته سمحة، تتناغم مع كل إنسان برقة ورحمة وانسجام؛ لأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

عملية الزرع هذه لا يعقبها طرد ولا عنت، ولا غربة ولا اغتراب، ولا حمى واضطراب، بل رحمة ورأفة وسمو وترقي وتزكية وسكينة وسلام... وحرية. والحرية ليست بالتمني أو الادعاء، فلكي تكون حراً كالرسول، لا بد من الجهاد والمجاهدة، ولا بد من الترقى في الكمالات الأخلاقية للحصول على الحرية.

الحرية هي القرار الذي يتخذه الإنسان الحر الواعي المكلف، والذي لا تستطيع قوى العالم مجتمعة أن تسلب هذا الإنسان هذا القرار، مهما كانت الإغراءات، أو مهما توحش العدوان، أو مهما كانت الظروف، والحرية هي التي تحمي صاحبها في الوقت نفسه.

الإنسان خليفة الله في أرضه، باختياره الحرية، اختاره الله لهذا المعنى الرفيع، اختاره الله لجدارة الإنسان بها، والله أعلم حيث يضع رسالته.

* * *

الهوامش:

- (١) راجع: الآية (٩٧) من سورة النساء، والآية (٥٦) من سورة العنكبوت.
- (٢) نهج البلاغة، الكتاب: (٣١)، ص: ١٢٨، نسخة المعجم المفهرس، الطبعة الرابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٣) المتقي الهندي، علاء الدين علي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١٢: ٦٦١، ضبط وتفسير:

- الشَّيْخُ بَكْرِي حَيَّانِي، تصحيح وفهرسة: الشَّيْخُ صفوة السَّقَا، نشر: مؤسسة الرسالة ١٤٠٩، بيروت.
- (٤) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية ٧: ٤٧، تحقيق وتعليق: علي شيري، نشر: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨، بيروت.
- (٥) جابر الله الزَّخَّشَرِي، محمود بن عمر، الكشَّاف عن حقائق غوامض التَّنْزِيل ٣: ٥٦٤، الطَّبعة الأولى ١٤١٣، نشر البلاغة، قم.
- (٦) فخر الدِّين الرَّازِي، مُحَمَّد بن عمر، التَّفْسِير الكبير ٢٥: ٢٠٢، الطَّبعة الأولى ١٤٢١، دار الكتب العلميَّة، بيروت.
- (٧) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٣٠، تقديم: يوسف عبد الرَّحْمَنِ المرعشي، نشر: دار المعرفة ١٤١٢، بيروت.
- (٨) العقاد، عَبَّاس محمود، الإنسان في القرآن: ٤٥.
- (٩) المصدر نفسه: ٤٦.
- (١٠) أنا ماري شيميل، الإسلام دين الإنسانية: ٥٢-٥٣، ترجمة وتعليق د. صلاح محجوب، مراجعة د. فهمي حجازي، سلسلة دراسات إسلامية، العدد ٦٠، أكتوبر ٢٠٠٠ م.
- (١١) هكذا في النَّص.
- (١٢) كارين أرمسترونج، سيرة النبي مُحَمَّد ﷺ: ٢٥١، ترجمة د. فاطمة نصر / د. محمد عناني، دار سطور، ط ٢.
- (١٣) الإنسان في القرآن: ٥٠-٥٦ بتصرف.
- (١٤) جون ستيوارت مل، عن الحرِّيَّة: ٧٢، ٧٤، الهيئة المصرية للكتاب - القراءة للجميع -، ترجمة عبد الكريم أحمد / د. محمد أنيس مراجعة.
- (١٥) المصدر نفسه.

قضايا النهوض العربي الإسلامي

وحوار الحضارات

□ د. عبد الله أبو هدف (*)

جاء مفهوم حوار الحضارات إطاره الفردي والنظري إلى اندغام حوار الذات مع حوار الآخر استناداً إلى وعي التاريخ من جهة، ووعي مكانة عناصر التمثيل الثقافي من جهة أخرى، وثمة تعزيز لحوار الحضارات في اكتماله لدى الممارسة؛ إذ لا أهمية للحوار الفردي أو النظري وحده، مما يجعله حواراً ناقصاً، ما لم يتعمق بمعطياته الجمالية والأخلاقية والمعرفية والتاريخية والوجودية^(١)، عندما تتوحد أشكال القدر مع حالات القهر في الإحساس المأساوي بالمصير الإنساني. وتحددت مقومات الحوار في موضوعه ومجاله ومداه وغايته وقانونه نحو إدراك منظومته القيمية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وتوصيف فضاءاته وحالات تشكُّلاته.

وتحدد حوار الحضارات بالنظر في بنية المجتمع الدولي وتركيبه القائم على توزيع عناصر القوة ومدى تكافؤها وعلاقاتها ووظيفتها وأساليب استخدامها وتماهي هذه القوة مع سلطة المعرفة؛ لأن حوار الحضارات عملية فكرية تنطلق

(*) باحث وأستاذ الأدب المقارن في جامعات سورية.

من الوعي بأهمية الحوار المستند إلى معرفة الخصوصيات والنشاطات والفعاليات لدى هذا الشعب أو ذاك، وفي هذه الدولة أو تلك، ضمن فاعلية المجتمع الدولي.

ويتطلب ذلك أيضاً «التعرّف على الإنجازات الثقافية والعلمية والمعرفية والنسق القيمي ونمط الحياة والسلوك والتصرّف وأسلوب المعيشة والعادات والتقاليد والقيم الروحية والمعتقدات بهدف الوصول إلى رؤية مشتركة أو متقاربة تتضمن تحويل الخصوصيات السابقة لحضاراتٍ مختلفة ومتعددة باتجاه التعاون البناء بين الحضارات والدول والشعوب»^(٢).

وتؤسّر فضاءات الثقافة وعالميتها إلى اكتناز فضاءات المعرفة نحو مجتمع المعرفة والثقافة الرقمية، من خلال مراعاة عمليات إنتاج التدفّقات الثقافية العالمية التي تتحرّك في طرق غير متشابهة، وإعادة إنتاجها لا مجرد استهلاكها، وهذه التدفّقات هي:

أولاً: المشاهد العرقية التي تبحث من خلال تدفّقات البشر: السيّاح، المهاجرين، اللاجئين، المنفيين، العمّال الوافدين.

ثانياً: المشاهد التكنولوجية: أي: المصانع والإنتاج المتدفّق للآلات من خلال الشركات الوطنية، ومتعددة الجنسيات، والهيئات الحكومية.

ثالثاً: مشاهد الأسواق المالية والناجمة عن التدفّقات السريعة للأموال في أسواق التداول والبورصات.

رابعاً: المشاهد الإعلامية ومخزون صور المعلومات، والتدفّقات الإعلامية عبر الصحف والمجلات والتلفزيون والسينما.

خامساً: المشاهد الإيديولوجية المتصلة بتدفّقات الصور التي ارتبطت - بشكل متداع - بالدول أو بالحركات الإيديولوجية المناهضة لها، والمشملة على عناصر الحرية والمساواة والحقوق... الخ^(٣).

ويتطلب ذلك مراعاة عناصر المحلية والعالمية التي تسهم إسهاماً كبيراً في رسم الخصوصيات الثقافية وما ينبثق عنها من الطوائع القومية وتعارضاتها وتناقضاتها مع ثقافاتٍ أخرى، ومن شأن حوار الحضارات أن يخفف من وطأة هذه التعارضات والتناقضات كلما أمعنت الثقافات في رشادها وترشيدها، وكلما جعلت الخطاب الثقافي رحيباً لمجالات التبادل الثقافي، ولعلنا نشير إلى شواهد لا حصر لها عن عالمية الثقافة وقوميّتها في آنٍ واحدٍ عند ارتقاء الكاتب من تضيق الرؤى إلى تمير تداخلات الأطراف مع المركز نفيّاً للتهميش وتنويراً لأطروحات التواصل الحضاري.

وتتعلق عناصر المحلية والعالمية بمراعاة عناصر التمثيل الثقافي أيضاً، من الأديان والطوائف والعادات والتقاليد والأعراف والطُّقوس إلى الأفكار والعقائد والإيديولوجيات، بل إنَّ التخفيف من الأدلجة والتبشير العقائدي والتسييس بعد ذلك هو الأنسب للتواصل الحضاري بما يفضي إلى احترام حدود الذات وحدود الآخر في الوقت نفسه، إزاء المشكلات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ولم يعد التغير في دولة معيّنة من الخارج نافعاً، وليس الحوار مجدياً ضمن إملاءات شروط الهيمنة والاستعلاء والمكابرة؛ لأنَّ التغير مرهونٌ بالتغيرات الكيفية والتنوعية في سلوكيات البشر والأمم والدول من داخلها^(٤).

ولعلَّ الخلافات السياسية بين الأنظمة العربية والإسلامية والإقليمية والدولية هي التي تضاعف من أحوال التآزم في الحوار الذاتي والحوار الحضاري في الوقت نفسه، ففي المجتمع العربي تفاقمت الخلافات بين الأنظمة إلى إشكاليات ناجمة عن عناصر التمثيل الثقافي التي تستغلُّ خداعاً وكذباً ونفاقاً إلى حدِّ العدوان والحرب بين نظام وآخر.

و«لو تعمّقنا خلال نصف قرن في مدخل التعاون العربي لخلصنا إلى أنَّ كلَّ مشاكلنا ومعظم أزماتنا كان لها في الغالب جذورٌ سياسية، فلا مفرَّ إذن من

إعادة الاعتبار للفكر السياسي النقدي الحر لمواجهة تحديات العولمة، فمعركة خوض غمارها ليست معركة اقتصادية ومعرفية فحسب، بل هي كذلك معرفة سياسية^(٥).

ويستدعي حوار الحضارات باستمرار التسامح والانفتاح واحترام الخصوصيات والاختلاف والتخفيف من التبشير العقائدي والأدلة مما يضر كثيراً أو قليلاً بوجود الآخر، ولا يتضاد مع مصالح ناشريها، «فالإمبريالية الأمريكية، على سبيل المثال، لا تتحرك وفق رسالة حضارية، ولكن وفق مصالحها الخاصة التي كثيراً ما دفعتها لتقف ضد حقوق الإنسان وضد انتشار الديمقراطية، وساندت الكثير من الأنظمة الدكتاتورية، والمدافع الشرس عن النظام الاستيطاني الصهيوني العنصري، وكانت سبباً في استمرار التخلف في العديد من بقاع العالم»^(٦).

وانتقدت القطرية على نحو مبكر إزاء إضعاف النظرية القومية وتحققاتها كما هو الحال في مؤلفي جورج طرابيشي «الدولة القطرية والنظرية القومية» (١٩٨١)، وسليمان الغويل «الدولة القومية» (١٩٨٣)، ولا يخفى أن قطرية الدولة العربية توهنها على صعيد العلاقات الدولية، فالدولة القطرية تفتقر غالباً للقوة وموازينها، وتتعرض للاختراقات العسكرية والثقافية والإعلامية والاقتصادية، «في عولمة الأسواق والتجارة والسلع والصناعة المدعومة بثورة الاتصالات والمعلومات والمعرفة التي تمتلكها الدول الصناعية الكبرى، بالإضافة إلى ازدياد الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ومنها الدول العربية، ثم فقدان هذه الدول دورها كسلطة عليا في إنجاز القرارات، وازدياد حجم مديونيتها وهيمنة القطاع الخاص والاستثمارات الأجنبية»^(٧).

وإذا نظرنا في قابلية حوار الحضارات عند العرب والمسلمين وإمكانيته، فإننا ندرك جذوره البعيدة في رؤى صور الآخر الغربي في الفكر العربي الإسلامي في

كتب عديدة^(٨).

وأفاد محمد نور الدين أفاية، في أحدث كتاب في هذا المجال، أن الغرب المتخيل ليس منتبذاً أو عدوًّا، إلّا في حالات حربه على العرب والمسلمين. وتلخّص شغله في الوقوف «عند ما أنتجه الخطاب العربي الإسلامي الوسيط عن طرقٍ لإدراك وتمثّل الآخر، والتساؤل عمّا عبّر عنه من إرادة للمعرفة بالآخر، باعتباره اختلافًا دينيًّا أو خصمًا حضاريًّا أو عدوًّا عسكريًّا أو شريكًا تجاريًّا، والعمل على صياغة ما كوّنه هذا الخطاب من صور نمطيّة ما زالت بعض تعبيراتها تمتدُّ إلى صلب السؤال العربي الراهن عن الذات والآخر، عن الإسلام والغرب»^(٩).

وتفاقم الإحساس الحضاري أثناء الحرب الباردة ومتوالياتها من الاستقطاب والتبعية والهيمنة إلى العولمة التي ترهن حوار الحضارات بالقوّة أو العنف ممّا يؤدّي إلى إضعاف الذات أو التغطية عليها شأن العروبة والإسلام اللّتين أدغمتا في دعاوى الإرهاب ومناهضة الحداثة والموقف من التاريخ، وهذا جيّ في أطروحات فوكوياما «نهاية التاريخ» وهتنتغتون «صراع الحضارات»، وتبدو صريحة في رواية سلمان رشدي «زفرة المورا الأخيرة» (١٩٩٨ بالإنجليزية)، تطبيقاً لهذه الأطروحات، والمورا هم بقايا العرب والمسلمين في أسبانيا إثر هزيمتهم في الأندلس عام ١٤٩٢، والزفرة هي التي أطلقها أبو عبد الله الصّغير متأسّيًا للخسارة والهزيمة واضطهاد العرب والمسلمين وإبادتهم وطردهم من أسبانيا، بينما غدت عند رشدي امتداداً أو هوّةً لنهاية تاريخ العرب والمسلمين وخروجهم من الحضارة أو التاريخ في نهايات القرن العشرين.

وسمّي ذلك عند بعض الباحثين أدلجة نهاية التاريخ نتيجة لغلبة المثاقفة، وهي تأثير الثقافات القاهرة الغازية مثل ثقافة الغرب على ثقافات مقهورة مغزوة مثل الثقافة العربيّة الإسلاميّة. ولا يفترق ذلك عن «الصورة النمطيّة

البشعة للإسلام في المتخيل الغربي»، و«المهم أن الغرب يبدأ موقفه المعادي حيث يبدأ موقف الصمود، فأدلوجة الشوق الحرة منزوعة الروح، ولكنها تقبل بمداعة سحر الأديان مسلوقة المقاومة. وهذه هي مشكلتهم مع الإسلام. لقد كان الإسلام ضحية فرادته وتميزه عن البروتستانتية المدجّنة، كونه ديناً منخرطاً في الشأن العام، وليس علاقة خالصة بين الفرد وخالقه، بل هو علاقة بين الإنسان والإنسان، ورؤية للمجتمع والعالم وتدير للنفس والمدنية.. أي: بوصفه ديناً يسدّ الطريق على العلمنة، لسبب بسيط هو أنه بالمنظور الغربي نفسه هو دينٌ علمانيٌّ طالما له اهتمام بالشأن الدنيوي»^(١٠).

ولو عدنا إلى الأحوال التاريخية للحوار الحضاري بين العرب والغرب، لوجدنا أن الصراع هو السائد من الغرب نفسه ضدّ العرب من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، ومعاودته في المراحل التاريخية باللبوس الصهيوني المتحالف مع الغرب، ثم غطى هذا اللبوس الدعاوى الأمريكية التي بلغ تأججها مداه الأقصى في الغزو الأمريكي للعراق استناداً إلى مزاعم متبدلة من حين لآخر، والدعوة قائمة اليوم في وعي العرب للحقائق التاريخية حول الصراع مع الغرب واستمرارها بتغطيات وذرائع. ولعلنا لا نغفل عن إحدى هذه الحقائق التاريخية، وهي «أن العرب ينهزمون بانقساماتهم بأكثر مما ينهزمون بقوة أعدائهم»^(١١).

والحل هو استيعاب دروس تجارب الغزو والعدوان والاحتلال، وتبني أطروحات الحوار الحضاري عن قوة، لا عن ضعف، وقد أبانت مؤلفات الأسباب أنفسهم عن أسبابها في تاريخها وعلاقات المسيحيين والمسلمين واليهود فيها، أن درجة تأثير الثقافة العربية الإسلامية في تكوين الهوية الإسبانية عالية، وأن «الملامح الإسبانية ذات السياق المسيحي الإسلامي اليهودي تظهر بقوة في الوقت الذي لا يوجد فيه (مورا) أو يهود بشكل رسمي في أسبانيا، مما لا يصبح

معه المنظور البرجماتي والنفعي والموضوعي هو المقياس الوحيد الصالح لفهم الواقع الإنساني، بل يغدو التاريخ إنسانياً، وسوف تُنسى التجريدات التي تخلو من الرُّوح أو المعنى»^(١٢).

وأفاد مستعربون أوروبيون مثل الفرنسي (أندريه ميكيل) أنَّ الصّلات الحضاريّة بين أوروبا والعرب لا تنقطع، وأنَّ الخلاص من دعاوى الصّراع أو ما سُمّي الصّدام مرتّهنٌ بفهم عقليّة الآخر بالتّبادل^(١٣). غير أنَّ السّائد هو التّوكيد التاريخي منذ ما قبل الحروب الصّليبيّة إلى العصر الرّاهن هو «غزو الوطن العربي ومحاولة استعمارها والتّسلّط عليه»^(١٤)، وأنَّ المسعى المستمر من العرب وبعض ذوي إرادة الحوار الحضاري أنَّ تختلف التّوجّهات من أجل هذا التّواصل الحضاري النّافع للعرب والآخر الغربي، بينما تختلف الصّورة عن الحوار مع الشّرق، ولا سيما الهند والصّين واليابان؛ إذ تتقارب الأمم والشّعوب منذ تأسيس الأمم المتّحدة حتى اليوم.

حوار الحضارات والعولمة:

من الواضح، أنَّ حوار الحضارات فيما آل إليه لا يخرج عن طغيان العولمة ولا سيّما هيمنة قوّتها على الدّول الأضعف التي ترفض الإملاءات والخنوع أو أشكال الخضوع بلبوس الحوار، وقد وصفت العولمة الأمريكيّة بهيكل الموت عند انفرادها بتحكّمات تسلّطها على العالم وممارسة أنواع البطش والاستبداد لكُلِّ الرّافضين لسياسة الهيمنة بذرائع انتفاء الدّيمقراطيّة وحقوق الإنسان والحريّات ومجانبة المجتمع المدني، «حتى بات التّهديد الأمريكي باحتلال البلاد وتعيين مندوبين أمريكيّين لإدارة شؤون الشّعوب الخارجة عن عصا الطّاعة الأمريكيّة أمراً ممكناً في ظلّ التّفرد الأمريكي المذلّ للعالم بأسره بعد تحلّل الشيوعيّة»^(١٥).

ويستدعي ذلك إنعاش الحوار الحضاري وتنمية تواصله لمواجهة الإشكاليات والمشكلات الذاتيّة من خلال تعاظم إرادات الخلاص من ضغوط الاستعمار والهيمنة وصون الذات ومصالحها بالانتقال من مجرد الاستهلاك إلى الإسهام في إنتاج العولمة نفسها دخولاً في امتلاك السُّلطة التي جاوزت السّلاح التقليدي بأنواعه وتطوّراته إلى سلطة المعرفة والتّقنيّة، اتّصالات ومعلوماتيّة واقتصاداً عبر الشّركات المتعدّدة الجنسيّات العابرة للقارات والدُّول، ويؤشّر ذلك إلى حوار الدُّول من موقع القوّة والمصلحة المتبادلة عندما تنمّي سلطتها المعرفيّة والإنتاجيّة، وتدخل في مجتمع المعرفة والثّقافة الرّقميّة الذي ينطلق من زهاء التكتّلات الاقتصاديّة السّياسيّة العربيّة الإسلاميّة؛ لتصير قوّة حقيقيّة من الدّاخل، و«مع هكذا قوّة لا يمكن للغرب أن يقف موقف المتفرّج إزاء ما يحدث في قلب العالم العربي الإسلامي (فلسطين)، بينما يسارع لإنقاذ المسلمين في أطراف العالم الإسلامي (كوسوفو) حين تتطلّب مصالحه ذلك»^(١٦).

وركّز دعاة الحوار الحضاريّ عن حقّ، على أهميّة الثّقافة ودورها في تحريك العلاقات الدّوليّة وتحسينها برباط السّلم العالمي؛ تعزيزاً للهويّة الإنسانيّة التي تتشكّل في بعدها التّاريخي والثّقافي بالدرجة الأولى، ورهنوا مقارنة تحديّ العولمة في جبهتين:

«أحدهما: التّلاقح المتبادل بين الحداثة والتّراث لتحقيق الشّروط الموضوعيّة لآفاق التّحديث والتّطوير في عالمنا العربي والإسلامي.

ثانيهما: التّفاعل مع الثّقافات العالميّة في إطار الوعي باستثنائيّة المرحلة التي تمرّ بها أمّتنا بعد احتلال العراق، وهو ما يدعونا إلى بلورة ثقافة المقاومة في مختلف الأصعدة والمجالات»^(١٧).

ومن المؤكّد أنّ البحث في الهويّة غدا الشُّغل الشّاغل للعديد من المفكرين والمثقّقين والباحثين، ولعلّ كتاب «العروبة بين هويّة الإسلام ومستلزمات

الانبعاث» لصبري مصطفى البياتي (العراق) هو الأحدث في سلسلة كتب الباحثين الجدد عن هذه القضية الضاغطة.

وأوقف عند أطروحاته؛ لأنها الأشمل في تناولها لقضية الهوية إزاء الحوار الحضاري. وقد دافع فيها عن العروبة، وأوضح صورتها «للمواطن العربي الذي غابت عنه الحقيقة، حقيقة الهوية، وحقيقة الذات التي يسعى إلى تحقيقها»، أي: أن شغله جدالي وإشكالي يستدعي الرأي الآخر قبل كل شيء، ونظر في جوانبه المتعددة وهي: «عالم جديد.. رؤى جديدة» و«الذات بين العروبة والإسلام» و«العقل العربي - مشكلات وتحديات» و«العرب وقرن بدأ»، وأثار أسئلة كثيرة تُراعي البعد الديني، وتراه جوهرياً في مواجهة التحديات الراهنة. ومن الواضح أن الباحث شديد الاتصال بقوى العصر الجديدة مثل المعلوماتية والاتصالات، فقد عالج مسألة عصر القوميات والمعلوماتية والإيديولوجية القومية وصراع الحضارات ومستقبل المنطقة وجدل الصراعات المعاصرة، وتحدث عن إشكالية الذات بين العروبة والإسلام وعن الأمة والقومية في القرآن الكريم وإسلامية العروبة، وتصدى لبعض المشكلات والتحديات التي تواجه العقل العربي، مثل: البراغمية والإجماع والتعدد والآخر والمعطيات الاقتصادية. وتوقف ملياً عند مجموعة من المسائل أهمها العرب والعولمة.

وحفلت مناقشاته بنظراتٍ ثاقبة، مثل ذكره للتغير في بنية الإيديولوجيات القومية ووظيفتها، وإن شابها بعض الغلو؛ إذ ختم نظريته في هذا المجال بإطلاق قابلٍ للمناقشة حول مجتمع المعلوماتية: «أنا أستخدم الإنترنت.. إذن.. أنا موجود»^(١٨).

وثمة تعارضات في تفكيره نفسه تصل إلى حد التناقض، فهو ينكر الماضي وإنجاز الأجداد داعياً للنظر إلى المستقبل وحده، مشيداً بهؤلاء الذين «امتنعوا

عن تقليد أجدادهم والاكتفاء بذكر منجزاتهم فصنعوا يومهم وفقاً لما تطلبه غدهم»، وثمة غلوّ أشدّ في جعل البراغماتية «فلسفةً أمريكية المنشأ والروح»^(١٩)، وكأنّ جوهرها غائب عن الممارسات غير الأمريكية على الإطلاق، ويتبدّى التناقض، بعد مثل هذه النظرات في إلحاحه على البعد الديني للهوية، بل إنّ يجعله مرتكزاً للهوية، وهو إشكالي بطبيعته؛ لأنّ القومية العربية لا ترهن مفهومها للإسلام وحده بل لعناصر التمثيل الثقافي كلّها أدياناً وعقائد وأعرافاً وتقاليد، أمّا اللغة العربية فهي بعدّ من الأبعاد الكثيرة التي تنطوي على خيارات صعبة وتحكّيمات أصعب في الرؤية المعقّدة للهوية.

ولعلّ مناقشته لمقاومة العولمة تعبّر عن مثل هذه التعارضات أو التناقض بشكله الصّريح، فالنظرات «المثالية» بعيدة عن الرؤية الواقعية في مجملها، كالدعوة إلى إجراء المصالحة العربية دون معالجة أسبابها، أو الدعوة إلى تفعيل النّظام الإقليمي العربي دون مراعاة البعد الدّولي ومتغيّراته الكثيرة، وتنشيط الحياة الاقتصادية العربية دون الاعتراف بحقيقة أنّ التبدّلات الاقتصادية غير العربية هي الأقوى من التبدّلات العربية - العربية، وفتح القنوات الثقافية على مصراعيها بين الأقطار العربية بعيداً عن الاختلافات السياسية والإيديولوجية، دون الإقرار بأنّ انتقال الكتاب العربي بين الأقطار العربية دونه أهوال وأهوال على الرّغم من انتشار المعلوماتية والنّشر الإلكتروني والاتّصالات الجبّارة. ويعبّر هذا كلّهُ عن تأزّم التفكير العربي بالهوية مادام مرتيناً لتحكّيمات مسبقة مثل الماضوية أو البعد الديني وحدهما.

ومال دعاة حوار الحضارات إلى تغليب الوسطية على التّلفيقية والتّوفيقية، بوصفها تتجاوز الرّأيين، وتختلف عنهما، ولكن بعد أن يتحاور معهما، وقارب مقام الوسطية عندهم مقام الكمال؛ لأنّها «تجمع بين الطرفين في موقف واضح، وهذا يعني أنّها حوارٌ وموقف، فهي لا تنكفي على ذاتها، ولكنها تتحاور مع

الأطراف الأخرى، حتى ولو كانت مضادة، وهي في الوقت نفسه لا تفقد ذاتها، ولكن تتخذ موقفاً من الأطراف الأخرى، وهذا هو السبيل الحقيقي لحل إشكالية الهوية والعالمية، فالهوية هي الخصوصية التابعة من الموقف، وهي بهذا التعريف تختلف عن التعصب؛ لأنها تمتلك إمكانية الانفتاح على الآخر والحوار معه»^(٢٠).

بينما ركّز الكثيرون على التسلّح بوعي العولمة ونظمها المعرفية، وأن يقوم حوار الحضارات على قوّة الأطراف المتفاعلة وتوازن المصالح بينها، لنفي استبداد الهيمنة، ولاختفاء «الطابع الاستعماري الذي يرافق ثورة المعلومات في مسيرة العولمة. وإذا كانت العولمة قفزاً على حدود الدول والقوميات، سعيّاً إلى ربط البشرية اقتصادياً وسياسياً وثقافياً بمركز قسري خارج حدود الأوطان، فإنّها بذلك ترسخ ثقافة التبعية على حساب تغييب الذاكرة الوطنية، بتفتيت الدور المحلي ليحلّ محله الاتّصال عبر شبكة الإنترنت، وتختزل العملية في مرسل مركزيّ ومستقبل عالمي، بذلك تكون العولمة هي قمة التطوّر الرأسمالي في ظلّ هيمنة دول المركز في ظلّ أمركة النظام العالمي للسوق»^(٢١).

وقد أظهرت دراسات أمريكية ضلوع المخابرات المركزية الأمريكية في استتباع عالم الفنون والآداب لدى الشعوب الأخرى - ومنها العربية والإسلامية - إليها، كما هو الحال مع المؤلفة فرانسيس ستونر سوندرز في كتابها «الحرب الباردة الثقافية»، فعندما سقط حكم الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية، والاتحاد السوفيتي «لم يجد هذا السقوط مقاومة من الجماهير التي كانت تتشرب على مدى أكثر من أربعين عاماً وبالتدريج ثقافة معادية للشيوعية تداعب غرائز التملك والتفرد والتفوق والأنانية، فأثبت هذا في النهاية أنّ تغيير نمط في السلوك والفكر أقوى تأثيراً من تغيير نمط الإنتاج الذي تعوّل عليه الماركسية»^(٢٢).

وتتضاعف أهوال العولمة على العرب والمسلمين كلما تماهت مع وصفها بعولمة القهر عند حالات مجافاة العولمة في غير سياقاتها وعمليات مواجهتها عن وعي لا بنفيها أو رفضها كما أشرنا، بل الإسهام في إنتاجها وإعادة إنتاجها لا مجرد استهلاكها. ويزداد أذاها من الداخل في مرارة انتشار الإرهاب والعنصرية والتزيف، مما يستدعي إصلاح العيوب الذاتية^(٢٣) قبل الشكاوى المتهمة عن طغيان الهيمنة وحدها؛ لأن هذه السياسات تخفف من الأوهام الباطلة بلبوسها الشرعي وغير الشرعي.

وسمّي ذلك الإسهام مشاركة في صنع الثقافة العالمية الجديدة للاندماج في العصر ومحاولة امتصاص المتغيرات والتحوّلات بعقل متغيّر، والمطلوب إذن للخروج من مأزق الهوية وأزمتهما وللدخول في حوار الحضارات النافع «هو خطاب عربيّ جديد نابع من الواقع ذاته، وقائم على الممارسة الفعلية للعربي المعاصر، الآن وهنا، دون خوف أو وجل من ضياع الهوية المفترضة من قبل الصور الثابتة والفردات غير المتغيرة؛ لأنّ مثل هذا الخوف هو الذي يشلّ الذات ويحطّم الهوية، وليس أيّ شيء آخر»^(٢٤).

وانتقدت أطروحات هنتنغتون في صراع الحضارات في الغرب والشرق على حدّ سواء؛ إذ لا يعني الاختلاف بين الإسلام وحضارته والغرب وحضارته سبباً رئيساً للصراع واستمراريته؛ لأنّ حوار الثقافات والأديان في الإسلام يعضد عالميّة الثقافة واحترام الآخر، وأظهر الغرب منذ زمن طويل، لدى الكثيرين، إمكانية الحوار بين الإسلام والغرب، وتعالّت هذه إمكانية في انتعاش المثاقفة المعكوسة على نحو مبكّر في القرن الثامن عشر حتى اليوم، حين اعترف بتأثير الثقافة العربيّة الإسلاميّة على الثقافة الغربيّة، كما تبدّى ذلك في دراسات الاستشراق التي انتظمت فيما بعد في نجاعة الأدب المقارن الذي يقدر مكانة الثقافات الأخرى وخصوصيّاتها، وأبدى نقاد نظرة هنتنغتون النتائج

التالية:

١- إنَّ هتنتغتون لا يؤمن بالتَّعدُّدية الثقافيَّة ولا بالهويَّات المستقلَّة عن الهوية الثقافيَّة الغربيَّة، ويعتبر الثقافَّة الإسلاميَّة على وجه التَّحديد منافسةً ومعاديةً للثقافَّة الغربيَّة.

٢- لا يؤمن هتنتغتون بحقِّ الاختلاف الثقافي، ولا يؤمن بوجود ثقافات كونيَّة بخلاف الثقافَّة الغربيَّة، ولذلك فهو يرفض ادَّعاء الحضارة الإسلاميَّة بالعالميَّة، ويعتبره سبباً للصِّراع مع الحضارة الغربيَّة.

٣- يوجِّه هتنتغتون اللُّوم إلى ثقافته، أو يعتبرها هي سبب الصِّراع الذي يدَّعيه، ولكن يُفهم من كلامه أنَّ أيَّ حضارة تدَّعي العالميَّة، فهي حضارة مضادةً ومعادية للحضارة الغربيَّة، ويجب الوقوف في وجهها ومحاربتها.

٤- يفسِّر كُلَّ صراعٍ مهما صَغُرَ بأنَّه دليلٌ على استمراريَّة الصِّراع، وأنَّ الحرب حربٌ حضاريَّة أزليَّة لا تنتهي إلَّا بنهاية التاريخ.

٥- بهذا يقضي هتنتغتون على كُلِّ الأمل في التَّقريب بين الحضارتين، ويتجاهل التَّقارب الحادث بينهما في الماضي والحاضر.

٦- يياعد بين الحضارتين الإسلاميَّة والغربيَّة، ولا يعترف بدرجة قرابة تسمح بتفادي الصِّراع الحضاري بينهما^(٢٥).

وربط محمَّد ياسر شرف نقده لأطروحة هتنتغتون في صدام الحضارات بضرورة إعادة تنظيم العالم بناءً على تنمية حوار الحضارات؛ نبذاً للإرهاب مهما كانت صفته ومنفذه، وغالباً ما يتلبَّس الدِّين غطاءً له، على أنَّ أحداث سبتمبر «وما تلاها من شتَّى حربٍ دوليَّة على الإرهاب شاركت فيها الدُّول الإسلاميَّة دون استثناء، أظهرت دون شكٍّ على الصَّعيد العملي، أنَّ السِّياسات الدوليَّة في وضع يسمح لها بعزل (الرَّخم الدِّيني) الذي عدَّه هتنتغتون محرِّكاً فاعلاً خلال الفترة الرَّاهنة في الثقافات جميعاً، وبني عليه صدام الحضارات ليحكم أنَّه يشكِّل

وقود الحروب الحضاريّة المقبلة، وأنّه يهدّد الوجود البشري بصورة أو بأخرى»^(٢٦).

وانتقد حال التّفكّك الداخلي في ظلّ النّظام العالمي الواحد، ومنها تفتّت العالم العربي والاتّحاد السّوفييتي، ليبدأ تفتّت جمهوريّاته بعد أن تنفصل وتستقيل، والأفضل على الدّوام هو التّوحد والاندماج السّياسي والاجتماعي والاقتصادي، وليس المكافحة من أجل الاستقلال والانفصال؛ إذ صاراً إلى إضعاف ذاتيّ مروع بسبب هذا التّفكّك الداخلي الذي من شأنه أن يحدث «تفجّرات اجتماعيّة تتخذ أشكالاً يستحيل التنبؤ بها»^(٢٧).

أفادت الآراء والأفكار المطروحة أنّ حوار الحضارات والعملة متقاربان في العصر الحديث بتأثير مالكي سلطة المعرفة والقوّة بأشكالها المتعدّدة من السّلاح إلى المال والاقتصاد، ومن شأن حوار الحضارات أن يقلّل من توجّهات المتحكّمين بالعملة المصلحيّة والمنفعيّة لدى احترام الآخر ونفي السّيطرة عليه.

آفاق تطوّر الحوار الحضاري:

إنّ التّساؤل قائمٌ وضاعظٌ حول قابليّات التّواصل الحضاري بين الأمم والشّعوب، وهو لا يقتصر على العلاقات بين العرب والغرب، بل مع الشّرق الآسيوي، والجنوب الإفريقي والأمريكي اللّاتيني، وقد بات واضحاً أنّ الحوار ثقافيّ بالأساس، وأنّه لا يتحدّد بالدين والإحياء الرّوحي وحده، باعتباره عنصراً من عناصر التّمثيل الثقافي، وأنّ هذا العنصر أو ذاك لا ينقطع عن الثقافات الأخرى، أمّا فاعليّته فتكمن في عدم التّسييس، وجوهر الدّين والإحياء الرّوحي، استناداً إلى القرآن الكريم، أنّ العرب يحلمون بالتّعاون مع الآخر الأوروبيّ وسواه، «وبالتّساند لتؤلّف أمة وسطاً بين الشّرق والغرب، ولتدعم العلاقات السّليمة الكريمة بينهما، ولتنشئ بذاتها سداً منيعاً مفيداً

للحضارة الإنسانية العالمية يمنع بشموخه ومتانته تيارات الطُغيان، ويعدُّ جسراً
لاحباً بين القارّات»^(٢٨).

ويتنامى الحوار الحضاري كلّما احتفى التنوّع الثقافي وتعزّز، وأدخل في
التّمنية المستدامة، وهذا هو السّبيل الأمثل لتشكيل إنسانية لها ظروف حياة
مادية وفكرية وروحية محسّنة، من خلال العمل الإجمالي المشترك الذي يستهدف
الجمهير والنخبة معاً، وتربية الراشدين والصّغار معاً أيضاً، والثّقافة
للجميع^(٢٩)، دون تقييد أو ترهيب، بل الأخذ بالانفتاح والتّسامح والتّعاون
والتّنسّق والتّكامل الذي يبتكر «ممارسة ثقافية متكاملة»^(٣٠).

وينهض ذلك على التّواصل المعرفي الإنساني المنفصم عن استهدافات
العولمة، فتمّة إهمال للثقافة العربيّة والإسلاميّة إلى حدّ القطيعة في بعض البلدان
الأوروبيّة وأمريكا، وهذا ما أوضحه كتاب صالح جواد الطعنة «في العلاقات
الأدبيّة بين العرب والغرب»، وحلّل فيه ألوان التّلقّي الأمريكي للأدب العربي،
وهي شاحبة وباهتة إزاء اهتمام الاستشراق بالعرب والأدب العربي في القرنين
الثامن عشر والتاسع عشر على سبيل المثال، لدى الاعتراف بالثقافة المعكوسة،
كما هو الحال مع الحبّ الفروسي أو شعر التّروبادور ونظريّة أصوله العربيّة^(٣١).
وقد نادى المفكرون العرب بإحياء العلاقات الصّحيّة مع الولايات المتّحدة،
على أنّ العلاقات الأمريكيّة - الإسلاميّة مهمّة لاستقرار الوضع الدّولي،
والمطلوب من الإدارة الأمريكيّة الحائزة بين مدارسها الثلاثة: المعتدلين
والمحافظين التّقليديّين والمحافظين الجدد «أن تتفهّم أهميّة هذه العلاقات
وخطورة تردّيها»^(٣٢).

بينما فعّلت الحضارة الرّوسيّة (والسّوفيّتيّة) والحضارة العربيّة الإسلاميّة
جوهر ما فيهما، وصار إلى تاريخٍ من العلاقات المتبادلة احتراماً للتنوّع الثقافي
وحمايته وانتشاره من «منطلق الإيمان الثّابت بوحدة المجموعة البشريّة، وواجب

التعاضد والالتحام بين أبنائها، وبالاستناد إلى مرجعية القيم والمثل الإنسانية الرفيعة التي بلورتها المنظمة القيمية الجامعة التي تشكّل على مدى طويل عبر عملية تثاقف وتأثر متبادل»^(٣٣).

والشأن الأكثر فائدة هو تفعيل دور المثقف في الحوار الحضاري ضمن تعزيز عمل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية دعماً لمقومات المجتمع المدني الذي يُعَلِّي من شأن سلطة الثقافة على ثقافة السلطة، نحو نفي المكابرة والتعالي والهيمنة والطغيان والجبروت.. الخ.

وتكمن فاعلية هذا الدور في إعلاء مكانة المنظومة القيمية الإنسانية والتقليل من الدعاوى السياسية والتسييس، وثمة دور إيجابي «في مقاومة العنف وفي التفريق بين المقاومة المشروعة والإرهاب المدان، وإرهاب الدولة المسكوت عنه الذي يكتسب شرعيته من القوة ولا شرعية ولا مسوغ له»^(٣٤). وتظهر الأبعاد الاستراتيجية للحوار الثقافي العربي مع الآخر صريحة في معطاته التاريخية ومقارباته الثقافية لحصر تأثيرات العولمة، وطُرحت أمثلة لذلك في ارتقاء علاقات التكامل والتواصل الثقافي العربي - الأيبيروأمريكي، واتفق المثقفون في أمريكا اللاتينية مع المثقفين العرب في ذلك؛ طلباً للإكثار من التبادل البشري والثقافي، وتأسيساً للحوار بين الأجيال القادمة؛ لأنّ تحديات العصر الكثيرة تفرض القدرة على التصوّر، نحو «بذل مزيد من الجهد في التفاهم، وتبادل الخبرات والمعارف، والانفتاح على التنوع الثقافي والديني، وعلى قيم التضامن والتآزر، وهي القيم التي تدفع عملنا، وتمثل ثراء البشرية»^(٣٥).

وقد أقرّ بأهمية التفاعل الثقافي في الحوار الحضاري لنفي التطرّف والعنصرية والجهل والذرائعية، ولا ننسى جوهر الثقافة العربية هو الانفتاح والطابع الشمولي الكوني ودورها التوفيقي، والكلمات المفاتيح في بداية الألفية الثالثة هي «المساهمة في متغيرات هذا العالم ومشاركته في المنظور والتبادل والتّقاسم.

وبفضل عزيمة القويّة وإصرارنا وثباتنا نستطيع أن نجعل حضورنا أكثر نجاعة وأنفع لنا وللجميع»^(٣٦).

واعترف عددٌ من المستعربين والمستشرقين بأنّ حياتهم الغرب - شرقيّة مثل الألمانية (آنا ماري شيمل) التي فازت بالتّكريم وبالعديد من الجوائز في الشرق والغرب بوصفها عالمة وداعية للحوار بين الأديان والحضارات والثقافات. وجاهرت القول بالحكم عليها أنّها ترى الإسلام بصورة رومانتيكيّة، وأجابت، توأصلاً حضاريّاً، بمقولة القديس أوغسطين: «المرء يستطيع أن يفهم شيئاً ما فقط على قدر ما يحبّه»، وهي أحبّت عالم الشرق، وتواصلت مع المسلمين بلغاتهم، وعاشت مع أسرة مسلمة متديّنة، واعتقدت أنّها يمكن أن تفهمهم بعض الشّيء، وهي معرفة إنسانيّة رحبة^(٣٧).

ويفضي ذلك إلى تفاعل الأدب العربي والآداب العالميّة الأخرى، وتناظر التّجارب الحضاريّة الإبداعية التي تنفي مجرّد الاستهلاك الأدبي أو استيراد سياقاته، مثلما تضيء إشكاليّات النّزعات الوجوديّة والقوميّة والإنسانيّة في قابل النّزوعات العنصريّة والمكابرة.. الخ، وبات جليّاً أنّ سلطة المعرفة هي الأقوى، كما في أطروحة فوكو، وعلم اجتماع المعرفة بعد ذلك، ممّا يؤكّد على الحلّ الاجتماعي «لمشكلة العلاقة بين الأنا والآخر»^(٣٨).

ويمتدُّ التّفاعل إلى مجالات التّربية والتّعليم العالي لإدغام أهداف الحوار الحضاري في عمليّات التّنشئة للابتعاد عن «الاستعلاء الثقافي واستنفاص الآخر»، فالترّبية تظلّ «عنصر وقاية ضدّ الانحراف إلى التّعصّب بكلّ أشكاله، ونوعاً من التّطعيم الذي يكون له مفعول على المدى البعيد ضدّ مخاطر السّقوط في التّطرّف والإرهاب»^(٣٩).

والمبدأ الأكثر أهميّة في تفاعل الحوار الحضاري هو إدغامه في التّمية المستدامة كما أشرنا؛ إذ لا تفرق الثقافة عن النّهج السّياسي والاقتصادي في

الممارسة أو التطبيق أو الإجراءات أو التدابير العملية، وقد خففت سورية، على سبيل المثال، في علاقتها مع الاتحاد الأوروبي، بضرورة استكمال البناء الاقتصادي السوري من ناحية، ومراعاة «التطورات التي تحدث ضمن الاتحاد الأوروبي ومشكلات بنائه المعقدة ومدى وجود سياسة أوروبية خارجية موحدة»^(٤٠)، من أجل التقليل من مشقة الجوار ومقاربة التعاون المتوسطي والدولي.

وارتحن حوار الحضارات بتنمية الاقتصاد الوطني بتواصله وتعاونه مع الاقتصاد العالمي، مثلما كشفت عن ذلك ندوة صندوق النقد العربي «العملة وإدارة الاقتصادات الوطنية» (أبو ظبي، ٢٠٠٠)، واتفق المشاركون، على أن تتبنى البلدان العربية في مجال السياسات الاقتصادية إجراءات فاعلة لتحقيق ما يلي:

- تأسيس وتقديم دعم سياسي للسلطات النقدية والرقابية المالية التي تدخل، وتطبق التقاليد والمعايير واللوائح الاحترازية التي تقوّي القدرة التنافسية العالمية للاقتصادات العربية.
- الإدارة الجيدة للدين العام، المحلي والخارجي، ورصد المديونية الخارجية للقطاع الخاص.
- الترويج للاستثمار الأجنبي المباشر كأفضل نمط من التدفقات العالمية لرأس المال.
- توفير إطار عملي، والحوافز للقطاع الخاص ليستثمر ويمول مشاريع تكنولوجيا المعلومات^(٤١).

وصار حوار العرب الحضاري مع الغرب قائماً على الرغم من المعوقات والتحديات القائمة والحاصلة، وأبانه جلياً وصريحاً وفي سبيله للتحقق بيان باريس للحوار الثقافي العربي الأوروبي الصادر عن المؤتمر العربي الأوروبي

للحوار بين الثقافات تحت شعار «مرتكزات التعرف على الآخر من أجل التعايش معاً من منطلق التسامح بين الحضارات والأديان» (باريس ١٥-١٦ / ٧ / ٢٠٠٢). ونادى المؤتمرون في البيان، وعلى أرض الواقع، إلى تعزيز حوار الحضارات، «فهم يعتبرون أن المسعى الحوارى يشكّل الوسيلة الفضلى لوصول الإنسان بالإنسان في مجرى التقريب بين الرؤى واستكشاف سبل التواصل والتفاهم والتعاون بين الشعوب بدعم الجوامع المشتركة بين الثقافات والحضارات، بما يمكن من تجاوز كلّ أشكال الهيمنة والتنميط الأحادي والإقصاء والتهميش، ذلك أن لكلّ ثقافة الحق في الحياة والازدهار والاحترام. لذلك كان الحوار بين الثقافات من أهمّ ضرورات السلم العالمية ومن أول واجبات الحفاظ على تنوع إنتاجات التجربة الإنسانية عبر التاريخ.

وبارك المؤتمرون بادرة الألكسو بإقامة هذا المنبر الحوارى بين الثقافتين العربية والأوروبية، وأكدوا ما لذلك الحوار من أهميّة في إحياء تقاليد تاريخيّة عريقة انتفع بها الجميع أمس على نحو ما يشير إليه في جلاء ما قام بين فلاسفتنا وعلمائنا وأدبائنا من صلاتٍ وثيقةٍ وثقافةٍ حقيقيّة، في زمن تفرض فيه «العولمة» ما تفرض من تحدّيات.

وأنّ نجاعة الحوار الثقافى العربى الأوروبى تقتضى أن يكون المؤتمر منطلقاً لمسيرة حواريّة طويلة النفس تدعمها البلدان العربيّة والأوروبيّة بتكثيف اللقاءات بين المثقفين، وإحداث قنوات الاتصال والتعارف بينهم، وتشجيع الترجمة وتبادل البعثات الدراسيّة والعناية باللّغة العربيّة في أوروبا على غرار ما تلقاه الكثير من اللّغات الأوروبيّة في البلدان العربيّة.

وجدّد المؤتمرون تعلقهم بقيم حقوق الإنسان والحريّات الأساسيّة، ودعوا المجموعة الدوليّة إلى اتّخاذ التدابير الضّروريّة العمليّة العاجلة ليستتبّ سلامٌ عادلٌ شاملٌ في الشرق الأوسط وفي العالم بأسره وفقاً للشّريعة الدوليّة»^(٤٢).

ترتبط آفاق تطوُّر الحوار الحضاري بوعي التَّاريخ والذَّات والآخر للتَّقليل من تأثير العولمة وإدغامها في مسرى الأبعاد الشَّاملة للتَّواصل الحضاري، بأبعاده الإنسانيَّة والأخلاقيَّة إلى جانب الأبعاد السِّياسيَّة والاقتصاديَّة نحو السَّلم والأمن والخلاص من الفوارق الماديَّة والرُّوحية الجائرة والظَّلمة.

* * *

الهوامش:

- (١) أبو يعرب المرزوقي: مقوَّمات الحوار السَّوي بين الحضارات وشروطه، في كتاب «محاضرات في حوار الحضارات» ص: ٥٢، المستشارية الثقافيَّة الإيرانيَّة بدمشق، ٢٠٠١.
- (٢) ماجد شددود: حوار الحضارات، القيادة القوميَّة، دمشق ٢٠٠٢، ص: ٥٢.
- (٣) انطوني كينج (تحرير): الثقافة والعولمة والنَّظام العالمي، ترجمة: عدَّة مترجمين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١، ص: ٢٨-٢٩.
- (٤) عبد المنعم سعيد: صراع الحضارات أو العولمة، مصر- والصَّين في عالم متغيِّر، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢، ص: ٢١٣.
- (٥) الحبيب الجناحي: العولمة والفكر العربيَّ المعاصر، دار الشُّروق، القاهرة ٢٠٠٢، ص: ١٠٩.
- (٦) نور الدِّين الماقي: ملاحظات عامَّة حول أيديولوجيَّة الهوية، في مجلَّة الفصول الأربعة (طرابلس- ليبيا)، العدد ١٠٥-١٠٦، أكتوبر ٢٠٠٣، يناير ٢٠٠٤، ص: ٦١.
- (٧) عبد الفتَّاح علي الرَّشدان: العولمة وأنَّجاهات سيادة الدَّولة القطريَّة في الوطن العربي، في مجلَّة شؤون عربيَّة (القاهرة)، العدد ١٠٧، أيلول ٢٠٠١، ص: ٨٤-٨٥.
- (٨) انظر: عزيز العظمة (العرب والبرابرة - والمسلمون والحضارات الأخرى)، لندن ١٩٩١، وعلي أوَمليل (في شرعيَّة الاختلاف)، الرِّباط ١٩٩١، وخالد زيادة (تطوُّر النَّظرة الإسلاميَّة إلى أوروبا)، بيروت ١٩٨٣، وحسن حنفي (مقدِّمة في علم الإستغراب) القاهرة ١٩٩١، وعدَّة مؤلِّفين (الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى)، الرِّباط ١٩٩٥، ومحمَّد عابد الجابري (مسألة الهوية، العروبة والإسلام... والغرب)، بيروت ١٩٩٥، وحامد زيان غانم زيان (الصَّراع السِّياسي والعسكري بين القوَى الإسلاميَّة - من الحروب الصَّليبيَّة)، القاهرة ١٩٩٣.

- (٩) محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل، صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ص: ٣٧.
- (١٠) إندريس هاني: حوار الحضارات، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ٢٠٠٢، ص: ١٢٨.
- (١١) عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣، ص: ٥٢٩.
- (١٢) أمريكا كاسترو: أسبانيا في تاريخها - المسحيون والمسلمون واليهود، ترجمة علي إبراهيم منوفي، مراجعة حامد أبو أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢، ص: ٧٠٩ و ٧١٣.
- (١٣) أندريه ميكيل: أوروبا في نظر العرب حتى عام ألف، في كتاب (أصواء عربية على أوروبا في القرون الوسطى)، ترجمة عادل عوا، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٣، ١٠٦.
- (١٤) علي حسين الشططاش: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في القرون الوسطى، منشورات مجلس تميمات الإبداع الثقافي - الجماهيرية، طرابلس ٢٠٠٤، ص: ٢٤٣.
- (١٥) محمد مقدادي: أمريكا وهيكل الموت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٤، ص: ١٢.
- (١٦) محمد الأرنؤوط: تعقيب على بحث الدكتور نادية محمود مصطفى، في كتاب (محاضرات في حوار الحضارات)، مصدر سابق، ص: ٢٢٠.
- (١٧) حسين أحمد شحادة: حوار الثقافات وسؤال الهوية الإنسانية، في مجلة المعارف، دمشق السنة ١٤، العدد ٥١، ٢٠٠٤، ص: ١١.
- (١٨) صبري مصطفى البياتي: العروبة بين هوية الإسلام ومستلزمات الإنبعاث، المؤسسة العربية الدولية للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠١، ص: ٣٨.
- (١٩) المصدر السابق: ص: ١٢٧.
- (٢٠) عبد الحميد إبراهيم: الوسطية وحوار الحضارات، في كتاب (العولمة والهوية الثقافية)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨، ص: ١٨١.
- (٢١) مصطفى السعدني: حوار الحضارات وتفاعلها بين الوحدة والتنوع، في المصدر السابق، ص: ٧٦٠.
- (٢٢) عاصم الدسوقي: الولايات المتحدة الأمريكية وتأسيس الثقافة، تقديم الكتاب (الحرب الثقافية الباردة - المخابرات المركزية الأمريكية وعالم الفنون والآداب)، تأليف فرنسيس ستونر سوندرز، ترجمة طلعة الشايب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢، ص: ١٦.

- (٢٣) جلال الأمين: عولمة القهر: الولايات المتحدة والعرب والمسلمين قبل وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٢، ص: ١٤٨.
- (٢٤) تركي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقى، لندن، الط ٢- ٢٠٠١، ص: ٢١٠.
- (٢٥) محمد خليفة حسن: مقدمة لكتاب (الإسلام والغرب وإمكانية الحوار)، تحرير كاي حافظ، ترجمة صلاح محبوب إدريس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠، ص: ٩- ١٠.
- (٢٦) محمد ياسر شرف: إعادة تنظيم العالم، دراسة تحليلية نقدية لأطروحة صامويل هنتغتون في صدام الحضارات، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٤، ص: ٥١٨.
- (٢٧) حليم بركات: الهوية، أزمة الحداثة والوعي التقليدي، دار رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٤، ص: ٣٥٨.
- (٢٨) عبد الكريم اليافي: الدين والاحياء الروحي في الوطن العربي اليوم، دالتها في الحوار الثقافي مع أوروبا الغربية، تباعد أم لقاء؟، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٤، ص: ٤١.
- (٢٩) لويس دوللو: العلاقات الثقافية الدولية، ترجمة بهيج شعبان، مراجعة هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت ١٩٧٤، ص: ١٨٩.
- (٣٠) أضواء عربية على أوروبا في القرون الوسطى، مصدر سابق، ص: ٢٠٩.
- (٣١) صالح جواد الطعمة: في العلاقات الأدبية بين العرب والغرب، النادي الأدبي الثقافي بجدة، جدة ٢٠٠٣.
- (٣٢) محمد عبد العزيز الكواري: المعرفة الناقصة، العرب والغرب في عالم متغير، رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٥، ص: ٧١.
- (٣٣) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الحوار العربي الروسي في القرن الحادي والعشرين، تونس ٢٠٠٤، ص: ١٧.
- (٣٤) علي عقله عرسان: دور المثقف في حوار الحضارات، الحوار العربي الإيرو أمريكي نموذجاً، في كتاب (الحوار الثقافي العربي الإيرو أمريكي) الأليكسو، تونس ٢٠٠٣، ص: ١٥١.
- (٣٥) سونيا منديتيا دي بادارو: آفاق الحوار الحضاري والثقافي العربي الأمريكي، في كتاب (الحوار الثقافي العربي الإيرو أمريكي)، المصدر السابق، ص: ٣٧٢.
- (٣٦) الهادي البكوش: بين التفاعل والصراع والحوار، في كتاب (حوار الحضارات والتضامن العربي)، جمعية البرلمانيين التونسيين، تونس ٢٠٠٢، ص: ٩١.
- (٣٧) آنا ماري شيمل: الشرق والغرب، حياتي الغرب - شرقية، ترجمة عبد السلام جبور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤، ص: ٤٤٩.

- (٣٨) صبري حافظ: تناظر التجارب الحضارية وتفاعل الرؤى الإبداعية وأنماط الكتابة العربية في العصر الحديث، في (المجلة العربية للثقافة)، تونس، السنة ٢٠، العدد ٤٠، آذار ٢٠٠١، ص: ٢٢.
- (٣٩) المنجي بو سنيّة: مرتكزات أساسية لحوار حقيقي بين الحضارات، في المجلة (العربية للثقافة)، السنة ٢١، العدد ٤٢، تونس آذار ٢٠٠٢، ص: ١٢٣.
- (٤٠) صالح الراشد: سورية والاتحاد الأوروبي، المتوسطة ومشقة الحوار، دار الصديق، دمشق ٢٠٠٥، ص: ١٩٣.
- (٤١) علي محمد توفيق الصادق، وعلي أحمد البطل (تحرير): العولمة وإدارة الاقتصادات الوطنية، أبو ظبي ٢٠٠٠، ص: ٣٠-٣١.
- (٤٢) الحوار الثقافي العربي الأوروبي: متطلباته وآفاقه، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ٢٠٠٢، ص: ٤١٢-٤١٣.

دور الإسلام الحمدي الأصيل في مواجهة النزعة القبلية والطغيان السياسي

□ الأستاذ: نبيل علي صالح (*)

واجه أئمة أهل البيت عليهم السلام مشروع «الدولة - القبيلة» التي مثلتها زعامات الحكم الإسلامي المنحرف بالفكر والعمل.. وحاولوا جاهدين أن ينجزوا الكثير من الأعمال الخيرة والمفيدة للأمة على مستوى ضرورة الحفاظ على نقاوة وأصالة الطرح الإسلامي في ذهنية كتلته الشعبية على الأقل، وتثقيفها بمبادئه الإنسانية، والتركيز الدائم على ثوابته وخطوطه العامة.

لقد مثل الأئمة عليهم السلام مشروع «الدولة - الأمة» القائمة على معايير ومبادئ إسلامية إنسانية من حق وحرية وعدل ومساواة..، والتي تستجيب لحاجات عامة الناس - حتى أولئك الذين يمثلون الحلقة الأضعف من أفراد المجتمع - وتحقق العدالة فيما بينهم، وتؤكد المبدأ الإسلامي القاضي بضرورة نصر المستضعفين والمظلومين، والوقوف إلى جانب قضاياهم ومشاكلهم الاجتماعية والسياسية العادلة، وتبني خيار خدمتهم وتوعيتهم وتثقيفهم، وتوفير كافة متطلبات واحتياجات وجودهم الإنساني بما يضمن تحقيق غاية الخلق وعلة

(*) كاتب وباحث سوري.

الوجود.

لكنّ الذي حدث في تاريخنا الإسلامي - منذ العهود الأولى لبداية صعود وانتشار الإسلام - هو طغيان ظاهرة القبليّة، وانتشارها من قَمّة الدّولة إلى معظم مواقع وأرجاء المجتمع والأُمّة الإسلاميّة.. الأمر الذي أدّى بالتّدرّج - ومع مرور الأيام - إلى اتّساع رقعة ومساحة خطّ وعقليّة ونهج الانحراف الخطير عن تجربة الإسلام التّغييري، وابتعاد الأُمّة عن القيام بواجباتها والتّزاماتها الرّساليّة تجاه نفسها وتجاه الآخرين، وعجزها عن إيجاد حلّ لمجمل التّناقضات والتّوترات الاجتماعيّة والسّياسيّة التي تعمّقت في داخل الأُمّة نتيجة الفهم الجاهلي والقبلي لقيم الإسلام الأصيل، ووصلت الحالة إلى مستوى عجز الدّولة الحديثة عن تلبية الحدّ الأدنى من حاجات الأُمّة ومصالحها الحيويّة.

لقد قامت «الدّولة - القبيلة» - التي أسّستها روح القهر والطّغيان في عالمنا الإسلامي ممثّلةً بحكام وزعامات الانحراف والظّلم السّياسي والاجتماعي والثّقافي المستمرين حتّى هذه اللّحظة - بتحقيق وتجسيد المنجزات (العظيمة؟؟؟) التّالية:

١ - إحداث قطيعةٍ شبه كاملةٍ بين الدّولة والمجتمع، بين الحكم وزعاماته ومؤسّساته وبين المجتمع بأفراده ونخبه وتياراته ومستوياته المتعددة، الأمر الذي حوّل الدّولة العربيّة عموماً إلى مجرد دولة مزرعةٍ خاصّةٍ بالنّخبّة الحاكمة، ومن يدور في فلكها من شخصيّات وأحزاب ومنتفعين ومصنفين ومطلّبين... ممّا خلق الحواجز والعوائق المختلفة أمام الدّولة كقاعدةٍ للتّنظيم السّياسي والاجتماعي، ومنعها من التّحوّل العملي إلى دولة المواطن المدنيّة والحكم الصّالح الذي يقوم على العدل في الحكم، ومبدأ تكافؤ الفرص، والمساواة أمام القانون، وتوفير شروط ومناخات العمل الاقتصادي والسّياسي الصّحيح لجميع النّاس بما يفسح أمامهم الاختيارات العمليّة للبناء والتّعمير الأرضي...

أي: أنها دولة منفصلة كلياً عن المجتمع المهتمش والمدمر، وبعيدة كل البعد عن المجتمع المقصي والمستبعد كلياً عن ساحة الفعل والإبداع الحضاري، أي: عن تقرير مصيره بيده.. وهنا يصح القول أنها دولة ضد المجتمع وضد الأمة كما عبر الدكتور برهان غليون^(١).

والدليل على ذلك: انتشار مظاهر الفساد السياسي والاقتصادي والأخلاقي والديني الواسع في مجتمعاتنا العربية والإسلامية الحديثة نتيجة انسداد الآفاق، ونفاذ الطاقات، وتعاضم المشاكل، واشتداد التوترات، واستعار الانتفاضات، وضعف إمكانيات التقدّم والتراكم، الأمر الذي أدّى إلى استمرار وبقاء الأزمة وتوالدها المستمر هنا وهناك، وتنامي آلية العنف والعنف المضاد التي تقوم - إذا ما تتبعنا منابعها الحقيقية - في انسداد النظام السياسي القائم، ورفض النخب الحاكمة المسيطرة التخلي عن أي جزء من السلطة المطلقة التي يتمتعون بها، والاعتراف بأن السلطة ليست حكرًا أبدًا على فئة أو طبقة أو نخبة، وليست ملكية خاصة.. لتكون النتيجة المنطقية لكل ما تقدّم هو وقوعنا تحت ظلّ العوالم المختلفة، واستتباعنا للآخر، ودوراننا في فلك القوى والأمم والحضارات الأقوى.

٢- عجز الدولة العربية عن إقامة علاقات قانونية متوازنة مع مختلف قطاعات ومواقع المجتمع والشعب المهتمش والموجود خارج دائرة السلطة، باعتبارها دولة قهرية غير قانونية في كامل مواقعها حيال أكثرية مواطنيها.

وقد قاد هذا النزوع السلطوي المجنون للنخبة الحاكمة - في استمراريتها على رأس الحكم وتحكمها بمفاصل القرار - إلى تزايد الرغبة الشعبية في تدمير النظام القائم، بعد أن يتلاشى أو يموت كلياً الأمل في إصلاحه، أو العمل على إيجاد حلول ناجعة (لأزماته) من داخله.

كل ذلك كان نتيجة تفاقم حالة الاستبعاد والتهميش المنظم للشعب

والجماهير، في عدم منحها فرص وحقوق المشاركة في الحكم واتخاذ القرار.

٣- مزيد من الانكسارات، والهزائم السياسية والاقتصادية والاجتماعية [فساد التخطيط السياسي العام والخاص، وعقم الممارسة السياسية العملية، وسوء استخدام العمل الإداري اليومي (تفشي الفساد السياسي والإداري والاقتصادي)، وبناء حادثة شمولية ديكتاتورية غير عقلانية وطفيلية ومستهلكة غير قادرة على النمو أو الإنتاج أو التزايد العلمي المدروس].

٤- نزع السياسة بالقوة والعنف المادي والرمزي من المجتمع؛ حيث إن السياسة فاعلية اجتماعية ومجتمعية حرة، ومجال عمومي للمجتمع.. وهي أحد أرقى الأشكال التنظيمية التي توصل إليه الإنسان لوحدة المجتمع وضمان استمراريته وتطوره وارتقائه الوجودي، الأمر الذي أدى إلى تغييب قسري كامل ومقصود لدور المجتمع والجماهير الواسعة في عملية التداول السلمي الحر للسلطة، وممارسة السياسة، والتعبير عن الرأي (أي: انعدام الحريات العامة).

٥- تحميل الشعب كامل المسؤولية عن أي فشل سياسي وتنموي حدث أو قد يحدث في المجتمع بالرغم من تقييده وتغييبه عن ساحة القرار أساساً.

٦- ضمان أمن النخب السياسية بأي أسلوب وطريقة.. والحفاظ على استقرارها وثباتها في مراكزها ومناصبها العليا..

والمعروف واقعياً وتاريخياً أن تلك النخب السلطوية التسلطية الحاكمة يمكن أن تعتمد - لكي تضمن بقاءها واستمرار نموذجها السلبي التسلطي على البلاد والعباد - إلى شن حروب أهلية كامنة، بل وأحياناً حروب أهلية صريحة، ضد مواطنيها بواسطة أجهزة العنف المختلفة وما أكثرها (العسكر، أجهزة الأمن، الحزب الحاكم المهيمن بأجهزته الإكراهية المادية والنفسية، النقابات...)؛ حيث تمتلك كل منها أجهزتها العنيفة، بصلاحياتها الواسعة الخاصة بها، والتي تمارس عبرها الرقابة على مجمل نشاطات المجتمع والناس من

دون أن تخضع هي نفسها لأي رقابة أو محاسبة أو مساءلة حكومية أو سياسية بأي شكل من الأشكال^(٢).

٧- مواجهة أي تغيير سياسي أو ثقافي يمكن أن يفكر فيه أبناء الأمة ونخبها المفكرة، بقوة الحديد والنار والمعتقلات والقتل الفردي أو الجماعي؛ لأن المترفين - وهم الطبقة الحزبية القبلية العشائرية التقليدية المحافظة، مالية وعسكرية وأمنية مهيمنة على واقع المجتمع والناس سياسياً واجتماعياً واقتصادياً - لا يرغبون مطلقاً بتغيير الواقع من حولهم في أي جانب من الجوانب؛ لأن مبدأ التغيير السياسي والفكري إذا اخترق بنية المجتمع الظالم فإنه سوف يؤدي إلى تدمير ونسف كثير من البنى والأسس التي يركز عليها هؤلاء في فرض هيمنتهم وتسلطهم واستبدادهم، وتحكمهم بالبلاد والعباد.

لذلك نجد أن الطبقات السياسية المسيطرة والحاكمة في أي مجتمع تعمل على تجميد هذا المجتمع، وترفض أن ينفذ التغيير إلى داخله؛ لأنهم يشعرون أنه إذا ما اهتزت بعض القواعد في المجتمع - على مستوى القيم أو الفكر - فربما تقوم هناك ثورة تنسف كل القواعد التي يركزون عليها في تضليل الناس، وتريف وعيهم وإبعادهم - طوعاً أو كرهاً - عن ضرورة التغيير الصحيح والحقيقي المأمول والمنتظر في المجتمع، وبالتالي إبقاء هذا المجتمع رهينة للسكون والجمود والتخلف الدائم حفاظاً على مصالحهم ومنافعهم المادية الخاصة.

وقد كان لصعود المجتمع العسكري العربي^(٣) بعد الاستقلال مباشرة، وتوليّه مقاليد الحكم في معظم البلاد العربية ما عدا دول الخليج، كان من أهم الأسباب التي أدت إلى فشل الوطنية بعد الاستقلال الوطني، إضافة إلى عدم وجود نخب سياسية واعية وقادرة على إدارة دفة الحكم في البلاد إدارة سليمة وناجحة، نتيجة لتخلف العالم العربي في أثناء نيل دوله الاستقلال الوطني. وما زال العالم العربي يعاني حتى الآن فقدان النخب العربية السياسية ذات الشفافية ونظافة

اليد، والمؤهلة للحكم النزيه.

ومن هنا نرى أنّ تنامي المؤسسة العسكرية كقوة سياسية، تبرز عندما يزداد ضعف القوى السياسية المدنية، وتزكم رائحة الفساد السياسي للأحزاب والنخب السياسية الأنوف. وهذا ما حصل في معظم بلدان العالم العربي عشية الاستقلال الوطني ورحيل الاستعمار وقيام الحكومات الوطنية. وقد سبق أن قال محمد حسنين هيكل في هذا المجال: «إنه في الظروف التي تميز صراع الطبقات في البلدان المختلفة، ونظراً لشعور الجماهير الشعبية واعتقادها بأن القيادات الحاكمة لا تمثل سوى مصالح متناقضة بطبيعتها مع مصالح الجماهير، لا تستطيع الحركة الثورية الشعبية إلا الاعتماد على الجيش لتشق طريق الثورة. وفي نظر العسكريين الذين يميلون إلى الاستئثار بالسلطة، على الجيش أن يبقى القوة الأساسية في السلطة»^(٤).

والسؤال الآن: ما هي خصائص المجتمع العربي الذي حكمته المؤسسات العسكرية؟

كما هو معروف تولّت المؤسسة العسكرية الحكم في كثير من البلدان العربية بعد الاستقلال، وبعد انسحاب جيوش الاستعمار الأجنبي منها، وقام ضباط هذه المؤسسة بخلع خوذاتهم، ولبس الملابس المدنية. ولكنّ العقل العسكري بقي مسيطراً على سلوكهم وأفكارهم من دون أن يحلّ محله عقل مدنيّ يؤمن بالمجتمع المدني ومؤسساته القائمة على الحوار والتعددية والنقد وقبول الآخر. وقد لاحظنا وجود مثل هذا النمط من الحكم مسيطراً في عدد من الدول العربية والإسلامية. وإذا ما قمنا بالنظر الدقيق والشامل على هذه البلدان لرأينا أنّ النتائج لم تكن حسنة في هذه البلدان نتيجة لخصائص وصفات المجتمعات العربية التي حكمتها المؤسسة العسكرية ومنها:

١ - ضعف الطبقة المتوسطة وضعف قواها المدنية وأحزابها بسبب حادثة

عهد المجتمع العربي بالظاهرة الحزبية، ثم بسبب غياب المؤسسات الاجتماعية الحديثة والمنظمة.

٢- فساد الحياة السياسية الليبرالية في مصر في الثلاثينيات والأربعينيات، وهشاشة التجربة الليبرالية في سورية، وعدم وجود حياة سياسية ليبرالية في بقية البلدان العربية ما عدا لبنان، مما لم يوفر للطبقة الوسطى دوراً سياسياً يناسب حجمها. وعندما توفر هذا الحجم لم يتوفر من خلال المجتمع والأحزاب ولكنه توفر من خلال سلطة الدولة.

٣- عدم احترام المؤسسة العسكرية للمؤسسة السياسية، بحيث أصبحت المؤسسة العسكرية هي التي تدير المؤسسة السياسية وليس العكس كما هو الحال في الدول الديمقراطية.

٤- فشل المؤسسة السياسية في ملء الفراغ السياسي وانتشار الفساد الإداري والمالي في هذه المؤسسة، وهو ما يُعبّر عنه بـ «تصدّع بنية النخبة المدنية الحاكمة، بما يترتب عليه الهبوط بمستوى الفعالية النظامية إلى أدنى مستوى، وبالتالي نفاذ صبر الجماهير واستنفار القوى السياسية والاجتماعية، ووضع المجتمع كُله على شفا الفوضى والعنف»^(٥).

٥- استمرار وجود وتلاحق الأزمات الاقتصادية كنتيجة طبيعية لحالة الفساد السياسي المسيطرة، وارتفاع نسبة العاطلين عن العمل، وإخفاق معظم الخطط الاقتصادية التي وضعها السياسيون لتنظيم مختلف شؤون الدولة والمجتمع.

بناءً على ما تقدم نسأل: كيف يمكن مواجهة تلك القبليات والعصبيات السياسية والعسكرية التي لا تزال تعمل على استيلاد شروط ومناخات جديدة للتكثيف مع متغيرات الواقع من أجل الحفاظ على مكاسبها ومواقعها؟! وكيف يمكن خلق الأجواء المجتمعية المناسبة للقوى الحية في المجتمع للتعامل مع تلك

الذهنيات البدائية المتجبرة - التي تفكر دائماً بكيفية المحافظة على شرعيتها المفقودة جماهيرياً - من أجل إحداث التغيير النوعي الممكن بأقل الأعباء والتكاليف والأثمان، ومن دون الدخول في حروبٍ ودماءٍ جديدة؛ حيث إنّ مجتمعاتنا لا ينقصها ضحايا وأبرياء جدد، فمشاهد الاقتال والدماء والقتل الطاغية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية تكفي لنوزع منها على العالم أجمع؟! وكيف نضمن بناء المجتمع المدني العربي والإسلامي، ولولوج القرن المقبل بطموحاتٍ سياسيةٍ وفكريةٍ جديدةٍ تعبّر عن آمال المجتمع في النهوض الحضاري؟! وإلى أين يتحرك مستقبل الأجيال القادمة؟!

إنني أعتقد - إتماماً للحديث السابق - أنّ الذي يعيق المسيرة عن التّقدّم، ويقف في وجه حدوث كلّ تلك الطّموحات والآمال في ولوج العالم العربي والإسلامي العصر الحديث علمياً وحضارياً وتقنياً، هو:

١ - طبيعة الأنماط الثقافية والفكرية السائدة والمهيمنة على مجتمعاتنا ودولنا، والتي تتركّس في ذهن النّاس والمجتمع ثقافةً أحاديةً مغلقةً ومنكمشةً وغير قادرةٍ على الانفتاح والتّكيف مع قيم ومستجدات الحياة والعصر.. وهذه الثقافة - المدعومة والمكرّسة من قبل النّخب والسّلطات القائمة - تقدّم لنا الهوية الإسلامية بصورة هويةٍ تاريخيةٍ وعقائديةٍ تشكّلت تاريخياً وتكوّنت عقائدياً منذ بداية الدّعوة والرّسالة، وهي غير قابلةٍ للتّجدّد، ومن غير الممكن إعادة فهمها أو موضعها أودراستها، أو مجرّد الحديث بشأنها.. فقد جاءت الهوية وتشكّلت وانتهت وأغلق عليها باب الزّمان والمكان.. وما قيل حولها قد قيل، وليس هناك من إمكانية لإعادة البحث والتأمّل فيها..

٢ - نوعية الآليات والسياسات والاستراتيجيات العملية التي طبّقتها - ولا تزال تصرّ على تطبيقها - الحكومات العربية (صاحبة عقلية القبيلة) التي تعكس مصالح خاصة لنخبة فاقدة لمصداقيتها وشرعيتها في الشارع العام، انعزلت عن

الجهاهير، وانغلقت على تعقيداتها وهمومها وامتيازاتها، ولا تفكر مطلقاً بهوموم الناس، وحاجات المجتمع إلا بالحد الأدنى الذي تحافظ من خلاله على وجودها على رأس السلطة، ولا تعطي أي اهتمام بمستقبل مجتمعاتها وكوادرها العلمية النوعية العاطلة عن العمل، والمغنية عن ساحة التأثير والفعل الإبداعي، ومحاولة تأمين فرص العمل لأجيال الأمة القادمة، بقدر ما تفكر وتهتم بضمان الأمن، واستتباب المواقع، وثبات الأحوال على ما هي عليه.

إنَّ النُّخب القبلية الحديثة التي حكمت ولا تزال تحكم وتتحكم في مجتمعاتنا العربية والإسلامية عموماً - في سياق محاربتها للتغيير الاجتماعي، ومحاولات تشييد البنى الأساسية لإقامة مجتمع متطور ودولة مؤسسات - تقف بقوة في وجه أي عامل تقدّم علمي أو تقني، وتمنعه من النفاذ أو الدخول إلى المجتمعات إذا كان يمكن أن يشتم من دخوله أية رائحة للتغيير، أو نفس بسيط لقلب الأوضاع، ومن أي نوع كان، إن في العقلية أو السلوك أو التوازنات الاجتماعية أو السياسية..

ولأنَّ منع التغيير وضمان أمن النُّخب الحاكمة واستقرارها يؤدي - لآماله وفي كل المجتمعات - إلى فسادها .. ولأنَّ فساد تلك النُّخب يدفع إلى تهتقر أحوال الناس - وتدهور معيشتهم ويثير النقمة على النظام - صارت الحياة العمومية العربية رهينة للصراع الخفي (وأحياناً العلني) بين الطبقات والفئات الاجتماعية المتضررة والمختنقة الساعية بأي ثمن للتغيير والضاغطة بشدة على النظام، وبين أصحاب السلطة الذين يضطرون إلى تكريس قسم أكبر من الموارد والوسائل المادية والمالية والبشرية لحماية النظام وفرض الاستقرار ومنع القلاقل.. وهكذا لم يبق هناك - في معظم البلاد العربية والإسلامية - أي هامش للاستثمار في الحاضر والمستقبل..

من هذا المنطلق فإنَّ الأمل بحدوث تقدّم علمي وصناعي في هذه

المجتمعات مرهونٌ ليس فقط بمدى قدرتنا الفكرية والعملية على الاستجابة الفاعلة لتطورات الحياة والزمن، وإنّما مرهون أيضاً - وبشكل أساسي - بضرورة إحداث تغييرات هائلة على صعيد الفكر والحكم والسلطة والمشاركة والحرية.. لأننا لن نستفيد من أيّ تطوّر علميٍّ يمكن أن توفره الحضارة الحديثة إلّا إذا ساهمنا وشاركنا في إنتاجه وإبداعه.. ومن باب أولى فهمه ووعيه.

ونحن لا يمكن أن نظوّر العلم ونتج منجزاته الحديثة مع وجود واتّساع قاعدة عقلية القبيلة والعسكريتاريا المتحكّمة بوجودنا، والتي يعمل أصحابها على تدمير أيّ فرصة لربط - مجرد ربط - البلاد العربية والإسلامية بتيارات التقدّم العلمي والتطوّر التقني.. بل - على العكس من ذلك - إنّها تعمل على ترسيخ كيائها الذّاتي، وحفظ بقاء نظم مبنية على مفاهيم القمع والضّبط والردع عبر تمويل ودعم احتياجاتها الأمنية من خلال نهب أموال الشعب، وسرقة مختلف ثروات الأُمّة النّفطية وغير النّفطية..

والمجتمعات العربية بالنتيجة هي التي تدفع التكاليف والأثمان الباهظة لتلك السياسات الفاشلة للنّظم السياسية العقيمة والضّعيفة الأفق التي تقوم على تعقيم الإنسان، وشلّ قدراته، وسحق طاقاته، والتي ليس لها مبرر وجود سوى خدمة مصالح الفئات والطّبقات التي تسيطر عليها.

إنّنا نتصوّر أنّ غياب السياسة الصحيحة وغياب الإدارة السياسية الملتزمة هما تعبيران عن غياب المصلحة في الإصلاح لا غياب القدرة أو الإمكانية عليه.. ومصدر ذلك هو أنّ المنطق المحرّك لهذه النّظم ليس النّفع العام، ولكن الحفاظ على النّظام، وعلى المصالح الخاصة التي تقف وراءه^(٦).

إنّنا نعتقد أنّه عندما تفشل الدّولة في كسب ثقة أفرادها ومواطنيها، ومدّ جسور التعاون معهم، والعمل المستمر على تحقيق مصالحهم وطموحاتهم وتطلعاتهم من خلال اعتماد مشروع استنهاض سياسي واجتماعي يعبر عن

آمالهم وعن نسيجهم العقائدي والتاريخي، ويحفّزهم للمشاركة الشاملة في عملية التنمية الفردية والجماعية.

أقول: إنّ عدم تحقيق كلّ تلك الآمال التي تتناقض مع مصالح النخبة السياسية الحاكمة العاملة على أهداف ذاتية معاكسة تماماً لأهداف الجماهير^(٧) سيحوّل الدولة - عندما نعمل على ترسيخ شعاراتها ووجودها - إلى مجموعة إقطاعات ومافيات حقيقية لها أفرادها وأزلامها الدائرين في فلكها، وعندئذ تطفو على السطح ظاهرة جديدة هي ظاهرة التشبيح السياسي والاجتماعي التي لها دعائمها ورموزها الذين يعملون على تحويل الدولة إلى مجموعة مزارع واستثمارات ربحية نفعية خاصة.

أجل لقد حولت أنظمتنا السياسية - التي سيطرت على مقاليد الحكم - الدولة إلى فريسة سهلة متهاكة، ونقلت الاستثمار الخاص بالدولة من نطاقه الطبيعي الاجتماعي إلى نطاق الاستثمار الخاص في المراكمة للثروة الشخصية، وحولت بناء الجماعات والتكتلات الحية إلى تجديد لعلاقات السخرة والعبودية، وتكوين رأس المال العلمي والتقني إلى دعايات فظة وغليظة لعقائد جوهرها تقديس الذات، وعبادة الشخصية الحاكمة، وتحقيق الاندماج العربي الضروري إلى استهلاكٍ ممجوجٍ لعقيدة قومية مخشبة توظّف لترسيخ القطيعة بين البلدان بدل تشجيعها على الانفتاح على بعضها^(٨).

إنني كمثقفٍ عربيّ - لا يملك سوى سلطته المعنوية، ويعتز بانتائه إلى الدائرة العربية والإسلامية، ويعمل على استنهاض أفراد المجتمع كلّهم - أحمل مسؤولية ما حصل ويحصل من دمار وخراب وانهايار^(٩)، وبالنتيجة ما يحصل من طغيانٍ سياسي، وتحلّل اجتماعي، وسوء توزيع الثروة في بلادنا إلى:

١ - الأحزاب السياسية الحاكمة والمقررة سلفاً لسياسات وخطط البلاد وأحوال العباد .

٢- البيروقراطية «العسكرية - المدنية» الفاسدة والمفسدة، والتي تخدم النُخب والأحزاب السياسية الحاكمة، وتشارك معها في حركة المصالح والمنافع، وتتقاسم معها مواقع السُلطة المدنيّة والأمنيّة.

٣- طبقة رجال الأعمال الكبار والمستثمرين الاقتصاديين ورجال المافيات التي تتحكّم بمفاصل القرار الاقتصادي، ومنافذ الرّأس المال الوطني كلّ. إن هؤلاء جميعاً - بعقليّاتهم القبليّة وذهنيّاتهم العنصريّة المصلحية - هم الذين يتحمّلون المسؤوليّة الحقيقيّة الكاملة عن عمليّة الفساد والإفساد الحاصلة والجارية على قدمٍ وساقٍ في كلّ مواقع العمل والحركة في بلادنا.. لماذا؟! لأنّهم يمتلكون سلطة الدولة وقوّة القرار السياسي والاجتماعي والأمني والاقتصادي، وتتوافر بين أيديهم جميعاً وسائل العمل اليومي العمومي الرئيسيّة وإمكانيّاته الماليّة والإداريّة والعسكريّة.

حقيقة: لقد أصبح سفهاء الأُمّة، وأشرارها الولاة والقائمين بالأعمال كما عبّر عن ذلك أصدق تعبير الإمام علي عليه السلام: «ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأُمّة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصّالحين حرباً، والفاسقين حزباً؛ فإنّ منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجُلِدَ حدّاً في الإسلام.. وإنّ منهم من لم يسلم حتى رُضِخت له على الإسلام الرّضائع»^(١٠).

إنني لا أستطيع أن ألوم المثقّف أو الشعب بالمقدار ذاته الذي ينبغي أن تُلام فيه السُلطات الحاكمة؛ لأنّ من لا يشارك (ولا يمتلك أصلاً) سلطة تقرير النّفقات العامة لميزانيّة الدولة، واستثماراتها الاقتصاديّة، وإدارة المعارك الحربيّة (مع من؟!).. ومن لا يمتلك سلطة محاسبة رجال الأعمال الذين يهرّبون مليارات الدّولارات نحو الأسواق الخارجيّة.. ومن لا يمتلك سلطة وقف الفساد الواسع والعريض والهدر المقصود الكبير في الميزانيات العامة عندنا (هذه الميزانيات المخصّصة فقط لبناء العمارات الفارهة، وإنشاء الشّركات والمشاريع

الاستهلاكية الضخمة، وتبذير الثروات العامة على طريق الشهوات والغرائز) لا يصح مطلقاً أن نسأله عن الخسائر والهزائم فيها، الناتجة عن سوء إدارتها. إنَّ المسؤولية تتجلى في أعلى تعبيراتها من خلال درجة السلطة التي يمتلكها الفرد صاحب المسؤولية أو الفريق المنتمي إليه؛ لأنَّ المسؤولية ليست تهمّة لأفراد المجتمع وليست تلبساً للناس.. وإنما هي نقدٌ ومساءلةٌ لصاحب المسؤولية عن كيفية ممارسته لسلطته، واستخدامه لها.

لذلك إنني أنصح أولئك الذين يكيلون الاتهامات للشعب والمثقفين (المحرومين من أبسط حقوق الحياة الكريمة) بأنهم المسؤولون عن أزمات المجتمع وفساد الدولة بأن يعملوا على مساءلة ومحاسبة أصحاب القرار، والسلطة الحقيقية في النظام السياسي العربي الذي تغيب عنه أية مظاهر لدولة القانون المدني الذي يُلغي الرّأي الآخر العام، ويحرم الناس من قول الحقيقة، ويواجه المجتمع بسلاح الأمن والترهيب، ويمنع المثقف من حرية التفكير، والتعبير، والنشر..

نعم هناك كثيرٌ من المثقفين والسلطويين الانتهازيين الذين تحوّلوا إلى بوق للسلطان، ورأس حربة لأفكاره وطموحاته الشخصية.. لكن الثقافة عموماً يجب ألا تلام، وبقية المثقفين يجب عدم رميهم وقذفهم والتشهير بهم على المنابر هنا وهناك..

إنَّ هؤلاء جميعاً محاربون حتى في سلطتهم المعنوية التي امتلكوا ناصيتها بقوة فكرهم ووعيتهم.. وهناك مثقفون معروفون بعمق التزامهم بخطّ الأمة والجهاهير.. ويؤمنون بوجود الأمة العربية الإسلامية، ويسعون إلى تجاوز خلافاتها ونزاعاتها وأمراضها الداخلية.

إنَّ مسؤولية المثقف تكمن في تسليح الرّأي العام بالأدوات النظرية والعملية، وبالوعي الرّسالي الذي يجعل استقرار النّظم - التي تقود إلى الفساد،

وسرقة أموال الدولة والمجتمع، والاستهتار بالمصالح العامة - أمراً مستحيلاً.. ولا يجب أن يشتغل المثقف الجماهيري الملتزم إلا بأن يبنى الوعي الفعّال لدى أفراد الأمة لمواجهة وإسقاط العقليات القبلية التي تسببت في تفشيل التنمية والتّقدّم، وقامت بتثبيت الأمن والاستقرار (استقرار بعض الدول عندنا يشبه وجود النار تحت الرماد)، وأهدرت موارد ومقدرات الدولة في مشاريع تنموية خاصة.

كما يجب تعميق الشعور العالي بالمسؤولية الرسالية لدى الأمة تجاه الإسلام وقيمه ومبادئه، وتصحيح المفاهيم الخاطئة المتداولة عن السلطة وتوزيع الثروة والأموال، والمساهمة الفعّالة في تمكين الأمة من ممارسة حقّ النقض البناء، ومواجهة محاولات تزييف الوعي الفعّال بالحياة والواقع.

من هنا - وفي إطار الإجابة عن الأسئلة المطروحة سابقاً - أرى أنّ الخلل الكائن والقائم في مجتمعنا العربي والإسلامي هو في البنية السياسية العربية المستغلّة للدين وليس الدين.. وفي هذه السلطة القمعية التي عملت خلال الخمسين سنة الأخيرة على فرض رؤية أحادية للدين والتّفكير الديني في أذهان الناس، ثمّ انطلقت لتحاسب الشعب عن هذه الرؤية التي كوّنتها هي عن الدين، ما يعني أنّ تحقيق الشّروط الأولى لعملية التّقدّم والتّجديد ليس مرهوناً بتهديم البنى التقليديّة (الدينية تحديداً) في المجتمع.

والدليل على ذلك أنّ حادثتنا العسكرية والمدنية قد هدمت - باسم العلمانية - كلّ الرّكائز والمؤسسات التقليديّة التي كانت قائمة في المجتمع، وصار الفرد يقف وحيداً أمام السلطة الفرديّة المطلقة^(١١)، ولا يجزو أحدٌ على منازعتها سلطانها: فماذا كانت النتيجة؟!

كانت أنّ التّحديث والحداثة والتّقدّم قد فشل في المجتمع العربي والإسلامي على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بعد أن أنتج لدينا مجتمعاً أهلياً

متخلفاً تمّ تركيبه من قبل أجهزة الدولة العربيّة المستوردة الحديثة.

أنّنا يجب أن نعمل - بكلّ إصرارٍ وتصميمٍ وضمن إمكانياتنا المتواضعة - على تنظيف دواخلنا من عناصر التّخلف، وتحطيم هيكله الذي نقبع في ظله، وإجراء تغييرٍ جذريٍّ شاملٍ كأفراد، وفي مجتمعاتنا كنظام علاقات، وأسس تعامل، وتوزيع قوى، وطرائق معينة في الحياة، وفي المعيشة والتّفكير بهدف بناء المجتمع الذي تسوده قوانين موضوعيّة تطبّق على الجميع..

- مجتمعٌ يركّز على العقل والمنطق والعلم في إدارته ومؤسّساته المدنية..

- مجتمعٌ يكفّ مثقفوه وأبناؤه عن البحث عن مثالٍ وحيدٍ للحرية والعمل السياسي والاجتماعي، يصلح للتعميم على الأمم كلها..

- مجتمعٌ يسعى إلى أن نؤمن عملياً بفكرة الحوار والاعتراف بالأخطاء، وتحمل بعضها البعض..

- مجتمعٌ يفتح على الإسلام الواعي والعقلاني.

من خلال ذلك أرى أنّ مستقبلنا هو رهنٌ لفعّلنا وبذرنا الرّاهن، إنّه ثمرة أعمالنا وحصاد ما نزرعه في لحظتنا الحاضرة التي يجب أن نعمل فيها على تغيير أوضاعنا، وتحسين مواقعنا، ومضاعفة جهودنا ودورنا في العالم، وتكثيف مساهمتنا في المسيرة الإنسانية العالمية، وانفتاحنا على الآخرين ليكون لنا نصيبٌ وموقعٌ ودورٌ إيجابيٌّ فعّال بين أمم وحضارة العالم، وذلك بالارتكاز - كما أكّدنا على ذلك في السابق - إلى معايير الوعي والإبداع الفكري والعمل، والاهتمام الجدي المسؤول بنسيجها التاريخي الحيّ (أي: الإسلام الأصيل المنفتح) باعتباره البوتقة الشّاملة لثقافة الأُمّة ككلّ، وأساس طموحها وعاطفتها وفكرها الذي يجب أن نجتهد فيه، ونشتغل عليه من أجل بناء ثقافة الحوار والانفتاح والتّواصل مع بعضنا، ومن ثمّ مع الآخرين، وإنشاء النّظام السياسي الديمقراطي المنفتح الخاص بهذه الثقافة الذي يمكن له أن يقلّص الفرق والثّغرة

الكائنة بين الحلم السياسي المعلق في سماء الرسالة (ما يجب أن يكون) وبين الفعل السياسي الأرضي (ما هو كائن) الجاثم بقوة على صدر الإنسان.

* * *

الهوامش:

(١) د. برهان غليون، في الدولة الحديثة القطرية والقومية، وعناصر نقدها. صحيفة الحياة اللندنية، ٢٨ / ٨ / ١٩٩٧ م.

(٢) توفيق المدني، المجتمع المدني والدولة السياسية في الوطن العربي: ٨٠٥، اتحاد الكتاب العرب، دمشق - سوريا، ١٩٩٧ م.

(٣) يرى كل من أندرو جودباستر وصموئيل هيتنتون، أن المؤسسة العسكرية في العالم كله قد أخذت بالصعود خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وهو زمن الاستقلال في العالم العربي الذي بدأ في الأربعينيات (سوريا ولبنان) وانتهى في ١٩٧٠ (الإمارات العربية المتحدة)، نتيجة لأسباب كثيرة على رأسها: ظهور تغير كيميائي وكمي هائل في وظائف المؤسسة العسكرية؛ حيث أصبحت المؤسسة العسكرية أداة سياسية لمنع انتشار الحروب على مدى واسع، والقيام بإنهاء الصراعات الإقليمية، إضافة لذلك ظهور ظاهرة العسكرية (Militarization) في المجتمع العربي. وهي عملية توسيع نطاق المؤسسة العسكرية داخل المجتمع، ووجود توجه عام في الدولة، وفي مؤسسات المجتمع المدني تعتبر الحرب والاستعداد لها نشاطاً مجتمعياً طبيعياً ومرغوباً فيه. ويميل بعض الباحثين كصموئيل هيتنتون إلى القول إن للمجتمع العسكري ضرورات وظيفية للقيام بها في مجتمعات بلدان العالم الثالث خاصة. وهي ضرورات لا تستطيع الإدارة المدنية القيام بها؛ لعدم تأهلها الإداري والعلمي. وأن المؤسسة العسكرية أقدر من أي مؤسسة أخرى على القيام ببناء المجتمعات في دول العالم الثالث.. ومن الملاحظ أن هيتنتون يبنّي مقولته من خلال واقع المؤسسات العسكرية في الغرب وخاصة في أمريكا. وهي المؤسسات التي تعتبر من أكبر وأكثر مؤسسات الدولة تنظيماً وعلماً ودربة وخبرة في مختلف المجالات.

(٤) راجع صحيفة الأهرام، ٢٧ / ٧ / ١٩٦٢.

(٥) راجع: مجدي حماد، العسكريون العرب وقضية الوحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٧٨.

- (٦) د. برهان غليون، مجلة المستقبل العربي، ص: ٢٨.
- (٧) إنّ ما نراه اليوم من أعمال وسلوكيات ظالمة للنخبة السياسية الحاكمة في مجتمعاتنا هو نتاج واستمرار وتكريس لمعادلة حيوية قامت منذ أمد بعيد، واشترك في صناعتها الاستعمار مع القوى والتيارات المتخاذلة والمستسلمة التي كانت - ولا تزال - حاكمة في مجتمعاتنا.
- (٨) د. غليون: حقيقة الحداثة وإعاققتها، أو الغدر بوعودها، صحيفة الحياة اللندنية، ٢٩/٨/١٩٩٧.
- (٩) تشكّل كثيرٌ من الحركات والنخب الإسلامية المعارضة بقوةً للوضع الاجتماعي القائم في الدول العربية الإسلامية - تعبيراً واقعياً عن حالة الكفر بالتوجهات والنظريات، والعقائد والسياسات والنظم التي تم تطبيقها على مدار عقود طويلة من الزمن، والتي كانت وراء تحويل شعار الحرية إلى غطاءٍ وستارٍ لتعظيم القهر، والغلبة، وسحق الفرد، وقتل مواهبه وطاقاته، وجعل الدولة الحديثة وسيلة لتعميم ظاهرة العنف والقمع والسيطرة البوليسية، وتوظيف الوطنية في خدمة الاستبداد والوصولية الانتهازية.
- (١٠) نهج البلاغة، من كتاب له إلى أهل مصر - (٦٢)، صفحة: ١٤٥، نسخة المعجم المفهرست، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤١٥، قم.
- (١١) عملت أنظمتنا السياسية الاستبدادية - ولا تزال تعمل - على تدمير الشخصية الإنسانية، وتسفيه أحلام الناس، وتحطيم كبريائهم، وإجبارهم على التخلّي عن حرمانهم، وكراماتهم، وانتهاهم من أجل أن يحيا الجسد فقط (جسد هذا النظام الظالم أو ذاك).

الغزو الحضاري للعالم الإسلامي في عصر التطور التكنولوجي

□ الشيخ محمد مهدي الأمشي (*)

لقد كان القرن العشرين المنصرم قرن التَّحدّيات الصَّعبة للعالم الإسلامي من دون شكّ.

فقد تعرّضت في هذا القرن ثروات المسلمين الطَّبيعيَّة لغاراتٍ اقتصادية وعسكريَّة وسياسيَّة من قبل الغرب، ولكن كان أشدها هو الغزو الثقافي والحضاري للعالم الإسلامي.

وقد شهد القرن المنصرم أقسى مشاهد الغزو الحضاري على العالم الإسلامي بآليات متطورة ومتقدّمة مثل الصَّحافة، والإذاعة، والتلفزيون، والجامعات، والسَّينما، والكتاب، وبأساليب وشعاراتٍ رقيقة، مثل: الحداثة والتَّجديد والتطوير والتَّحرير. وقد استهدف هذا الغزو الحضاري ثقافتنا وقيمنا بشكلٍ كامل... وإذا فقدت الأُمَّة - في صراعٍ من هذا القبيل - ثقافتها وقيمها، فقدت كلّ أصالتها الحضاريَّة، وأصبحت حالةً عائمةً في مسار التَّاريخ، ليس لها أيّ تأثيرٍ وفعلٍ في حركة التَّاريخ، ولا تملك المناعة التي تحفظها من الأمراض

(*) عالم دين، ومفكّر إسلامي كبير.

الحضارية. وهي من أخطر ما يصيب الأمة في التاريخ على الإطلاق. والغزو الذي تعرّض له العالم الإسلامي كان يؤدي إلى مثل هذه النتائج الخطيرة لولا رحمة الله.

وقد فقدنا في هذه المعركة الكثير من أصالتنا، حتّى تحوّلت شرائح من مجتمعنا وأمتنا إلى نسخة رديئة الاستنساخ من الغرب. وكانت المعركة شرسة وضارية بيننا وبين الغرب، وقد وقف إلى جانب الغرب فيها حكام وملوك ورؤساء، مثل كمال أتاتورك في تركيا، وأسرة بهلوي في إيران، وأمان الله خان في أفغانستان، ومفكرون ومنظرون وأدباء مثل طه حسين، وقاسم أمين، وسلامة موسى، ومؤسسات ثقافية، وصحف، ومجلات.

توظيف الآليات الحديثة في هذه المعركة

واستخدم الغرب في هذه المعركة أحدث الآليات وأكثرها تطوّراً، فاستخدم فيها العلم والفنّ والأدب والإعلام، بل العنف والإرهاب أيضاً، في موقع لا ينفع العلم والفنّ والأدب.

وكان آخر هذه الوسائل الآليات الفضائية المتطورة مثل القنوات التلفزيونية الفضائية وشبكات الإنترنت العالمية. وهي أخطر الآليات الحديثة التي ساهمت في هذا الغزو الحضاري إلى اليوم، وهي ذات قدرة واسعة وكبيرة، وبإمكانها أن تُحدث الحرائق الأخلاقية والثقافية والحضارية الواسعة داخل بيوتنا وأسرنا، وبسرعة ومساحة قياسية.

وبإمكان هذه الآليات أن تتجاوز كلّ الحواجز الثقافية والحضارية من دون جهد يذكر.

أرأيتم كيف تتجاز الصّواريخ في ميادين القتال الحواجز الطبيعية والهندسية، وميادين الألغام والخطوط الأمامية والخلفية، والمدفعية، وتحدث الانفجار

والتَّخريب والحرائق داخل البيوت والمدن والمؤسسات... كذلك الآليات الفضائية الحديثة؛ فإنَّ بإمكانها أنْ تُدخل أبشع الانتهاكات الأخلاقية والثقافية إلى عُقر بيوتنا وأسرنا، وإلى تراثنا وقيمنا وثقافتنا وأخلاقنا من دون أيِّ جُهدٍ أو إشكالٍ يُذكر.

ومعنى ذلك أنَّنا نتعرَّض اليوم لهجومٍ حضاريٍّ شرسٍ يستهدف ثقافتنا وأخلاقنا بصورةٍ واسعةٍ، كما تتعرَّض اليوم المدن الآمنة لغاراتٍ صاروخيةٍ مُحمَّلة بالرووس الجرثومية والكيميائية الذرية.

أين كانت ساحة الصِّراع؟

نحن نعلم أنَّنا في حالة صراعٍ شرسٍ مع الغرب، ونعلم أنَّ الصِّراع هي قضية الإنسان في كُلِّ القرون والعصور، ونعلم أنَّ التاريخ هو الصِّراع، والقرن الَّذي يخلو من الصِّراع يبقى على هامش التاريخ ولا يدخل التاريخ. ونعلم أنَّ للصِّراع متطلِّباتٍ واستحقاقاتٍ وضريبة، وضريبة الصِّراع صعبة. كُلُّ هذا نعرفه، إلَّا أنَّ الكرة هذا المرَّة كانت في ساحتنا كما يقول لاعبو الكرة، وكانت بيوتنا عورةً وعوائلنا وثقافتنا وقيمنا وأخلاقنا هدفاً مباشراً للعدو، من دون أيِّ حاجزٍ وعائق، وكان العدوُّ يقاتلنا في داخل بيوتنا، وكُنَّا نواجهه ونقاتله من موقع الدِّفاع عن أنفسنا وعوائلنا، وموقع الدِّفاع على كُلِّ حال موقعٌ ضعيفٌ بالقياس إلى الهجوم، وهذه حقيقةٌ مرَّةً من وقائع القرن العشرين الَّذي مضى بحوادثه المرَّة، ونرجو ألاَّ تعود إلينا هذه الأحداث في القرن الجديد. لقد كان الصِّراع والقتال بين حضارتنا والحضارة المادية الشرقيَّة والغربيَّة يجري في ساحتنا وداخل بيوتنا.

الاستشراق والتَّغريب

وإذا أمعنا النَّظر في الدِّراسات الاستشراقية التي اهتمَّ بها الغربيُّون خلال

القرن العشرين، ثمَّ حالة التَّغريب التي تمكَّنت من المسلمين خلال هذا القرن عرفنا عمقَ المأساة الحضاريَّة التي حلَّت بنا في القرن العشرين. لقد دخل العدوُّ معاقلنا الحضاريَّة وبيوتنا عن معرفةٍ وفهم. لقد قرأ كلُّ شيءٍ عن تاريخنا وعقائدنا وقيمنا وثقافتنا خلال الدِّراسات الاستشراقية... وهذا هو (الاستشراق)، ووضعنا نحن أعرافنا وقيمنا وثقافتنا وحتى لغتنا ونظام بيوتنا ومجتمعاتنا تحت تصرّفهم وأخذنا منهم الثقافة، والقيم والأخلاق، والأعراف، وهذا هو (التَّغريب).

إذن، كان الصِّراع يجري في ساحة حياتنا، وليس في ساحتهم. ولو كان الصِّراع يجري في ساحتهم لانعكس الحال، ونهضنا نحن بالدِّراسات (الاستغرابية)، وخضعوا هم لـ (التَّشريق). ولو كان الصِّراع كراً وفراً، كما هو العادة في الصِّراع المتكافئ، لكانت المكاسب والانتكاسات والهزائم موزعةً على الطرفين، ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يحدث، وكان نصيبنا في هذه المعركة الحضاريَّة الهزائم النَّفسية وحالة التَّعويم الحضاري.

وأصبحت ثقافتنا وتراثنا وأعرافنا وعوائلنا هدفاً مباشراً للعدوِّ.. لم يسلم منها إلا ما سلَّم الله، وأصبح أبنائنا يتلقَّون منهم أعرافهم وتقاليدهم وثقافتهم، وحتى الزيَّ الَّذي يلبسونه، والحرف الَّذي يكتبونه، والمصطلحات التي يصطلحون عليها، وذلك عن طريق الإذاعة والصحافة والأفلام، وأخيراً القنوات الفضائية المفتوحة على بلادنا.

الفاصل الحضاري بين الحضارتين

والفاصل الحضاري فاصلٌ شاسعٌ بين الحضارتين فيما يتلقَّاه أبنائنا وبناتنا داخل أسرهم ومساجدهم ونواديهن من الأعراف والتقاليد والثقافة وما يتلقونه

من الأعراف والتقاليد والثقافات من القنوات الفضائية من تحلل وسقوط وابتذال واستهتار بالقيم.

إنَّ حركةً خفيفةً على أزرار التلفاز تكفي لينتقل أبناؤنا وبناتنا من أجواء القرآن وحبِّ النَّبِيِّ ﷺ وأهل بيته ﷺ والعفاف والحجاب والحياء إلى أجواء أخرى تختلف عن هذه الأجواء بالكلية، وتكون (١٨٠) درجة بالاتجاه المعاكس تماماً.

وهذه الفاصلة الشاسعة بين القرآن والدُّعاء، ومشاهد التحلل والفساد على شاشة التلفاز يقطعها أولادنا وبناتنا في كُلِّ يومٍ عدّة مرّات، وبشكلٍ سريع.

سقوط المناعة

والنتيجة الطّبيعية لذلك هي انتهاك الحرمات في نفوس أبنائنا وبناتنا، فلا تبقى في نفوسهم وأذهانهم حرمةٌ لقيمةٍ من القيم.. وهذه الحالة هي ما نُعبر عنها اليوم بـ (سقوط المناعة). وعندما يفقد الشّباب المناعة الثقافيّة والحضاريّة يتعرّضون بصورةٍ واسعةٍ للعاهات والأمراض الحضاريّة والانحرافات الخلقية والثقافية والسلوكية.

وعندئذٍ تتساقط القيم الحضاريّة من حياة المجتمع، وهذا الذي حدث بالفعل في حياتنا الحضاريّة المعاصرة، لولا رحمة الله وستره.

الجسور التي تصل الحاضر بالماضي

وإذا عرفنا خطر (التّعويم الحضاري) في حياتنا الثقافيّة المعاصرة نعرف كيف نواجه هذا الخطر المقبل علينا من ناحية الغرب. إنَّ علاج حالة التّعويم هي بإعادة الجسور بيننا وبين الماضي.. ومن خلال هذه الجسور يتوارث جيلنا ثقافة الوحي وقيمه، وأعرافنا وأخلاقنا، ونستعيد أصالتنا الثقافيّة والحضاريّة.

والجسور التي تربط حاضرننا بالماضي ثلاثة:

الأسرة. المدرسة. المسجد.

وهذه الجسور الثلاثة قلاعٌ تحمي حاضرننا، وتحصّننا من الزحف الحضاري والثقافي للغرب.

وتمتلك هذه الحصون من المقاومة الشّيء الكثير، وأكثرها مقاومةً وصلابةً مقابل زحف الحضارة الغربيّة هو المسجد، فعندما تصدّع بنيان الأسرة، وتعرّضت المدرسة للغزو الحضاري والثقافي، بقي المسجد يقاوم التيار الثقافي القادم علينا من الغرب، وقد سلم الدّين احتموا ببيوت الله من تأثير إعصار السّموم المقبلة علينا من الغرب.

بين الثقافة والعلم

إنّ أمر الثقافة أمرٌ خطير في حياتنا، فليس من بأسٍ علينا أن نأخذ العلم من أيّ مصدرٍ وأيّ يد، ولكن ما لا يصحّ ولا يجوز أن نأخذ الثقافة من غير مصدر الوعي والقنوات التي توصلنا بالوحي.

إنّ العلم لا دور له في بناء شخصيّة الإنسان وعقله ونفسه وروحه، وليس للعلم خطابٌ بهذا الاتجاه. ويحمل العلم ناسٌ صالحون، كما يحمل العلم آخرون غير صالحين. فليس للفيزياء والكيمياء والطّب والصّيادلة والجراحة والرياضيات واللغة والنحو خطابٌ إلى الإنسان في أمر تقويم سلوكه إطلاقاً، وهذا هو شأن العلم.. بخلاف الأخلاق والعرفان والتّوحيد والفقه والقرآن والدّعاء.. فإنّ لها خطاباً موجّهاً إلى الإنسان لتقويم سلوكه، وهذه هي المعرفة والثقافة. وكما أنّ هناك معرفةً وثقافةً ربانيّة تدعو الإنسان إلى الله، كذلك هناك معرفة وثقافة جاهليّة تدعو الإنسان إلى السّقوط إلى عالم الحيوان والتردّي في الأهواء والشّهوات، ولها خطابٌ بالاتّجاه المعاكس للخطاب الأوّل.. وهذه هي

الثقافات الجاهليّة في مقابل الثقافة الرّبانيّة.

ولنا أن نأخذ العلم من أيّ يد، ومن أيّ مكانٍ ومن أيّ مصدر، حتّى من خصومنا وأعدائنا؛ فإنّ العلم قوّة، ولا بدّ أن يتسلّح الإنسان المسلم بالقوّة ويتسلّمها وإن كانت من يد خصمه وعدوّه.. ولكن ليس لنا أن نأخذ الثقافة إلّا من مصدر الوحي والقنوت التي تُفضي إلى مصدر الوحي. فإنّ الثقافة التي جاء بها الوحي هي الثقافة الوحيدة التي تنجي الإنسان وتنقذه من السقوط والهلاك، وما عدا ذلك من الثقافات سقوطٌ وهلاكٌ وتردّيٌ وجاهليّة. وهذه الثقافة الرّبانيّة التي نعرفها في القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ وأهل بيته عليه السلام هي التي تحصّنتنا تجاه الأهواء والشّهوات وفتن السّراء والضّراء والانحرافات الفكرية والثقافية.

إنّ في قراءة القرآن، واللّجوء إلى الله في الصّلاة والدّعاء، وفي معارف الإسلام، وهدى القرآن، وهدى رسول الله ﷺ وأهل بيته تحصيناً وبناءً لشخصيّة هذا الجيل، وإذا تحصّن هذا الجيل بهذه الثقافة الرّبانيّة لا يكاد يضرّه بعد ذلك شيءٌ من عوامل التّخريب في حياتنا الحضاريّة والثقافية.

أسأل الله أن يأخذ بأيدي ناشئتنا والجيل الصّاعد من أبنائنا وبناتنا في مواجهة هذا التّحدّي الصّعب، ويبارك في جهود المؤمنين المخلصين من أبناء هذا الأمّة الذين يضعون كلّ إمكاناتهم وراحتهم وخبراتهم تحت تصرّف هذا الجيل ليعينوه على بناء نفسه وعقله على هدى الله ورسوله.

* * *

(٢)

أويس القرني

حين يولد الزُّهْدُ شهيداً

□ الشيخ محمد قبيسي (*)

كثيرٌ مَنْ يأتون إلى هذه الدُّنيا ويروحون دون أن يتركوا خلفهم أثراً، كأنْ لم يكونوا، وقلةٌ قليلةٌ يبقون ما بقي الدَّهر^(١)، ما يزال ذكرهم يضجُّ في المحافل، وسيرتهم قدوةٌ للأنام، أسوةٌ للمؤمنين وذكرى للذاكرين، أولئك الذين أخلصوا لله فأثابهم الله وأكرمهم بأفضل حلل الكرامة، «صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً تِجَارَةً مَرْبِحَةً يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا وَ أَسَرَّتْهُمْ فَقَدُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا»^(٢)، ومن هؤلاء العبد الصالح والولي الناصح، أويس بن عامر القرني المرادي، المعروف بـ (أويس القرني).

أحد الزُّهاد الثَّمانية وأفضلهم، ومن خيار التَّابعين، وواحد من حواربي أمير المؤمنين عليه السلام، كان مشهوراً بالزُّهد والعزلة، ومن المنقطعين للعبادة والتَّهجد، من كبار أولياء الله تعالى، وقد تربَّى وتعلَّم على يديَّ عليٍّ عليه السلام، هو وجمعٌ من الزُّهاد وأهل المعرفة من أمثال كميل بن زياد وميثم التمار ورشيد الهجري،

(*) باحث إسلامي / لبنان.

ويعتبر هؤلاء من المنابع الأصلية للعرفان من بين العرفاء الإسلاميين، ويعتبر البعض الآخر منهم المصادر الرئيسية والأولية لعلم الفقه والكلام والتفسير وقراءة القرآن وغيرها^(٣)، حتى نشأت فرق من الصوفية تسمى بالأويسية تنسب نفسها إليه رضوان الله عليه.

لم يكن معروفاً بين الناس حتى أخبر عنه برواية عن رسول الله ﷺ وكشفت منزلته الرفيعة، فصار المسلمون إذا ما رأوا أويساً استبشروا به وتبركوا به، وكانوا يحرصون على الفوز بدعاء منه، ولو بكلمة (غفر الله لك)، وقد حاول الخلفاء أن يتقربوا إليه، ولكنه هرب منهم، وفُضِّل أن يعيش مغموراً مع الفقراء، ولما عُرف في الكوفة واشتهر بها تركها إلى جهة مجهولة، وتوارى حتى قام عليٌّ عليه السلام بالخلافة، وشهد معه الجمل ثم صفين^(٤)، واستشهد في سنة سبع وثلاثين بين يديه^(٥).

الهوية الشخصية

قال الذهبي: «هو القدوة الزاهد، سيد التابعين في زمانه: أبو عمرو، أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي اليماني. وقرن بطن من مراد... وقد كان من أولياء الله المتقين ومن عباده المخلصين»^(٦)، وكان صاحبه هرم بن حيان أعبد العرب.

وقد غلط الجوهري في نسبته إلى قرن المنازل كما حكاه كثير من العلماء، والصحيح: أنه ينسب إلى قرن، قبيلة من العرب^(٧).

صفته

رجلٌ لحيمٌ آدمٌ شديدُ الأدمة، أشعثٌ مخلوقُ الرأسٍ مهيب المنظر^(٨). وجاء في وصف جبرئيل عليه السلام له للنبي ﷺ: رجلٌ أصهبٌ مقرونٌ الحاجبين،

أدعج العينين، بكفه اليسرى وضح أبيض^(٩).

وفي رواية أخرى: أشهل، ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، آدم شديد الأدمة، ضاربٌ بذقنه على صدره، رامٌ ببصره إلى موضع سجوده، واضحٌ يمينه على شماله، يتلو القرآن، يبكي على نفسه، ذو طمرين، لا يؤبه له، يتزَّر بإزار صوف، ورداء صوف، مجهولٌ في أهل الأرض، معروفٌ في السماء، لو أقسم على الله لأبره، ألا وإنَّ تحت منكبه الأيسر لمعةً بيضاء، ألا وإنَّه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد: ادخلوا الجنة، ويقال لأويس: قف فاشفع، فيشفعه الله في مثل عدد ربيعة ومضر^(١٠).

وصفاته هذه هي صفات أهل الجنة، كما أخبر رسول الله ﷺ حين سأل أبا ذر: «يا أبا ذر ألا أخبرك بأهل الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: كُلُّ أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه به، لو أقسم على الله لأبره»^(١١).

أصله من اليمن، ثم هاجر وسكن الكوفة، لم يذكر لنا التاريخ شيئاً عن نشأته وحياته إلا القليل، أدرك زمن النبي ﷺ ولم يره، آمن به في الغياب ولم يدرك صحبته، منعه من القدوم عليه برُّ أمه؛ حيث رُوي أنَّه ذات يوم استأذن من أمه أن يذهب إلى زيارة النبي ﷺ، فأذنته، لكن إنَّ لم يكن النبي ﷺ في بيته، فلا يتوقَّف ويرجع معجلاً، فلما ذهب إلى زيارته ولم يكن في البيت رجع إلى اليمن، فلما أتى ﷺ إلى بيته رأى نوراً لم ير مثله، فسأل أنه هل أتى في درب البيت أحد؟ فأجيب: جاء أحدٌ من اليمن اسمه أويس، فحياً وذهب. فقال ﷺ: نعم هذا نور أويس، جعله هديةً في بيتنا^(١٢).

كان شغله رعي الجمال وأخذ الأجرة، وكان أهله ظنوا أنه مجنون، فبنوا له بيتاً على باب دارهم، فكان يأتي عليه السنة والسنتان لا يرون له وجهاً، وكان طعامه مما يلقط من النوى، فإذا أمسى باعه لإفطاره، وإن أصاب حشفةً خبأها لإفطاره^(١٣)، وما أشبهه بوصف أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين: «.. وَأَمَّا النَّهَارُ،

فَحَلَمَاءُ عُلَمَاءِ أَتْرَازٍ أَتَقِيَاءُ، قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بَرِّي الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ
فَيَحْسِبُهُمْ مَرَضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ لَقَدْ حَوْلَطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ
عَظِيمٌ...»^(١٤).

روي أن نقش خاتمه: (كن على حذرٍ من الله)^(١٥).

مقامه وفضله

وقد جاء في فضله ومقامه عند الله الشيء الكثير، منها ما روي عن
رسول الله ﷺ: «خليلي من هذه الأمة أويس القرني»^(١٦).

وعن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين
حواري محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه؟
فيقوم سلمان والمقداد وأبو ذر. قال: ثم ينادي أين حواري علي بن أبي طالب
وصي محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ؟ فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي ومحمد
بن أبي بكر وميثم بن يحيى التمار مولى بني أسد وأويس القرني...»^(١٧).

وعن جابر الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «شهد مع علي بن أبي
طالب عليه السلام من التابعين ثلاثة نفر بصفين، شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ولم
يرهم: أويس القرني، وزيد بن صوحان العبدي، وجندب الخير الأزدي رحمة
الله عليهم»^(١٨).

وعن رسول الله ﷺ: «نفوح روائح الجنة من قبل قرن، وا شوقاه إليك يا
أويس القرني، ألا ومن لقيه فليقرئه عني السلام. ف قيل: يا رسول الله، ومن
أويس القرني؟ قال ﷺ: إنه إن غاب عنكم لم تفقدوه، وإن ظهر لكم لم تكثرثوا
به، يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر، يؤمن بي وما رأي، ويقتل بين يدي
خليفتي أمير المؤمنين عليه السلام في صفين بعد أن يقاتل»^(١٩).

عنه أيضاً عليه السلام قال: «ليشفعن رجلٌ من أمتي في أكثر من مضر، قال أبو بكر:

يا رسول الله، إِنَّ تَمِيماً من مضر، قال: ليشفعن رجل من أمتي لأكثر من تميم ومن مضر، وإنَّه أويس القرني»^(٢٠).

وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»^(٢١).

وفي تاريخ دمشق: «شهد مع علي بن أبي طالب في حربه من أصحاب بدر سبعون رجلاً، وشهد معه مَن بايع تحت الشجرة سبع مائة رجل فيما لا يحصى من أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد معه من التابعين ثلاثة، بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ شهد لهم بالجنة: أويس القرني وزيد بن صوحان وجندب الخير، فأما أويس القرني فقتل في الرّجالة يوم صفين، وأما زيد بن صوحان فقتل يوم الجمل...»^(٢٢).

كيف اشتهر في الناس؟

في الحديث القدسي: «أولياي تحت قبابي لا يعرفهم غيري»^(٢٣)، وفي حديث رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله ﷻ كتم ثلاثة في ثلاثة: كتم رضاه في طاعته، وكتم سخطه في معصيته، وكتم وليه في خلقه، فلا يستخف أحدكم شيئاً من الطاعات فإنه لا يدري في أيها رضا الله تعالى، ولا يستقلن أحدكم شيئاً من المعاصي فإنه لا يدري في أيها سخط الله، ولا يزرين أحدكم بأحد من خلقه فإنه لا يدري أيهم ولي الله»^(٢٤).

وهذه هي حال أويس رضي الله عنه، ما عُرف مقامه وما انكشف له سرٌّ؛ لأنَّه من أهل الله، وأهل الله لا يسعون إلى شهرة ولا إلى جاهٍ ولا منصبٍ، فهم وقفوا على حقيقة الدنيا وعرفوا حقارتها ودناءتها، فنزهوا أنفسهم عنها، وطهروا قلوبهم من أدرانها، واستجابوا لنداء إمام المتقين عليه السلام: «أَلَا حُرِّيدَعُ هَذِهِ اللَّمَاطَةُ لِأَهْلِهَا، إِنَّهُ لَيْسَ لَأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةُ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهِ»^(٢٥).

ولكن يأبى الله لعباده المخلصين إلا العزة والرّفعة في الدُّنيا قبل الآخرة، فعن الصادق عليه السلام: «ما من عبد يُسرّ خيراً إلا لم تذهب الأيام حتى يظهر الله تعالى له خيراً، وما من عبد يسرّ شراً إلا لم تذهب الأيام حتى يظهر له شراً»^(٢٦).
 وكان رسول الله ﷺ قد أخبر النَّاسَ بخبره كما مرّ؛ لذلك كان الخليفة الثاني يجهد في البحث عنه حتى وجده، وهكذا انتشر خبره بين المسلمين، قال ابن عساكر: «نادى عمر بن الخطاب وهو على المنبر بمنى: يا أهل قرن فقام مشايخ، فقالوا نحن يا أمير المؤمنين، قال: أفي قرن من اسمه أويس؟ فقال شيخ: يا أمير المؤمنين ليس فينا من اسمه أويس إلا مجنونٌ يسكن القفار والرّمال، لا يَأْلَف ولا يؤلّف، فقال: ذاك الذي أعنيه، إذا عدتم إلى قرن فاطلبوه وبلّغوه سلامي، وقولوا له إنّ النّبي ﷺ بشّرني بك، وأمرني أن أقرأ عليك سلامه، فعادوا إلى قرن فطلبوه فوجدوه في الرّمال، فأبلغوه سلام عمر وسلام النّبي ﷺ، فقال: عرّفني أمير المؤمنين وشهّر باسمي! السّلام على رسول الله ﷺ، وهام على وجهه...»^(٢٧).

جهاده

قال رسول الله ﷺ: «أشرف الموت قتل الشهادة»^(٢٨)، «وأول من يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»^(٢٩).
 وعن عبد الله بن مسعود قال: «سألت النّبي ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله ﷻ؟ قال: الصّلاة لوقتها، قلت: ثمّ أيّ شيء؟ قال: برّ الوالدين: قلت: ثمّ أيّ شيء؟ قال: الجهاد في سبيل الله ﷻ»^(٣٠).
 وها هو أويس عليه الرّحمة لا يتوانى عن إجابة صوت الحق، وبذل النفس في مرضاة الله سبحانه إذا ما جدّ الجدد، فهو يعرف حقّ المعرفة أنّ الجهاد ركنُ الإسلام وعزُّ الأُمّة وشرفها، فسارع بالالتحاق بجيش أمير المؤمنين عليه السلام في

حرب الجمل، حيث كتب النصر والفتح، ثُمَّ في صفين، حيث نال وسام العزّ والشهادة والفخر، ولم يمنعه زهده وتقشفه وإعراضه عن الدنيا عن القيام بواجب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يفعل بعض الجهلة المتنسكين المتظاهرين بالقداسة، عندما يصوّرون الدّين وكأنّه عبادة واعتزال للنّاس والمجتمع فحسب، وفاتهم أنّ نصره الله والرّسول والإمام من أعظم الواجبات، وأنّ مقارنة الظلم والجور أفضل الطّاعات والعبادات، وعلى كلّ حالٍ فلم يكن هذا الأمر ليخفى على أويس وأمثال أويس بمن اتقوا الله وأخلصوا له، فأثابهم وهداهم وأنار بصائرهم، وبين لهم الحق من الباطل، وعرفهم طريق الهدى، وحاشا لله أن يترك من اعتصم به دون أن يهديه سبل النّجاة، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

روى ابن عباس رضي الله عنهما عنه أنّ علياً عليه السلام قال - وهو جالس لأخذ البيعة في حرب الجمل -: «يأتيكم من قبل الكوفة ألف رجل، لا يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً، يبايعوني على الموت، قال ابن عباس: فجزعت لذلك، وخفت أن ينقص القوم عن العدد أو يزيدوا عليه فيفسد الأمر علينا، ولم أزل مهموماً دأبي إحصاء القوم، حتى ورد أوائلهم، فجعلت أحصيهم فاستوفيت عددهم تسعمائة رجل وتسعة وتسعين رجلاً، ثُمَّ انقطع مجئ القوم، فقلت: إنّ الله وإنا إليه راجعون، ماذا حمله على ما قال؟! فبينما أنا مفكّر في ذلك إذ رأيتُ شخصاً قد أقبل، حتى دنا فإذا هو راجلٌ عليه قباء صوف معه سيفه وترسه وإداوته، ف قرب من أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له: امدد يدك أبياعك، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: وعلام تبايعني؟ قال: على السّمع والطّاعة، والقتال بين يديك حتى أموت أو يفتح الله عليك، فقال له: ما اسمك؟ قال: أويس، قال: أنت أويس القرني؟! قال: نعم، قال: الله أكبر، أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ أنّي أدرك رجلاً من أمته يقال

له أويس القرني، يكون من حزب الله ورسوله، يموت على الشهادة، يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر. قال ابن عباس: فُسِّرِي عَنِّي^(٣١).

وروي أَنَّ أويساً كان ذات يوم يتوضأ في طرف ماء الفرات، فسمع صوت الطبل، فسأل ما هذا الصوت؟ فقالوا: إِنَّه صوت طبل عسكر المولى أمير المؤمنين عليه السلام حيث يذهب إلى حرب معاوية، فقال أويس: ليس عبادة أفضل من الملازمة ومتابعة علي عليه السلام^(٣٢).

وروي أيضاً أَنَّهُ: «نادى رجلٌ من أهل الشام يوم صفين: أفيكم أويس القرني؟ قلنا: نعم، وما تريد منه؟ قال: إِنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: أويس القرني خير التابعين بإحسان^(٣٣)، وعطف دابته فدخل مع أصحاب علي رضي الله عنه^(٣٤)».

وفي الإصابة من طريق الأصمغ بن نباتة قال: «شهدت علياً يوم صفين يقول: من يبايعني على الموت فبايعه تسعة وتسعون رجلاً، فقال: أين التّمام؟ فجاءه رجلٌ عليه أطمار صوف مخلوق الرأس فبايعه على القتل، فقبل: هذا أويس القرني، فما زال يحارب حتى قتل^(٣٥)».

وتدلُّ النصوص على أَنَّ أويساً عليه السلام كان ملهماً من الله تعالى؛ حيث قال في بيعته لأمر المؤمنين عليه السلام يوم الجمل: «على السمع والطاعة والقتال بين يديك حتى أموت أو يفتح الله عليك» فكان الفتح، بينما قال يوم صفين: «على بذل مهجة نفسي دونك»، ولم يذكر الفتح، فاستشهد! وتدلُّ على مقادير الله تعالى لأويس، أَنَّ يكون تمام الألف في حرب الجمل، ثم تمام المئة في صفين، مبايعاً على الموت في سبيل الله تعالى^(٣٦).

ما روي في زهده وعبادته

وأما زهده وانقطاعه عن الخلق فقد كان فريد العصر وأعجوبة دهره، ما

استوحش في عزلته، ولم يأنس إلا بربه؛ لأنه عرف عن حس معنى العبادة، وذاق طعم المناجاة والخشوع، لم ير في هذا الوجود إلا الله، ولم يخش إلا الله، كان موقناً بربه، عاشقاً له، تحرر من الدنيا وزخرفها وزبرجها فكان عبداً حقيقياً لله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وكما وصف علي عليه السلام المتقين في خطبته المشهورة: «وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرَفَةَ عَيْنٍ؛ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ...» (٣٧).

ونورد هنا بعضاً من أحواله رضوان الله عليه:

- عن هرم بن حيان العبدي، قال: «قدمت من البصرة فلقيت أويساً القرني على شطّ الفرات بغير حذاء فقلت كيف أنت يا أخي؟ كيف أنت يا أويس؟ فقال لي: كيف أنت يا أخي؟ قلت: حدّثني، قال: إنّي أكره أن أفتح هذا الباب، يعني: على نفسي أن أكون محدثاً أو قاصداً أو مفتياً، ثم أخذ بيدي فبكى. قال: قلت: فاقرأ عليّ! قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. ﴿حَمْدُكَ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٢﴾ حتى بلغ ﴿لَئِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦)، قال فغشي عليه ثم أفاق، ثم قال: الوحدة أحبّ إليّ. وكان أويس ثقةً وليس له حديث عن أحد» (٣٨).

- ونُقل عنه أنّه كان في بعض الليالي يقول: «هذه ليلة الرُّكُوع» ويتمّ اللّيلة بركُوعٍ واحد، وفي اللّيلة الأخرى يقول: «هذه ليلة السجود» ويتمّها بسجدة، فقليل له: «يا أويس كيف تطق على مضي الليالي الطويلة على منوال واحد؟! فقال أويس: «أين اللّيلة الطويلة؟! فيا ليت كان من الأزل إلى الأبد ليلةً واحدةً

حتى نتمّها بسجدة واحدة، ونتوفر الآنين والبكاء إلى آخرها»^(٣٩).

- وكان يقف على موضع الحدادين، فينظر إليهم كيف ينفخون الكير، ويسمع صوت النار، فيصرخ، ثم يسقط^(٤٠).

- عن أبي مكين قال: «رأيتُ امرأةً في مسجد أويس القرني قالت: كان يجتمع هو وأصحابُ له في مسجدهم هذا يصلّون ويقرؤون في مصاحفهم، فأتي غداهم وعشاءهم هاهنا حتى يصلّوا الصلوات، قالت: وكان ذلك دأبهم ما شهدوا، حتى غزوا، فاستشهد أويس وجماعة من أصحابه في الرّجالة بين يدي علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين»^(٤١).

- وعن الرّبيع بن خثيم قال: «أتيت أويس القرني فوجدته جالساً يصلّي الفجر، فقلت: لا أشغله عن التّسبيح، فمكث مكانه، ثمّ قام إلى الصّلاة حتى صلّى الظهر، ثمّ قام إلى الصّلاة، فقلت: لا أشغله عن العصر، فصلّى العصر، ثمّ صلّى المغرب، فقلت: لا بدّ له من أن يرجع فيفطر، فثبت مكانه حتى صلّى العشاء الآخرة، فقلت: لعلّه يفطر بعد العشاء الآخرة، فثبت مكانه حتى صلّى الفجر، ثمّ جلس فغلبته عيناه، فانتبه وقال: اللهمّ إني أعوذ بك من عينٍ نائمة، ومن بطنٍ لا يشبع، فقلت حسبي ما عاينت منه، فرجعت»^(٤٢).

- وكان يتصدّق بما يزيد عن مأكله وملبسه، ثمّ يخاطب الله بقوله: «اللهمّ من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به»^(٤٣).

ومن أولى من أويس بالعمل بوصايا أستاذه أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول في صفة المتقين: «.. أمّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُّونَهَا تَرْتِيلاً، يُحْزَنُونَ بِهِ أَنْفُسُهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبٌ أَعْيَنُهُمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَائِنُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ

وَأَكْفَهُمْ وَرُكْبَهُمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ. وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءِ أَهْبَارِ أَتَقِيَاءَ، قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بَرِّي الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ لَقَدْ خُولَطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ. لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لَا نَفْسَ لَهُمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زَكَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي وَرَبِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تَوَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ. فَمِنْ عِلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزَمًا فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَصْدًا فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا فِي هُدًى، وَتَحَرُّجًا عَنْ طَمَعٍ. يَعْمَلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمَسِّي وَهْمُهُ الشُّكْرَ، وَيُصْبِحُ وَهْمُهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذَرًا، وَيُصْبِحُ فَرِحًا حَذَرًا لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، إِنْ اسْتَضَعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَ لَمْ يُعْطَهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ، قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْرُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ، تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلُهُ قَلِيلًا زَلَّاهُ، خَاشِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنُورًا أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزًا دِينَهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُومًا غَيْظُهُ، الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ...» (٤٤).

بعض مواعظه

لم ينقل لنا التاريخ إلا القليل من كلماته ومواعظه، لعلّه لكثرة صمته وانشغاله بالعبادة، أو لانقطاعه عن الناس، سأله رجل: كيف حالك؟ فقال: «كيف يكون حال من يصبح يقول: لا أمسي، ويمسي يقول: لا أصبح، يبشر بالجنة ولا يعمل عملها، ويحذر النار ولا يترك ما يوجبها، والله إن الموت وغصصه وكرباته، وذكر هول المطلق، وأهوال يوم القيامة، لم تدع للمؤمن في

الدُّنيا فرحاً، وإنَّ حقوق الله لم تبق لنا ذهباً ولا فضة، وإنَّ قيام المؤمن بالحق في النَّاس لم يدع له صديقاً، نأمرهم بالمعروف، وننهاهم عن المنكر، فيشتمون أعراضنا، ويرموننا بالجرائم والمعائب والعظائم، ويجدون على ذلك أعواناً من الفاسقين إنَّه - والله - لا يمنعنا ذلك أن نقوم فيهم بحق الله»^(٤٥).

ومرَّ براهبٍ فقال: «يا راهب لم تخلَّيت الدُّنيا ولزمت الوحدة؟ فقال: يا فتى لو ذقت حلاوة الوحدة لأنست من نفسك، يا فتى الوحدة رأس العبادة ما أنستها الفكرة. فقال: يا راهب ما أقل ما يجد العبد في الوحدة؟ قال: الرَّاحة من مداراة النَّاس، والسَّلامة من شرهم»^(٤٦).

وقال: «كن في أمر الله كأنك فقدت النَّاس كُلَّهم»^(٤٧).

وقال: «إنَّ الموت لم يبق لمؤمن فرحاً»^(٤٨).

وقال: «لم يجالس هذا القرآن أحدٌ إلَّا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضاء من الله الذي قضى، وتلا قوله تعالى: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]»^(٤٩).

شهادته

ذكر الحاكم في مستدركه قصة شهادته رضوان الله عليه عن أسير بن جابر قال: «قال لي صاحب لي وأنا بالكوفة: هل لك في رجلٍ تنظر إليه؟ قلت: نعم، قال: هذه مدرجته وإنَّه أويس القرني، وأظنه أنَّه سيمرُّ الآن، قال: فجلسنا له فمرَّ، فإذا رجلٌ عليه سمل قطيفةٍ والنَّاس يطئون عقبه، وهو يقبل فيغلظ لهم، ويكلِّمهم في ذلك فلا يتتهون عنه، فمضينا مع النَّاس حتَّى دخل مسجد الكوفة ودخلنا معه، فتنحَّى إلى ساريةٍ فصلَّى ركعتين، ثُمَّ أقبل علينا بوجهه، فقال: مالكم ولي تطئون عقبي وأنا إنسانٌ ضعيفٌ، تكون لي الحاجة فلا أقدر عليها معكم، لا تفعلوا رحمكم الله، مَنْ كانت له إليَّ حاجة فليلقني بعشاء، ثُمَّ قال: إنَّ

هذا المجلس يغشاه ثلاثة نفر: مؤمنٌ فقيهٌ، ومؤمنٌ لا يفقه، ومنافقٌ، وذلك في الدنيا مثل الغيث يصيب الشجرة المونة المثمرة فتزداد حسناً وإيناعاً وطيباً، ويصيب الشجرة غير المثمرة فيزداد ورقها حسناً ويكون لها ثمرة، ويصيب الهشيم من الشجرة فيحطمه ثم قرأ: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُرَّانِ مَاءٌ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، اللهم ارزقني شهادةً تسبق كسرتها أذاها، وأمنها فزعها، توجب الحياة والرزق، ثم سكت. قال أسير: فقال لي صاحبي: كيف رأيت الرجل؟ قلت: ما ازددت فيه إلا رغبة، وما أنا بالذي أفارقه، فلزنا فلم نلبث إلا يسيراً حتى ضرب على الناس بعث أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، فخرج صاحب القطيفة أويس فيه وخرجنا معه فيه، وكُنَّا نسير معه ونزل معه حتى نزلنا بحضرة العدو، قال فننادى علي (عليه السلام): يا خيل الله اركبي وابشري! قال: فصَفَّ الثلثين لهم، فانتضى صاحب القطيفة أويس سيفه حتى كسر جفنه، فألقاه ثم جعل يقول: يا أيها الناس تموا تموا! ليتمن وجوه ثم لا تنصرف حتى ترى الجنة، يا أيها الناس تموا تموا، جعل يقول ذلك ويمشى، وهو يقول ذلك ويمشى إذا جاءته رمية فأصابته فؤاده، فبرد مكانه، كأنها مات منذ دهر، فواريناه في التراب^(٥٠). ونظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة من طعنة وضربة ورمية^(٥١).

وقبره هناك إلى جانب قبر عمار بن ياسر، في مدينة الرقة السورية^(٥٢).
فسلامٌ عليك أيها العابد المجاهد، المطيع لله ولرسوله ولوليّه، سلامٌ عليك يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حياً، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الهوامش:

- (١) كما ورد عن علي عليه السلام: «هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، أمثالهم في القلوب موجودة».
- (٢) نهج البلاغة، الخطبة: (١٩٣)، ص: ٩٥، نسخة المعجم المفهرس، الطبعة الرابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجامعة المدرسين، قم.
- (٣) الطبائبي، محمد حسين، الشيعة في الإسلام: ٣٤، ترجمة: جعفر بهاء الدين.
- (٤) راجع: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤١٣، تحقيق: علي شيري، نشر: دار الفكر ١٤١٥، بيروت.
- (٥) راجع: ابن معين، يحيى، تاريخ ابن معين برواية الدُّوري ١: ٢٣٨، تحقيق: عبد الله أحمد حسن، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت. ابن حنبل، أحمد، كتاب العلل ٣: ٤٧٧، تحقيق: د. وصي الله بن محمود عباس، الطبعة الأولى ١٤٠٨، نشر: دار الخاني، الرياض.
- (٦) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء ٤: ١٩، إشراف وتخرير: شعيب الأرناؤوط ومأمون الصاغرجي، الطبعة التاسعة ١٤١٣، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.
- (٧) راجع: الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط ٤: ٢٨٥، مصححة على نسخة الأستاذ الشنقيطي المدني المقابلة على النسخة الصلاحية الرسولية، نشر: دار العلم للجميع، بيروت. ابن طي الفقعي، زين الدين علي بن علي، الدر المنضود في معرفة صيغ النيات والإيقاعات والعقود: ٧٥، تحقيق وتعليق: محمد بركت، الطبعة الأولى ١٤١٨، نشر: مكتبة مدرسة إمام العصر عليه السلام العلمية، شيراز.
- (٨) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤٣٢، مرجع سابق.
- (٩) المصدر نفسه: ٤٣٥.
- (١٠) سير أعلام النبلاء ٤: ٢٧، مرجع سابق.
- (١١) الطوسي شيخ الطائفة، محمد بن الحسن، الأمالي: ٥٣٩، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى ١٤١٤، نشر: دار الثقافة للطباعة والنشر، قم. وزوي قريب منه عن أنس، انظر: الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠: ٢٦٤، نشر: دار الكتب العلمية ١٤٠٨، بيروت.
- (١٢) البروجدي، سيد علي، طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال ٢: ٥٩٧، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، الطبعة الأولى ١٤١٠، نشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة، قم المقدسة.
- (١٣) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤٣٢، مرجع سابق.

- (١٤) نهج البلاغة، الخطبة: (١٩٣)، ص: ٩٥، مرجع سابق.
- (١٥) المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الأسعاب بما للنبي من الأحوال والأموال والخفة والمتاع ٧: ٤٠ (الهامش)، تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي، الطبعة الأولى ١٤٢٠، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١٦) السيوطي، جلال الدين، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ١: ٦٠٨، الطبعة الأولى ١٤٠١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
- (١٧) الشيخ المفيد، محمد بن النعمان العكبري، الاختصاص ٦١، تحقيق: علي أكبر الغفاري والسيد محمود الزرندي، الطبعة الثانية ١٤١٤، نشر: دار المفيد، بيروت.
- (١٨) المصدر نفسه: ٨١.
- (١٩) القمي، شاذان بن جبرئيل، الروضة في فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام): ٤٨، تحقيق: علي الشكرجي، الطبعة الأولى ١٤٢٣.
- (٢٠) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ١: ٢٨١، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ، نشر: دار المعرفة، بيروت. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، لسان الميزان ١: ٤٧٣، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ. ق، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- (٢١) المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير في شرح الجامع الصغير ٤: ١٧٠، ضبط وتصحيح: أحمد عبد السلام، الطبعة الأولى ١٤١٥، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت. وقريب منه ما رواه البخاري في التاريخ الكبير ٤: ٧١، نشر: المكتبة الإسلامية، ديار بكر - تركيا.
- (٢٢) تاريخ مدينة دمشق ١٩: ٤٤٢، مرجع سابق.
- (٢٣) الفناري، محمد بن حمزة، مصباح الأنس بين المعقول والمشهود: ٦٩، تصحيح وتقديم: محمد خواجوي، الطبعة الأولى ١٤١٦، نشر: انتشارات مولی، طهران.
- (٢٤) أبو الفتح الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ١٣، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ. ش، نشر: مكتبة المصطفوي، قم.
- (٢٥) نهج البلاغة، قصار الحكم: (٤٥٦)، ص: ١٩٠، مرجع سابق.
- (٢٦) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٢٩٥، كتاب الإيمان والكفر، باب: الرّياء، الحديث: (١٢)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ش، دار الكتب الإسلامية طهران.
- (٢٧) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤٣٤، مرجع سابق.
- (٢٨) الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، الأمالي: ٥٧٦، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية،

- الطبعة الأولى ١٤١٧، نشر: مؤسسة البعثة، قم.
- (٢٩) الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠: ٣٨١، نشر: دار الكتب العلمية ١٤٠٨، بيروت.
- (٣٠) الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، الخصال: ١٦٣، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ١٤٠٣، قم.
- (٣١) الشيخ المفيد، محمد بن النعمان العكبري، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ٣١٥، تحقيق: مؤسسة آل البيت للإحياء للتراث، الطبعة الثانية ١٤١٤، نشر دار المفيد، بيروت.
- (٣٢) طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال ٢: ٥٩٦، مرجع سابق.
- (٣٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠: ٣٨١، مرجع سابق.
- (٣٤) راجع: الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين ٣: ٤٠٢، إشراف: د. يوسف عبد الرحمن المرعشي، دار المعرفة، بيروت.
- (٣٥) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة ١: ٣٦١، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود / الشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى ١٤٠٥، دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٣٦) الكوراني العاملي، علي، جواهر التاريخ ١: ٢٩٨، الطبعة الأولى ١٤٢٥، نشر: دار الهدى للطباعة والنشر، قم.
- (٣٧) نهج البلاغة، الخطبة: (١٩٣)، ص: ٩٥، مرجع سابق.
- (٣٨) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى ٦: ١٦٥، دار صادر، بيروت.
- (٣٩) طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال ٢: ٥٩٦، مرجع سابق.
- (٤٠) ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن، التَّخْوِيفُ مِنَ النَّارِ والتَّعْرِيفُ بِحَالِ دَارِ الْوَبَارِ: ٤٢، الطبعة الثانية ١٤٠٤، نشر: دار الرشيد، دمشق.
- (٤١) المستدرک على الصحيحين ٣: ٤٠٨، مرجع سابق.
- (٤٢) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤٤٣، مرجع سابق. ولا بد أن يُجْمَلَ ذلك على أنه لم يذهب للإفطار في بيته، وأنه أفطر في مكانه ولو على ماء أو تمر، وإلا فصوم الوصال حرام، لا يصدر من أمثاله.
- (٤٣) المصدر نفسه.
- (٤٤) نهج البلاغة، الخطبة: (١٩٣)، ص: ٩٥، مرجع سابق.
- (٤٥) الدِّيلمي، الحسن بن أبي الحسن، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٣٢٥، تحقيق: مؤسسة آل البيت للإحياء للتراث.

- (٤٦) ابن فهد الحلبي، جمال الدين أحمد بن محمد، التَّحْصِين فِي صِفَاتِ الْعَارِفِينَ: ١٣، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٦، نشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة.
- (٤٧) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤٤٤، مرجع سابق.
- (٤٨) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤٤٨، مرجع سابق.
- (٤٩) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤٥٠، مرجع سابق.
- (٥٠) المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٦٦، مرجع سابق.
- (٥١) تاريخ مدينة دمشق ٩: ٤٣٤، مرجع سابق.
- (٥٢) راجع: الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان ٢: ٤٦٩، نشر: دار إحياء التراث العربي ١٣٩٩، بيروت.

العلامة العسكري

عمرٌ مديد في خدمة الإسلام

□ إعداد: قسم العلاقات

أن نجد شخصاً صرف شطراً من عمره في خدمة مشروع ما، أو بذل شيئاً من جهده في سبيل قضية ما، فهذا أمرٌ ليس بعزيز ولا متعذر، وإن كنا - نعترف - قليلاً، بقلة أصحاب الأهداف السامية وذوي الهمم العالية.

ولكن، أن نجد شخصاً حطت أيام ما يزيد على التسعين عاماً تجاعيد على وجهه، وارتجافاً في يديه، وتآكلت جسده الأمراض والآفات، واستوطن أعضائه الضعف، وعشش في جوارحه الوهن، وهو مع ذلك كله، لا يزال يحمل قلماً، ويعتصر فكراً، ويفتش وينقب في التراث الإسلامي الهائل الذي بين أيدينا، بحثاً عن الحقيقة الضائعة، وسعياً وراء العلم والحق، يفعل ذلك، كما لو كان لا يزال شاباً فتى القلب، صلب العود.. أن نجد شخصاً كذلك، بذل كل عمره، لا شطراً منه، وصرف كل جهده، لا شيئاً منه، في خدمة الإسلام وأهله، وفي سبيل نشر الحق المستور، وتنقية الكمّ الموروث من شوب الدس والوضع والتحريف والتزوير.. أن نجد شخصاً كذلك، فهذا، دون ريب، أعز من الكبريت الأحمر وأندر، وهذا أقل القليل، وهذا من الكنوز التي لا سبيل إلى

العثور عليها لكلِّ أحدٍ، ولا يُلقّاها إلاّ ذو حظٍّ عظيمٍ..

السيرة الذاتية:

في الثامن من جمادى الثانية من العام ١٣٣٢هـ (١٩١١م)، وفي مدينة سامراء المقدّسة، كانت الولادة الميمونة للعلامة المحقق السيّد مرتضى العسكري رحمته الله، متحدّراً من أسرة علميّة كانت قد هاجرت من المدينة المنورة إلى مدينة ساوة بإيران زمن العلامة المجلسي صاحب البحار.

تعلّم القراءة والكتابة في منزل والده: العالم الفاضل السيّد محمد اسماعيل، والذي توفي وهو لا يزال طفلاً صغيراً. فلمّا بلغ العاشرة من عمره انتسب إلى الحوزة العلميّة في سامراء في عهد الميرزا الشيرازي رحمته الله (ت: ١٣١١هـ)؛ حيث طوى في هذه الحوزة، ولمدّة سنتين فقط، دروس المقدّمات والسّطوح.

عرّف عنه، ومنذ صغره، شغفه بقراءة الكتب، وخصوصاً كتب السيرة النبويّة صلى الله عليه وآله وسيرة أهل البيت عليهم السلام وسير الصّحابة وكتب التاريخ والرحلات، كرحلة ابن جبير وابن بطوطة ورحلة الأوروبّيين إلى المشرق، وكذلك الكتب التي تروي قصّة استعمار البلدان الإسلاميّة وتوضح ما كان يجري على الأُمّة الإسلاميّة آنذاك من حوادث وملّمات.

ونتيجةً لظروفٍ اقتصاديّةٍ صعبةٍ ألّمت به، قرّر العلامة العسكري أن يترك موطنه ومنسقط رأسه سامراء، ليهاجر منها في العام ١٣٥٠هـ - ١٩٢٩م، إلى مدينة قم المقدّسة بإيران، التي بقي فيها حتى العام ١٣٥٣هـ.

وفيهما زاول العلامة العسكري التّدرّيس في حوزتها العلميّة في عهد مرجعيّة الشّيخ عبد الكريم الحائري رحمته الله، مضافاً إلى مشاركته في دروس أكابر أساتذتها، فكان أن حضر العقائد عند الإمام روح الله الموسويّ الخميني رحمته الله، والسّطح العالي فقّها وأصولاً لدى السيّد شهاب الدّين المرعشي النّجفي رحمته الله والشّيخ

محمد حسين شريعتمداري الساجي رحمته الله، ودروس الأخلاق عند الشيخ مهدي البابين شهري رحمته الله، والتفسير عند الشيخ ميرزا خليل كمره إي رحمته الله، وقد كان هذا الأخير بمثابة المربي للسيد مرتضى، الذي كان آنذاك يقطن المدرسة الرضوية؛ حيث دام بقاءه فيها لستين، لينتقل من بعدها إلى المدرسة الفيضية.

ونتيجة ظروف معينة استجدت في حياته، فقد قرر السيد العسكري العودة إلى العراق، وبالتحديد إلى سامراء، وذلك في العام ١٣٥٣هـ - ١٩٣٢م؛ حيث حضر أبحاث الخارج (الفقه الاستدلالي) لدى الشيخ حبيب الله الاشتهاردي المعروف بـ المدرس العسكري، كما حضر درس المرحوم ميرزا علي تلميذ الميرزا حبيب الله، ودرس المرحوم الشوشتری المرعشي. واستمرّ تحصيله العلمي وحضوره في هذه الدروس حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

ثم في العام ١٣٦٣هـ - ١٩٤٢م قرر رحمته الله الذهاب إلى بغداد، لغرض تأسيس مدارس عضوية لأبناء العراق، إلا أنّ محاولته تلك لم يكتب لها النجاح، فقفّل راجعاً من جديد إلى حوزة سامراء ليكمل دراسته على يد أستاذه الاشتهاردي.

وفي هذه الأثناء، كانت المرجعية في إيران قد انتقلت إلى آية الله العظمى السيد حسين البروجردي رحمته الله؛ حيث عاشت حوزة قم في عهده أوضاعاً جديدةً قياساً إلى الحوزة في العراق، الأمر الذي شجّع العلامة العسكري وحته على الهجرة إلى قم مرةً أخرى، وهذه المرة، لا لغرض التحصيل العلمي فحسب، وإنما لطرح مشروعه الخاص، المتمثل بتشكيل مدرسة للعلوم الدينية على النهج الذي يراه هو مناسباً.

وبالرغم من أنّ السيد البروجردي رحمته الله أقرّه على مشروعه وأعلن تأييده له، إلا أنّ إنجاز هذا المشروع تعرّض ولم يرَ النور إثر قيام قضية تأميم النفط في زمن (مصدق)، وما صاحبها من مشاكل وأزمات. وعقب ذلك، قرر العلامة العسكري - كارهاً - الرجوع إلى العراق من جديد، فعاد إلى منطقة البيع ثم إلى

منطقة الكرادة الشَّرْقِيَّة ببغداد عام ١٩٦١م، وفيها توسَّعت مشاريعه العلميَّة، وتعمَّقت علاقته بمرجعيَّة الإمام الحكيم رحمته الله آنذاك بشكلٍ خاصّ.

وفي العام ١٣٨٩هـ - ١٩٨٦م كانت ضغوطات حكومة حزب البعث في العراق وممارساتها الباغية في حقّ العمل الإسلاميّ قد بلغت حدّاً لا يُفسح معه المجال لأيّ نشاطٍ أو تحرّك، فوجد السيّد العسكريّ رحمته الله نفسه مُضطراً إلى ترك العراق، فهاجر منه إلى لبنان، ثمّ منه إلى إيران، التي احضنته حيّاً، وعانق جُثمانه تراها ميتاً.

ففي مساء الأحد ١٦ سبتمبر ٢٠٠٧م، فاضت روحه الطاهرة عائدةً إلى ربّها راضيةً مرضيّةً، عن عمرٍ يناهز الرّابعة والتسعين، وذلك بمستشفى ميلاد بطهران عاصمة الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة، وعلى أثر معاناةٍ دامت عامين، عانى خلالها من قصورٍ في القلب والكلى، وتمّ تشييع جُثمانه انطلاقاً من جامعة طهران بمشاركة الآلاف المؤلّفة من رجالات العلم والسياسة، ليؤخّذ الجُثمان الطاهر لاحقاً ويؤارى في الحرم المطهر للسيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام بمدينة قم المقدّسة.

إنجازاته في الميدان العلميّ:

على الصّعيد الأكاديميّ، كان العلامة العسكريّ رحمته الله قد لاحظ تفاوتاً واسعاً وبوناً شاسعاً بين المناهج المقرّرة التي يتمّ تدريسها في الدّول الاستعماريّة، كألمانيا وفرنسا وبريطانيا، وبين مناهجهم التي فرضوها جاهزةً معلّبةً، على بلداننا الإسلاميّة، والتي كانت آنذاك خاضعةً لنفوذهم وسيطرتهم، فقد تبيّن له أنّ مدارسهم ومناهجهم تلك تأخذ الشّباب والطلّاب في بلادهم وتعدّهم ليكونوا كوادراً متخصصّة وطاقاتٍ عاملة في شتّى الأصعدة المعرفيّة وفي كافّة مجالات العلوم التي يحتاج إليها المجتمع. وأمّا مدارسنا وكلّيّاتنا فغاية ما تفعله أنّها تأخذ

النَّاشئة من أجيالنا تُخَرَّجهم موظَّفين في دوائر الدَّولة يدينون بالولاء للدَّول المُستعمرة، في محاولةٍ منهم لغزوهم ثقافيًّا وفكريًّا بعد احتلالهم عسكريًّا وبعد استعمارهم اقتصاديًّا وسياسيًّا. ومن هنا، كان العلامة العسكري رحمته الله يصف مدارس ذلك الزَّمان بأنَّها: معامل تحضير الموظَّفين، مُعتبراً إياها أحد أهمِّ الأسباب الحقيقيَّة لتخلُّف مجتمعاتنا الإسلاميَّة آنذاك. كما تنبَّه رحمته الله إلى علاقة الحوزة بالجامعات الحديثة، ولاحظ انقطاع الصِّلة بين هذين القطاعين الحيويَّين في جُسم الأُمَّة الثقافيِّ، فبينما كانت الحوزة منكفئةً على ذاتها، لا تُعنى إلا بتخريج علماء للدَّرس والتَّدريس فيها، فإنَّ الجامعات كانت غريبةً في توجهاتها، غريبةً وبعيدةً عن مجتمعاتها الإسلاميَّة؛ لذا كان لا بدَّ بنظر العسكري من انطلاقةٍ تكسر هذا الجمود، وتُزيل حالة التَّفوق والخمول، فتحرِّك رحمته الله من سامراء، وضمن الإمكانات المتوفِّرة والمتاحة له، ورغم أنَّ الحرب العالميَّة الثانية كانت تنيح بظلالها الثَّقيلة على العراق أرضاً وشعباً، وتأكل بناها المُستعرة كلَّ أشكال الحياة، إلا أنَّ العسكري استطاع بعزمه المنقطع النَّظير أن يقهر هذه الظروف ويُدلِّلها ليكون حلقاتٍ للتوعية والتَّدريس، أخذت في البداية شكل مدرسةٍ، أشبه ما تكون آنذاك بالكتاتيب، في حين أنَّها لم تكن إلا عملاً مدروساً خطَّط له السيّد بعنايةٍ، وأراد له أن يكون مقدِّمةً لمشاريع أوسع.

وأما على الصَّعيد الحوزويِّ، فقد كان رحمته الله يرى أنَّ المناهج المتداولة والمعمول بها في الحوزات العلميَّة موقَّعةٌ وناجحةٌ في إعداد وتخريج العلماء والباحثين في مجالي الفقه وأصوله، إلا أنَّها تُعاني من وجود ثغرةٍ بارزةٍ، وهي إغفالها أو إهمالها لغير هذين العُلمين من العلوم الإسلاميَّة الأُخرى، والتي لا يَسْتَغني عنها الفرد أو المُجتمع المُسلم، كالقرآن وعلومه، وسيرة النَّبي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، وأبحاث العقائد والكلام، حتَّى أنَّ دروس هذه المواد قد انعدمت إلا في بعض أوقات التَّعطيل هنا وهناك.

وهنا، لا بدّ من التنويه بأنّ السيّد العسكريّ ﷺ قد واجه، كما هو شأن جميع المصلحين، وعلى مرّ العصور واختلاف الحضارات، معارضةً وهجوماً شرساً من المغرضين والمُنْدَسِّين وأصحاب النوايا السيّئة، كما أنّه واجه - على الأقلّ - تحفظاً على تحركاته من قبل أصحاب النوايا الحسنة من المتمسّكين بالموروث إلى حدّ أن يتخوّفوا من كلمة (جديد) ومستلزماتها وكافة مشتقاتها. إلّا أنّ كلّ هذا لم يكن كفيلاً بإفقاد السيّد عزيّمته الوقادة ولا بإطفاء نارها المشتعلة، ولم تفتّ هذه الصّعاب في قوّة ساعده، ولا قلّلت من اندفاعه وحمّاسه.

وكيفما كان، فالخطوات التي اتّبعها ﷺ لإصلاح الواقع حسبما يراه كما يلي:

(١) محاولته إدخال درس التفسير في حوزة قم، وذلك عبر التأثير في جمع من الطلبة وإقناعهم بالحضور في درس التفسير، وفي أيام الدّراسة الحوزويّة، كما تضمّن البرنامج المقترح تمرين طلبة العلوم الدّينيّة على الخطابة والتأليف والعمل الاجتماعيّ مع التركيز على دراسة حالة المسلمين واحتياجاتهم، حرصاً على بناء الشّخصيّة الإسلاميّة الرّصينة التي توصل إلى المجمع الإسلاميّ المنشود.

(٢) محاولة إنشاء مدرسة حوزويّة جديدة في سامراء، وكان ذلك إيّان عودته من قم إلى العراق؛ حيث سعى إلى تأسيس حوزة جديدة في سامراء بمنهاج وفق الرّؤية التي كان يؤمن بها. إلّا أنّه لم ينجح في مساعيه هذه، فقرّر الذهاب إلى بغداد والكاظميّة عسى أن ينجح في إقامة مشاريعه هناك.

(٣) تأسيس مدرسة منتدى النّشر في الكاظميّة، كان ذلك بعد لقائه بالأستاذ أحمد أمين، صاحب كتاب: التّكامل في الإسلام؛ حيث حصل التفاهم بينهما واتفقا على تأسيس مدرسة تعمل على الطّلاب في المرحلة الابتدائيّة، وتصدّى أحمد أمين للمشروع، والعسكريّ يدفعه إلى العمل،

ويقف وراءه، ثم ألحقت هذه المدرسة بجمعية منتدى النشر في النجف الأشرف تسهيلاً لحصولها على الإجازة الرسمية، وفيما بعد، رجع العلامة العسكري ليستقر في الكاظمية، وليدير بنفسه مدرسة منتدى النشر، إثر مواجهة الأستاذ أحمد أمين بعض الصعوبات والمشاكل التي دعت له للاستعانة بالعسكري وطلب رجوعه إلى الكاظمية.

(٤) الاتفاق مع المرجع البروجردى رحمته الله على إنشاء مدرسة في قم تعمل وفق المنهج الذي خطط له، وبالفعل، فقد حصل رحمته الله على موافقة ودعم السيد البروجردى رحمته الله، إلا أنه، وكما أشرنا سابقاً، حالت ظروف قضية تأميم النفط دون إتمام المشروع، مضافاً إلى الرسائل التي بعثت إلى السيد البروجردى رحمته الله من الكاظمية، كرسالة الشيخ مرتضى آل ياسين رحمته الله، والتي كانت تطالب بعودة العلامة العسكري إلى هناك، مما جعله يعود إلى العراق صارفاً النظر عن مشروع المدرسة هذا.

(٥) تأسيس مدرسة الإمام الكاظم عليه السلام في الكاظمية، كان ذلك بعد عودته مباشرة، وقد استمرت هذه المدرسة إلى ما بعد قيام ثورة ١٩٥٨ م.

(٦) مدارس أخرى في بغداد وغيرها، وهي كلها مدارس ومعاهد تربوية تحمل المنهج والخطّة التي رسمها هو، نشير إلى بعضها: مدرسة الإمام الجواد عليه السلام في الكرادة الشرقية، مدارس بغداد الجديدة في بغداد، مركز تعليم البنات في بغداد، مدارس الزهراء عليها السلام للبنات في بغداد وكانت هذه المدارس بإشراف الشهيذة بنت الهدى، ثانوية الإمام الباقر عليه السلام في الحلة، ثانوية الإمام الحسن عليه السلام في الديوانية، وقد كانت تحت إشراف الشيخ محمد مهدي شمس الدين قبل أن تدخل في عهدة جمعية الصندوق الخيري، روضة الزهراء للأطفال في بغداد. وقد جاء تأسيس هذه المدارس في محاولة من السيد العسكري وإخوانه من جماعة العلماء

لتطوير ومحاصرة النشاط المتزايد الذي كانت تمارسه الأحزاب العلمانية والشيوعية على الساحة العراقية، إلى جانب التصاعد في حملات التبشير المنظمة المتمثلة بالمدارس التبشيرية كمؤسسة راهبات الكلدان وراهبات مريم العذراء التي كانت تبعث بسياراتها لجلب الطلبة من باب صحن الإمام الكاظم عليه السلام.

(٧) كلية أصول الدين، تم تأسيسها عام ١٩٦٣م في بغداد لتكون نواة لجامعة إسلامية متكاملة الاختصاصات، ولعلها الإنجاز الأهم للعلامة العسكري في هذا المجال؛ حيث درس فيها أساتذة هم من خيرة الأساتذة بجامعة بغداد، كما أنها خرجت عدة دفعات، إلا أن النظام البعثي الحاقق، قرر بعد استلامه دقة الحكم عام ١٩٦٨م إلغائها وسحب الرخصة منها.

(٨) المجمع العلمي الإسلامي، تم إنشاؤه في طهران في العام ١٩٧٩م، هدف العسكري من خلاله إلى ممارسة دروسه العلمية، وتطوير الكتب الحوزوية على مستوى المقدمات، وقد قدم هذا المجمع خدمات كثيرة للعالم الإسلامي، من إرسال المبلغين إلى تأسيس المدارس إلى إعداد البرامج والمناهج، وصولاً إلى طباعة الكتب.

(٩) كلية أصول الدين في طهران وقم ودفول، تم افتتاح هذه الكلية عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، بعدما كان عمر السيد العسكري رحمته الله قد تجاوز الثمانين، وذلك أولاً في مدينة قم، ليفتح فرع لها بعد عام في مدينة طهران، وبعد ذلك بعام - أيضاً - في مدينة دفول، وقد شملت مراحل الدراسة فيها البكالوريوس والماجستير والدكتوراه.

نشاطه على الصعيد الاجتماعي:

لم يكن بمقدور السيّد العسكري رحمته الله أن يغزل نفسه اجتماعياً عن الناس وآلامهم ومشاكلهم وهمومهم وأحزانهم، لم يكن يستطيع أن يختبئ خلف حجج واهية لا تُسمن ولا تُغني من الحق شيئاً، لا، لم يستطع أن يُقنع نفسه بأن تفرّغه للدراسة والتدريس والتحصيل أولى من التصدي لسد احتياجات الناس وحل مشاكلهم، بل إنه على الإطلاق لم يَرَ تنافياً بين خدمة عيال الله وبين التفرغ لدراسة العلوم الدينية، فهذا من ذاك، والحال واحدة، وكُلّ الطرق تؤدي إلى الله، وأحبّ الخلق إليه أنفعهم لعياله. ومن هذا المنطلق، كان لا بدّ له من الإدلاء بدلوّه في ساحة العمل الاجتماعي، إلاّ أن نظريته كانت تبتني على أساس أن العمل المثمر والمنتج لا يُمكن له أن يقوم إلاّ على قاعدة العمل المؤسّساتي، وإن كان يعترف للعمل الفردي بفوائده أيضاً، إلاّ أن ذلك يبقى في إطار ضيق ومحدود، مضافاً إلى أن العمل على أساس فرديّ ليس من السهل ضمان ديمومته واستمراره، ولا من السهل - أيضاً - سلامته وصيانته من المؤثرات النفسيّة والشخصانيّة.

ومن هنا، فقد عمل رحمته الله مع علماء آخرين على تأسيس ما يلي:

١. جمعية التربية الإسلاميّة.
٢. جمعية الصندوق الخيري الإسلامي، التي أسسها السيّد هبة الله الشهرستاني، ثم تولّى السيّد العسكري رئاستها من بعده. وقامت هذه الجمعية على مشاريع عدّة، من بينها: فتح مستوصف الرعاية الإسلاميّة في الكرادة الشرقيّة، ومستوصف آخر في الكاظميّة، كما أنها تبنّت العديد من المدارس التي أُسّست آنذاك.

نشاطه على صعيد التحقيق والتأليف:

اشتغل العلامة العسكري رحمته الله، وعلى مدار سنيّ حياته الشريفة، بالدّرس

والتحقيق، وإدارة كُليّة أصول الفقه بالنّجف الأشرف، وتأليف الموسوعات الإسلامية، والتحقيقات التاريخية للمفاصل المهمة التي التّبتت على الكثير من المؤرّخين، فضلاً عن عامّة النّاس، على مدى أربعة عشر قرناً، سابراً أغوار المهّمات الصّعبة، متسلّحاً فيها بالبُرهان السّاطع والدّليل القاطع، بعد أن تحوّلت الأُمّة الإسلاميّة على أثر هذه الحوادث فرقاً مشتتة، وأعداء متخاصمين، تُلهبها سياط الصّراعات الطّائفيّة والمذهبيّة والعرقية، وتنفث في صدرها السّموم التي تقعد بها عن اللّحاق بالرّكب الحضاريّ المتسارع الخطى، ولا سيما في زماننا هذا، ولم تكن هذه الجراحات لتبقى وتستمرّ إلى زماننا الحاليّ، لولا أنّ مؤرّخين ادّعوا لأنفسهم العلم، ونسبوا إلى الإسلام، وتزيّوا بزيّ رسول الله، واعتمّوا بعمامته، لولا أنّهم تسوّروا على الحقيقة وطمروها وأخفّوا آثارها، عمداً أو جهلاً، حتّى كان في ذمتهم هم، كلّ ما سُفِكَ في هذه الأُمّة من دماء، وكان في ذمتهم هم، جميع ما انتَهَكَ فيها من أعراض، وإلى الله المُشْتكى.

وعلى أيّ حال، فإنّ السيّد العسكريّ يُعتَبَر من أبرز الباحثين في موضوع الإمامة، ومن المؤرّخين الإسلاميين الكبار، الذين عنّوا بتأليف مئات الكتب باللّغتين العربيّة والفارسيّة، المطبوع منها والمخطوط.

وهو كذلك يُعتَبَر من طلائع المؤسّسين لفصائل الحركات الإسلاميّة في العراق، والمقارعين للنّظام البعثيّ البائد الذين تعرّضوا للتنكيل، وهو من القيادات البارزة والمؤسّسة للعمل الإسلاميّ الرّساليّ داخل العراق خلال فترة الخمسينيّات والسّتينيّات مع المرجع الدينيّ آية الله السيّد الشّهيد محمّد باقر الصّدّيق رحمته الله وثلّة من العلماء الأعلام من كبار رجالات في العراق والخليج الفارسي، فأنجبت هذه المدرسة المباركة مجتمعةً موسوعاتٍ علميّةٍ ومدارس فكريّةٍ وتحقيقيّةٍ قلّ نظيرها، أسهمت في إمطة اللّثام عن خبايا التّاريخ بشكلٍ علميّ رصين، مُبتعدةً عن التعصّب الأعمى الذي لا يَسْتند إلى الحجة والبُرهان

والدليل العلمي الروائي والتاريخي.

شكّلت حياة السيّد مرتضى العسكريّ أنموذجاً حياً لإرادة العمل الرساليّ التي طبّعت جيله من العلماء والمفكرين، وفي مقدّمتهم الشهيد السعيد السيّد محمّد باقر الصدر رحمه الله، فقد كان السيّد العسكريّ حلقةً مهمّةً من حلقات التواصل الفكريّ بين القواعد الشّعبيّة وبين حركة التجديد الإسلاميّ التي نجحت في تعميم الوعي الرساليّ والصّحوة الإسلاميّة لقطاعات واسعة من الشّعْب العراقيّ؛ حيثُ كتّب العديد من المؤلّفات التي أغنت الثقافة ككلّ، والفكر والتاريخ الإسلاميّ بشكلٍ خاصّ، وكان من دعاة التقريب بين المذاهب ومن المنظرين والساعين للوحدة بين المسلمين، وله مساهمات واضحة في هذا المجال، وأنشأ العديد من المشاريع الخيريّة والتربويّة والعلميّة.

وأما نتاجات العلامة العسكريّ فقد أخذت حيزاً مهماً في المكتبة الإسلاميّة، بل إنّ بعضها يُعتبر فتحاً كبيراً على صعيد التّاريخ الإسلاميّ، وعلى وجه التّحديد: كتاباه الشهيران: «خمسون ومائة صحابيٍّ مُحتلق»، و«عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى»، وغير ذلك، ممّا اهتزّت على إثره أوهامٌ كانت تُعتبر في أوساط المؤرّخين من المسلّمات التي لا تقبل التّشكيك، وقد توارثها خلفٌ عن سلف، وباتت صروحاً مُنغرسةً في الأرض يُشيد عليها الطّبريّ وأمثاله أحداثاً جساماً، لا يُهنّدى إلى أصلها، ولا يُعلّم مبدؤها.

وأما بعض مؤلّفاته رحمه الله الأخرى:

موسوعة معالم المدرستين، والمطبوع منها:

بحوث المدرستين حول الصّحابة والإمامة؛ بحوث المدرستين في مصادر الشريعة الإسلاميّة؛ أثر قيام الإمام الحسين عليه السلام في إحياء سنّة الرّسول صلّى الله عليه وآله.

وأما المخطوط منها:

من سيرة الخلفاء؛ الروايات المتقلة (حول روايات وآراء انتقلت من مدرسة

الخلفاء إلى مدرسة أهل البيت (عليه السلام)؛ بحوث في الفقه المقارن بين المدرستين؛
عصور تأسيس أفكار المدرستين وتأسيس حكوماتهم؛ كارثة حملة المغول على
البلاد الإسلامية وكيفية تعامل المدرستين معهم؛ افتراءات على مدرسة أهل
البيت (عليه السلام)؛ القرآن الكريم وروايات المدرستين - بحوث تمهيدية؛ القرآن
الكريم وروايات مدرسة الخلفاء؛ القرآن الكريم وروايات مدرسة أهل البيت؛
الاستشراق والتبشير مع المدرستين.

موسوعة معالم الإسلام: المطبوع منها:

تعليم الإسلام؛ أحكام الإسلام؛ مُنتخب الأدعية.

والمخطوط منها:

الآداب الإسلامية؛ مُصطلحات العقائد؛ عقائد الإسلام من القرآن
الكريم؛ السياسة في الإسلام أو الأحكام السلطانية؛ قيام الأئمة بإحياء السنة؛
عوامل التحريف في سنة الرسول؛ الفرق الإسلامية وأسباب ظهورها؛ قيام
الأئمة بإحياء عقيدة التوحيد؛ قيام الوصي بإحياء السنة؛ أشتات مجموعة.
وأخيراً، نسأل الله تعالى أن يتغمّد هذا العالم الجليل برحمته الواسعة، وأن
يخشره مع الأولياء الصالحين محمد وآله الطيّبين الطاهرين..

* * *

شبهة اليهود

حول قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح

□ الأستاذ: علي الشَّيخ (*)

من الشُّبهات التي يطرحها بعض أهل الكتاب حول القرآن الكريم بخصوص قصة موسى عليه السلام، هي قولهم: إنَّ الحادثة المذكورة بخصوص تعلُّم نبيِّ الله موسى عليه السلام من العبد الصالح (خضر) - والتي جاءت في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) - غير مذكورة في التَّوراة التي بين أيدينا بالرَّغم من أنَّها ذكرت أغلب تفاصيل حياة موسى، فهل يعقل أن تترك حادثة مهمَّة مثل هذه لا تذكرها؟!

ويضيفون قائلين: إنَّ القرآن بذكره لهذه القصة قدح في قدسيَّة نبيِّ الله

(*) ماجيستر فلسفة وكلام، باحث وناقد في الفكر المسيحي واليهودي والدراسات الدينية المقارنة.

وكليمه؛ حيث اعتبره جاهلاً، ويتتهون الى القول: «إِنَّ مُحَمَّدًا أَخَذَ هَذِهِ الْقِصَّةَ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ عَصْرِهِ، أَوْ مِنْ خَرَافَاتِ الْيَهُودِ؛ فَإِنَّهُ لَا وَجُودَ لَهَا فِي التَّوْرَةِ الَّتِي هِيَ أَقْدَمُ كِتَابٍ فِي الدُّنْيَا»^(١).

وآخرون منهم ذهبوا الى أنَّ موسى المذكور في القرآن مع العبد الصالح ليس موسى بني إسرائيل، بل هو موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب عليه السلام، ويقال إنَّه كان من أنبياء بني إسرائيل، وقد تبعهم بعض المؤرخين والمحدثين من المسلمين أيضاً في ذلك^(٢). ولكنَّ العلامة الطباطبائي رحمته الله يستبعد هذا القول نهائياً، حيث يقول: «وبيعده أنَّ القرآن قد أكثر ذكر اسم موسى حتى بلغ مائة ونيفاً وثلاثين وهو يريد ابن عمران عليه السلام، فلو أُريد بما في هذه القصة غيره لضمَّ إليه قرينة صارخة»^(٣)، وهو - أيضاً - ما أكَّده الفخر الرازي في تفسيره. وأمَّا العبد الصالح الذي لقيه موسى عليه السلام والذي لم يسمَّ في القرآن، فقد ورد في روايات كثيرة أنَّ اسمه الخضر، وقد اختلف في شخصيته، وهل هو نبيٌّ أو وليٌّ، وقد طال البحث عنه في كتب التفسير من الفريقين، وأعرضت عن ذكر هذه الأقوال والآراء تجنُّباً للإطالة، مع عدم دخالها في أصل الشبهة وجوابها. وأعتقد أنَّ إنكار هذه الحادثة وعدم ذكرها في التَّوْرَةِ أرجعه اليهود والنصارى إلى أمرين ذكرهما الكثير من المحققين، وهما:

١. استبعاد أنَّ يتعلَّم نبيٌّ كموسى عليه السلام من غيره وإنَّ كان نبياً أو ولياً.
٢. لقولهم إنَّ موسى عليه السلام بعد الخروج من مصر حصل هو وقومه في التَّيِّهِ وتوفِّي فيه، ولم يخرج قومه منه إلَّا بعد وفاته، والقصة تقتضي خروجه عليه السلام من التَّيِّهِ؛ لأنَّها لم تكن وهو في مصر بالإجماع، و تقتضي - أيضاً - الغيبة أياماً ولو وقعت لعلمها كثيرٌ من بني إسرائيل الذين كانوا معه، ولو علمت لنُقلت؛ لتضمَّنْها أمراً غريباً تتوفَّر الدَّواعي على نقله، فحيث لم يكن لم تكن^(٤).

وقد أجيب عن هذين الأمرين بإجابات كثيرة سنحاول ذكرها باختصار، ومنها ما ذكره القرطبي في تفسيره عن الأمر الأول بقوله:

«ولا يظن أن في تعلّم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشدّ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضّله الله، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه؛ لأنّه نبيّ، والتبّي أفضل من الوليّ، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة»^(٥).

وقد جاء عن الإمام الرضا عليه السلام في جوابه على كتاب يسألونه عن العالم الذي أتاه موسى، أيهما كان أعلم؟ وهل يجوز أن يكون على موسى حجة في وقته؟ فكتب في الجواب: «أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر... قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قال: أنت موسى بن عمران الذي كلّمه الله تكليماً؟ قال: نعم. قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني ممّا علّمت رشداً. قال: إني وكّلتُ بأمر لا تطيقه، وكّلتُ بأمر لا أطيقه»^(٦).

ويعلّق العلامة الطباطبائي رحمه الله بعد ذكر روايات أخرى حول علمهما بالقول: «ينبغي أن يُحمل اختلاف الروايات في علمهما على اختلاف نوع العلم»^(٧).

وهذا أيضاً ما أشار إليه العلامة البلاغي رحمه الله في كتابه القيم (الهدى الى دين المصطفى) حيث قال: «إن الله أنعم على هذا العبد الصالح الذي يقال إنّه الخضر بشيء من علم الغيب وأسرار الحقائق، وأنعم على موسى كليمه فخصّه في ذلك العصر بسيادة الرسالة بالشرعية وحقائق العرفان بالله وقوانين السياسة المدنية... وحجبه عن عالم الغيب الذي لا ميسس له بحكمة وظيفته، فلمّا اجتمع موسى مع ذلك العبد الصالح طلب منه أن يطلعه على شطر ممّا منحه الله من علم الغيب... فكان العبد الصالح يفعل الأفعال على مقتضى حقائقها وأسرارها الغيبية، وكان موسى يعترض فيها على مقتضى وظيفته في القوانين

الشَّرْعِيَّةَ وَالسِّيَاسَاتِ الْمَدْنِيَّةَ»^(٨).

وأما الأمر الثاني، فإنه قد أُجيب عنه بالقول: «لا مانع من أن يكون قد أخفى الله سبحانه علم المسائل التي تضمّنتها القصة عن موسى ﷺ، وليس بشيء كما لا يخفى، وكذلك اقتضاء ذلك الغيبة أياماً؛ لجواز أن يكون على وجه خارق للعادة، كالتّيه الذي وقعوا فيه...، وقد يقال: يجوز أن يكون ﷺ خرج وغاب أياماً لكن لم يعلموا أنّه ذهب لهذا الأمر، وظنّوا أنّه ذهب ينجي ويتعبّد، ولم يوقفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع؛ لعلمه بقصور فهمهم، فخاف من حطّ قدره عندهم... ويجوز أن يكون غاب ﷺ وعلموا حقيقة غيبته، لكن لم يتناقلوها جيلاً بعد جيل؛ لتوهم أن فيها شيئاً مما يحطّ من قدره الشّريف، فلا زالت نقلتها تقلّ حتى هلكوا في وقت (بختنصر) كما هلك أكثر حملة التّوراة»^(٩).

والحقيقة أن ذكر قصّة تعليم نبيّ الله وكليمه موسى بن عمران وهو من أنبياء أوّلي العزم والذي كلّمه الله ﷻ مباشرةً وخصّه بالمعجزات من شخص آخر فيها الكثير من العبر والدروس لكلّ إنسان يسعى للوصول إلى الكمال، وفيها - أيضاً - من الأدب البارع الذي يجب على المتعلّم أن يتّبعه مع مَنْ يتلقّى منه العلوم، وقد أشار الفخر الرّازي إلى أنواع كثيرة في الأدب واللّطف الذي راعاه موسى في تعلّمه من الخضر:

الأوّل: أنّه جعل نفسه تبعاً له؛ لأنّه قال: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾.

الثاني: أنّه استأذن في إثبات هذه التّبعية، فإنّه قال: هل تأذن لي أن اجعل نفسي تبعاً لك، وهذا مبالغة عظيمة في التّواضع.

الثالث: أنّه قال: ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾، وهذا إقرار له على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم.

الرابع: أنّه قال: ﴿مِمَّا عَلَّمْتَنِي﴾، وصيغة (مِنْ) للتّبعيض، فطلب منه تعليم ما

علّمه الله، وهذا - أيضاً - مشعرٌ بالتواضع، كأنّه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءاً من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله.

الخامس: أن قوله: ﴿رُشِّدَا﴾ طلبٌ منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

السادس: أن قوله: ﴿تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ﴾ معناه أنّه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعارٌ بأنّه يكون إنعامك عليّ عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم؛ ولهذا المعنى قيل: أنا عبد من تعلّمت منه حرفاً.

السابع: أن المتابعه عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير. وقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يدلُّ على أنّه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها. وهذا يدلُّ على أنّ المتعلّم يجب عليه في أوّل الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض.

الثامن: أنّه ثبت بالأخبار أنّ الخضر عرف أولاً أنّه نبيّ بني إسرائيل، وأنّه هو موسى صاحب التّوراة، وهو الرّجل الذي خصّه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثمّ إنّّه عليه السلام مع هذه المناصب الرّفيعّة والدرجات العالية الشّريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التّواضع، وذلك يدلُّ على كونه عليه السلام آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به؛ لأنّ كلّ من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسّعادة أكثر، فكان طلبه لها أشدّ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشدّ.

التاسع: أنّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾، فأثبت كونه تبعاً له أولاً، ثمّ طلب ثانياً أن يعلمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة ثمّ في المرتبة الثانية طلب منه التّعليم^(١٠).

الهوامش:

- (١) راجع: كتاب الهدى إلى دين المصطفى للبلاغي ١: ١٣٠، الطبعة الثالثة ١٤٠٥، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- (٢) كتاب الخضر بين الواقع والتَّهْوِيل: ٩١.
- (٣) الطَّبَّاطبائي، مُحَمَّد حسين، الميزان في تفسير القرآن ١٣: ٣٣٨، نشر: مؤسسة النُّشْر الإسلاميّ التابعة لجامعة المدرّسين، الطبعة الخامسة ١٤١٧، قم.
- (٤) الآلوسي، سيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٨: ٢٩٣، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الطبعة الأولى ١٤١٥، نشر: دار الكتب العلميّة، بيروت.
- (٥) القرطبي، مُحَمَّد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن ١١: ١٧، الطبعة الأولى ١٣٦٤هـ.ش، انتشارات ناصر خسرو، طهران.
- (٦) المجلسي، مُحَمَّد باقر، بحار الأنوار ١٣: ٢٧٩، الطبعة الثالثة ١٤٠٣، دار إحياء التُّراث، بيروت.
- (٧) الميزان في تفسير القرآن ١٣: ٣٥٧، مرجع سابق.
- (٨) الهدى إلى دين المصطفى ١: ١٢٩، مرجع سابق.
- (٩) رمضان يوسف، مُحَمَّد خير، الخضر بين الواقع والتَّهْوِيل: ٩٢، الطبعة الأولى ١٩٨٤، نشر دار المصحف، دمشق.
- (١٠) فخر الدِّين الرَّازي، مُحَمَّد بن عمر، التَّفْسِير الكبير ٢١: ١٢٨، الطبعة الأولى ١٤٢١، دار الكتب العلميّة، بيروت. (بتلخيص).

آثار خطاب الرئيس نجاد

في جامعة كولومبيا

□ علي أحمد الحسن

وصفه (بولينجر) بأنه: «ديكتاتور وحشي»، مضيفاً القول: «إمّا أنك شخصٌ وقحٌ مثيرٌ للاستفزاز، أو جاهلٌ مثيرٌ للدهشة»، في إشارةٍ إلى نفي نجاد للمحرقة اليهودية.

وقد شكّل هذا التقديم والاستقبال السيء الذي يعدّ مخالفاً للأعراف السائدة في مثل هذه المواقف «إهانةً لمعرفة وعقل الحاضرين في القاعة»، كما جاء على لسان الدكتور أحمد نجاد.

وعموماً قد كان في تصرّفات الرئيس نجاد، ولكلا خطابيه في

من الأحداث المثيرة التي مرّت في هذه الأشهر أن لبّى الدكتور أحمد نجاد رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران دعوةً لإلقاء محاضرةٍ في جامعة كولومبيا الأمريكية المرموقة، في أثناء تواجده في الجلسة العمومية للأمم المتحدة.

وبعد وصوله إلى المنصة، وقُبيل صعوده إلى المنبر لإلقاء خطبته قدّم رئيس الجامعة كلمةً - التي كان من المفترض والمتعارف أن تكون ترحيباً بالضيف المدعو - تضمّنت اتهاماتٍ قاسيةً بل ومهينةً للرئيس نجاد. فقد

الأمم المتحدة وجامعة كولومبيا رسائل مدروسة لفئات ثلاث في المجتمع الأمريكي ومن ورائه المجتمع الغربي، وكُل الذين يسرون على نهج الغرب وطريقه.

الفئة الأولى تتبلور في القادة السياسيين على مستوى الدول ومن يدور في فلكرهم، وقد كان عمدة خطابه في الأمم المتحدة موجّهاً إلى هؤلاء، من خلال طرحه النظري للمفاهيم التي تعتقد بها الجمهورية الإسلامية في أهمّ المسائل العالقة، والتي تعني السياسة الدولية في عصرنا الحاضر، كاشفاً بذلك القناع عن الدعاوي المضلّة التي يقودها الغرب ضدّ الجمهورية الإسلامية، وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية.

والفئة الثانية المتمثلة بعموم المواطن الأمريكي؛ حيث بين في رسالته إليهم التأثير السلبي لماكنة الدعاية الأمريكية على الدّاخل الأمريكي، والتي بعرضها وجهاً واحداً للأحداث الحساسة في العالم

من دون أن تتناول الوجهة الأخرى تفقد مصداقيتها، ولا تكون بذلك تُعير أيّ احترام للمواطن الأمريكي الذي يبقى مخدّراً تحت تأثير البنج الإعلامي الأمريكي المدروس والمبرمج من قبل المخابرات الأمريكية (C. I. A).

والفئة الثالثة المتمثلة بالثّخب الثقافيّة في المجتمع الأمريكي، وبدأت رسالته إليهم بقبول الدّعوة الموجهة إليه من قبل جامعة كولومبيا؛ فإنّه ليس بمستبعدٍ على شخصٍ ذكيّ كالرئيس نجاد أن يخفى عليه ما يقصده المعدّون لهذه الدّعوة، خصوصاً من مثل جامعة ليست بعيدة عن تغلغل اللّوبي الصّهيوني سواء من قبل قاعدتها الطّلابيّة، أم ركيزتها التّدريسيّة، وعلى الرّغم من ذلك استجاب لهذه الدّعوة بقلب واثق مطمئن؛ ليبرهن بذلك على أنّ الجمهورية الإسلاميّة بمسؤوليها لا يتهرّبون من الوقوف على منابر الفكر والمنطق والبرهان، بل أثبتت التّجربة من خلال ردود الفعل المختلفة على

الإهانات التي وجهها رئيس الجامعة (بولينجر) أن القادة الذين يتخذون من الإسلام فكراً ومن المنطق منهجاً هم الذين ينتصرون في النهاية إذا أُتيح لهم مخاطبة عقول النخب المثقفة. فمهما كان التهويل والدعاية المضادة، ومهما كانت الأهداف السيئة من تلك الدعوة، فقد انقلب السحر على الساحر، ونجح نجاد في تحقيق أهدافه وإيصال رسالته إلى النخب المفكرة والمثقفة. وجاء كلام رئيس جامعة كولومبيا المهين ليمهد الطريق لأحمدي نجاد؛ إذ سادت حالة من الاشمئزاز من تصرف رئيس الجامعة ممّا سهّل القبول النفسي والتعاطف الطلابي مع نجاد، خصوصاً وأنّ الأخير لم ينزل إلى نفس المستوى من الأخلاق الذي نزل إليه رئيس الجامعة؛ ليعلق في مسلسل من الاتهامات المهينة، فقد كان التفاعل واضحاً مع خطاب نجاد من قبل جمهور القاعة.

ولقد كان لطلب الرئيس الإيراني بزيارة نصب مقرّ التجارة العالميّة

(Ground Zero) رسالة واضحة إلى جميع الطبقات والفئات في المجتمع الأمريكي الذي يتّهم الجمهورية الإسلامية بحماية الإرهاب عدواناً من البعض وجهلاً من البعض الآخر؛ حيث إنّ تقديم الاحترام للضحايا الذين سقطوا في هذا الهجوم المصبوغ بالصبغة الإرهابيّة - مع قطع النظر عن ملايسات وقوعه، ومن هو المستفيد منه - وإعلان تضامن الشعب الإيراني المسلم مع الشعب الأمريكي في محنته التي وقعت عليه في عام ٢٠٠١م، لا يتناسب مع تهمة الإرهاب أو حمايته التي يحاول الساسة في أمريكا إلصاقها بإيران، على طريق المثل السائر: (رمتني بدائها وانسلت).

هذا، ومن المواقف الملفتة للنظر والمؤيدة لموقف الرئيس نجاد ما صدر عن أمير دولة قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني خلال لقائه بالدكتور نجاد؛ حيث صرّح بأنّ الشعب الأمريكي والعالم سمع حديثكم في جامعة كولومبيا، وأكد حقانيّة

موقفكم. الشعب الإيراني، أو أيّ شعبٍ آخر،
ولعلّ من أهمّ آثار هذا الحدث هو
بعين الاعتبار إذا كانت معاملتها
أنّه قد ترسّخ في عقول الكثير ممن
لرئيس دولةٍ بهذا الشكل! حتى لو
أُتيحت له الفرصة بمشاهدة ما حدث
كان هذا الرئيس ذا مواقف تتسم
بالعدائيّة، فلا يصح معاملته بهذه
الطريقة المهينة بعد فرض كونه ضيفاً
مدعوّاً.

الدول الأخرى. كيف يتوقّع من
الولايات المتحدة أن تأخذ مصالح

* * *

المؤتمر الرابع للجمعية العامة

للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

□ إعداد: قسم العلاقات العامة

انعقد في العاصمة الإيرانية طهران الاجتماع الرابع للجمعية العامة للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، وذلك بمشاركة فعالة من شخصيات فكرية عن أكثر من مائة بلد من بلاد العالم، فضلاً عن المشاركين من داخل الجمهورية الإسلامية والذين يتجاوز عددهم الخمسمائة، ليصل مجموع المدعوين إلى ما يقارب الألف، وقد كان متوقعاً أن يُلبّي الدعوة منهم أكثر من ٧٥٪. ويتفوق هذا الاجتماع عن الاجتماعات التي سبقت من ناحية عدد المدعوين وعدد المشاركين وتنوع بلدانهم.

وإلى جانب ذلك أقيم المؤتمر الدولي للإمام السّجاد عليّ بن الحسين بن أبي طالب عليه السلام، وهو الإمام الرابع من أئمة أهل بيت النبوة صلوات الله عليهم أجمعين.

من نشاطات اليوم الأول:

افتتح رئيس الجمهورية الدكتور أحمدي نجاد في يوم السبت ٤ شعبان ١٤٢٨ الاجتماع الرابع للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، وأشار في كلمة الافتتاح إلى أن شعوب العالم تسير باتجاه تغيير مسارها صوب

عبودية الله تعالى، وتعزيز القيم المعنوية، معتبراً الأئمة المعصومين عليهم السلام أفضل محور لتوحيد الأمة الإسلامية.

وأشار إلى أنَّ العالم على أعتاب تحولات كبيرة، وأنَّ قوى الباطل في طريقها إلى الاندحار، وأضاف إلى أنَّ رسالة علماء الدين والمفكرين الإسلاميين اليوم تتعدى الحدود الجغرافية.

وركّز على أنَّ الدعوة إلى وجود منقذٍ مما أجمعت عليه جميع الطوائف الإسلامية، بل والديانات الإبراهيمية، وهذا من شأنه أن يتحوّل إلى محور عمليّ للوحدة في عصرنا الحاضر.

وأعلن نجاد أنَّ الجمهورية الإسلامية على استعداد تامّ للدفاع الشّامل عن الأهداف الإلهية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، بغية تعريف ثقافة أهل بيت النبوة.

واعتبر الرئيس نجاد أنَّ الممارسات الظّالمة والخسائر الجمة الناتجة عن الغزو الأمريكي للعراق بأنّها زادت من كراهية قوّات الاحتلال بين شعوب العالم مؤكّداً أنَّهم تورّطوا في

مستنقع يصعب عليهم الخروج منه، وبذلك تحمّلوا فشلاً ذريعاً حطّم هيبتهم وقصم ظهورهم.

ووصف الكيان الصّهيوني الغاصب بأنّه حامل لواء الشّيطان والليبرالية الغربية، والعدوان وطمس الحقائق، مضيفاً أنَّ القوى الباطلة اليوم قد أصبحت عاجزة عن حلّ قضايا العالم.

ومن الكلمات التي أُلقيت في اليوم الأوّل للمؤتمر كلمة آية الله الشّيخ مصباح اليزدي، التي ركّز فيها على رسالة الحقوق للإمام السّجاد عليه السلام، وممّا جاء فيها:

لقد بيّن الإمام السّجاد عليه السلام الحقوق في بداية بحثه، وأشار إلى أنَّ أساس الحقوق هو الحقّ الذي تنبع منه جميع الحقوق، أعني: حق الله.

وفي مرحلة أخرى يذكّر الإمام عليه السلام بحقّ الإنسان على نفسه، وهذه الحقوق بدورها تنقسم إلى قسمين:

الأوّل: حقوق أعضاء الإنسان.

والآخر: حقوق أفعاله وأعماله.

وقد طرح سماحته سؤالاً مفاده: ما معنى كلمة الحقوق في هذه الرسالة، وما هي العلاقة بينها وبين الحقوق المدنية في المجتمعات؟ وقال: إنَّ الحقوق التي يوردها الإمام السَّجَّادُ (عليه السلام) لا تحدّ بحدود الحقوق في عصرنا الحاضر، بل هي أوسع منها مفهوماً. ومن النُّكات المهمّة في هذه الحقوق التي جاءت في هذه الرسالة أنّه تنبع من حقّ الله تعالى، وهذا فرعٌ عقليٌّ يمكن إثباته وإن لم يكن الطَّرف الآخر متديناً بالإسلام.

وأشار سماحته إلى مسألة انبثاق واجب والتزام في قبال كلّ حقٍّ. وأكد على أنّ رسالة الحقوق تضمّنت أنّ الحقوق وإن كانت اعتبارية إلا أنّ رغبات الأفراد لا تؤثر في إيجاد الاعتبار، بل هناك أساسٌ واقعيٌّ يصنع على أساس هذا الاعتبار.

من نشاطات اليوم الثَّاني:

كان اليوم الثَّاني لهذا المؤتمر الأحد ٥ شعبان ١٤٢٨ هـ حافلاً بجملّة من النّشاطات التي يأتي على رأسها

استقبال قائد الثَّورة الإسلاميّة الإمام الخامني (عليه السلام) لأعضاء الجمعية العامّة للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام)، وقد أوردنا خطبته مفصّلاً في أوّل هذا العدد.

وفي مستهل اللقاء مع قائد الثَّورة قدّم حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد حسن أخري الأمين العام للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام) تقريراً مفصّلاً عن الاجتماع الرَّابع للمجمع، وذكر أنّ النّشاطات المستقبلية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام) تتمثل في افتتاح فضائية الثقلين، وتأسيس صندوقٍ للاستثمار المشترك، وإقامة مصرفٍ إسلاميٍّ، وإنشاء جمعياتٍ ومؤسساتٍ لحقوق الإنسان ونقابات.

محاور مناقشات اللّجان المنبثقة:

أ- محاور بحث اللّجنة الثقافيّة والاجتماعيّة:

١. بحث العلاقات الشيعيّة في إطارها الدّاخلي.
٢. بحث ظاهرة الإعلام.
٣. بحثٌ في موانع وتطوّر

- وازدهار مدرسة أهل البيت عليه السلام في العالم.
١. تأسيس المصرف الإسلامي.
٢. تقرير حول إنشاء شركة استثمارات «مجا» ومجال نشاطاتها.
٣. تأسيس اتحاد التجار والشركات الاقتصادية الشيعية للتعريف بها وزيادة النشاطات الاقتصادية في جميع أنحاء العالم.
٤. بيان تقرير تشكيل ملتقى المحسنين لأتباع أهل البيت عليه السلام.
٥. تقوية البنية الاقتصادية لأتباع أهل البيت عليه السلام، ومقارعة الفقر.
٦. تأسيس الغرفة التجارية الخاصة.
- ث - محاور بحوث لجنة العراق:
١. مستقبل العراق في ظل المتغيرات الحالية.
٢. الشيعة رمز الوحدة والانسجام في المجتمع الإسلامي.
٣. الوحدة والانسجام الإسلامي عنصر بقاء.
٤. العقبات والفرص أمام عراق اليوم.
- ج - محاور بحوث لجنة لبنان:
٤. بحث السبل المؤدية إلى التطور العلمي والثقافي لأتباع أهل البيت عليه السلام.
٥. بحث كيفية دعم أتباع أهل البيت عليه السلام عند وقوع الحوادث الطارئة.
٦. تأسيس المؤسسات الدولية للمثقفين من أتباع هذه المدرسة.
٧. تأسيس قناة الثقلين.
- ب - محاور بحث اللجنة السياسية (الحقوقية):
١. أهم العقبات التي تواجه أتباع أهل البيت عليه السلام.
٢. البحث في المناهج السياسية المناسبة.
٣. نقاط الضعف والعقبات القانونية لأتباع أهل البيت عليه السلام.
٤. إعلان وحدة العالم الإسلامي والأسس العامة للتعامل مع الأديان والفرق الإسلامية.
- ت - محاور بحوث اللجنة الاقتصادية:

١. انتصار حزب الله رمز البقاء.
 ٢. اتّساع ثقافة المقاومة في ظلّ انتصار حزب الله.
 ٣. انتصار المقاومة سرّ الاستقرار في المنطقة.
 ٤. النّصر والوحدة الإسلاميّة.
- وفي ختام هذا اليوم أُقيم مأدبة عشاء من قبل مؤسسة الغدير الدوليّة في قاعة وزارة الداخليّة.
- من نشاطات اليوم الثالث:**
- في البرنامج الصّباحي ليوم الإثنين ٦ شعبان ١٤٢٨ استمرّت بحوث اللّجان الأربعة (الثقافيّة والاجتماعيّة، السّياسيّة والحقوقيّة، الاقتصاديّة، اللّجنة الخاصة بالعراق ولبنان) ومناقشاتها.
- وفي البرنامج المسائي أُلقيت كلماتٌ لكُلّ من: ممثّل أفغانستان،
- وممثّل شبه القارة الهنديّة، وممثّل الدّول العربيّة، وممثّل أوروبا، وممثّل إفريقيا، وممثّل آسيا الوسطى والقفقاز، وممثّل أمريكا، وممثّل جنوب شرق آسيا.
- وفي الحفل الاختتامي من السّاعة الخامسة إلى السّابعة قدّمت مجموعة من التقارير من قبال اللّجان الأربعة، مضافاً إلى التقرير النسوي. ثمّ ألقى رئيس الهيئة العامّة للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام) آية الله مصباح الزدي كلمة، وقبل البيان الختامي ألقى الأمين العام للمجمع الشّيخ الأخ تري نبذة مختصرة عن مجريات المؤتمر في أيامه الثلاثة.
- وفي الختام اجتمع المشاركون على مأدبة عشاء أقامها على شرفهم رئيس بلدية العاصمة الدّكتور قاليباف.

بعض من إصدارات

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

□ إعداد: قسم التحقيق

تراه كاسمه (علي عليه السلام ميزان الحق) يتمحور حول الميزان الذي يُعرف به الحق وأهله عن طريق الرجوع إلى نصوص الأخبار التي وصلت إلينا عن النبي صلى الله عليه وآله.

ويتألف هذا الكتاب من مقدمة وتمهيد وخمسة عشر فصلاً، اختصت المقدمة بعد التعريف بموضوع الكتاب وأهميته بذكر فائدة في معرفة بعض الرموز والاصطلاحات التي استعملت في الكتاب تسهلاً للقارئ وتجنباً عن التّطويل.

وأما التمهيد، فتمحور في الإجابة عن السؤال التّالي: «هل معرفة الصحابة وتمييزهم بحاجة إلى

الكتاب: علي عليه السلام ميزان الحق.

تأليف: مُحَمَّدُ غُوزِلَ الأَمَدِي.

النّاشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، المعاونة الثقافية. الطبعة: الثانية.

تاريخ الطبع: ١٤٢٨ هـ.

عدد الصّفحات: ٥٧١ صفحة عادية.

من منطلق المسؤولية التي أخذها المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام على عاتقه للدّفاع عن حريم الرّسالة وحقائقها، ونشر فضائل النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطّيبين الطّاهرين عليهم السلام، يُقدّم لطلاب الحقيقة كتاباً جديداً في مضمونه فريداً في موضوعه؛ حيث

ميزان؟».

وفي الفصول الخمسة عشر اختصَّ كُلُّ واحدٍ منها بمزانة عليّ عليه السلام في شيءٍ من الأمور التي وردت في أحاديث النبي ﷺ، ففي الفصل الأول كان ميزاناً لمعرفة المؤمن من المنافق، وفي الثاني كان ميزاناً لمعرفة حبيب الله من بغيضه، وفي الثالث ميزاناً لمعرفة الذين يؤذون الله ورسوله، وفي الرابع ميزاناً لمعرفة سب الله ورسوله، وفي الخامس ميزاناً لمعرفة المطيع لله من العاصي، وفي السادس ميزاناً لمعرفة الملازم لدين الله من المفارق، وفي السابع ميزاناً لمعرفة المسالم لدين الله من المحارب، وفي الثامن ميزاناً لمعرفة ولي الله من عدوه، وفي التاسع ميزاناً لمعرفة حماة دين الله من البغاة، وفي العاشر ميزاناً لمعرفة الحق من الباطل، وفي الحادي عشر ميزاناً للهداية وبيان حقيقة الوحي بعد النبي ﷺ، وفي الثاني عشر ميزاناً للوصول إلى حقيقة الوحي، وفي الثالث عشر كان عليّ عليه السلام صاحب الأذن الواعية، وفي

الرابع عشر في بعض الصفات والخصائص التي أُعطيت له، وكمل الخامس عشر بذكر صفات أعظم مما تقدم.

وختم الكتاب ببعض الفهارس الفنية، من قبيل فهرس الآيات القرآنية والأحاديث والآثار، وفهرس الأشعار، وفهرس المصادر التي بلغت (١٨٣) مصدراً، وفهرس الموضوعات.

كما وتميّز هذا الكتاب بالموضوعية، وذكر الأحاديث من مصادرها الأصلية، فنسأل الله أن يتفّع به طلاب الحق والحقيقة، ويحشر كاتبه من عليّ عليه السلام.

* * *

الكتاب: تاريخ التشيع، من نشوئه حتى نهاية الغيبة الصغرى.

تأليف: غلام حسن محرمي.

ترجمة: كمال السيد.

تصحیح: محمد حافظ الزيدي.

النّاشر: المجمع العالمي لأهل

البيت ﷺ، المعاونة الثقافية.

تاريخ الطبع: ١٤٢٧هـ.

عدد الصفحات: ٣٤٣ صفحة
عادية.

صدر عن المعاونة الثقافية
للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام
الطبعة الأولى لترجمة كتاب: (تاريخ
التشيع، من نشوئه حتى نهاية الغيبة
الصغرى)، الذي كتبه مؤلفه الأستاذ
غلام حسن محرمي باللغة الفارسية،
وترجمه كمال السيد إلى العربية.

والكتاب قد أُعدَّ ليكون كتاباً
درسياً لطلاب العلم والحقيقة؛ فنراه
جامعاً لتسعة وعشرين درساً. كُلُّ
درسٍ منها يحتوي على أمورٍ ثلاثة:
شرح تفصيلي للمطلب الذي يتناوله،
خلاصة الدرس، الأسئلة
والتمرينات.

هذه، وقد توزعت مباحث هذه
الدروس على فصول ثمانية، موزعة
بالشكل التالي:

الفصل الأول: المصادر الرئيسية
للتاريخ حول التشيع.

الفصل الثاني: كيفية ظهور
الشيعة.

الفصل الثالث: فصول التحول
التاريخي للشيعة.

الفصل الرابع: الثورات الشيعة
والعلوية في العصر الأموي.

الفصل الخامس: الأبعاد الجغرافية
للتشيع.

الفصل السادس: الانشقاق داخل
التشيع.

الفصل السابع: الميراث العلمي
للسيعة.

الفصل الثامن: دور الشعراء
الشيعة في نمو وانتشار التشيع.

* * *

الكتاب: صلح الحسن عليه السلام وثورة
الحسين عليه السلام.

تأليف: الشيخ محسن الأراكي.
الناشر: المجمع العالمي لأهل
البيت عليه السلام، المعاونة الثقافية.

تاريخ الطبع: ١٤٢٨هـ.
الطبعة: الثانية.

عدد الصفحات: ١١٢ صفحة
رقعي.

طُبِعَ هذا الكتاب للمرة الأولى في

لندن سنة ١٤٢١هـ، وتصدت
المعاونية الثقافية في المجمع العالمي
لأهل البيت عليه السلام لطبعته الثانية بعد
الإضافات القيمة التي قام بها المؤلف
العلامة الأراكي.

ويعدُّ هذا الكتاب دراسةً
موضوعيةً لحدثين مهمين، أحدهما
غُلبت فيه حيثية الصلح على الحرب،
والآخر كانت الغلبة فيه لجانب
الحرب، مع كون كلا الحدثين قد
صدرا من معصومٍ مرتبطٍ بوحى
السماء. وقد تناول المصنّف هذين
الحدثين على ضوء السُنن التاريخية في
القرآن الكريم.

وانقسم البحث في هذه الدراسة
إلى مرحلتين:

المرحلة المرتبطة بصلح الإمام
الحسن عليه السلام، والمرحلة الثانية ما يرتبط
بثورة الإمام الحسين عليه السلام.

ومن العناوين الفرعية التي
جاءت في هذا الكتاب: سنن القيادة
الإلهية في التاريخ، سنّة المرحلية في
غيبة القائد، سنّة الإمام المستمرة،
الخلافة الإلهية تبدأ فردية ثم تنتهي

جماعية، سنّة الحضور والتّصدي في
القيادة الإلهية، سنّة الغيبة في القيادة
الإلهية بمراحلها الأربع: (غيبة
التّجميد، غيبة الهجرة، غيبة الاستتار،
سنّة الاستبدال)، مفهوم السلطة
والحكم، خلافة الأئمة، الخلافة
والشّهادة، الحسين عليه السلام الإمامة
المستخلفة، وفاء الإمام بالعهد.

* * *

الكتاب: قبسات من سيرة
الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وآله مع أهل
الكتاب.

تأليف: الشّيخ مُحَمَّد عِيدان
العبادي.

النّاشر: المجمع العالمي لأهل
البيت عليه السلام، معاونية الثقافية.
تاريخ الطّبع: ١٤٢٨هـ.
الطّبعة: الأولى.

عدد الصّفحات: ٧٠ صفحة
رقعي.

الكتاب محاولة هادفة لتسليط
الضوء على معاملة الرّسول
الأعظم صلّى الله عليه وآله مع أهل الكتاب.

وقد بحث المصنّف - جزاه الله خيراً -
في هذا الكتاب على الرّغم من صغر
حجمه المواضيع التّالية: أهل الكتاب
في شبه الجزيرة العربية، النّبيّ ﷺ يُبلّغ
رسالته لأهل الكتاب، المسلمون
يهاجرون إلى بلاد أهل الكتاب، النّبيّ
الأكرم ﷺ يكتب سياسة أهل
الكتاب، الرّسول الأعظم ﷺ يحاور
سياسة أهل الكتاب، تعاليم أنزلت
على الرّسول ﷺ في أهل الكتاب.

* * *

□ أسرة التحرير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لديهم الموارد العلميّة القيّمة،
والوسائل المعاصرة إلّا الشّيء اليسير
لتحصيل رغبتهم.

لا نبالي بتأخر وصول المجلّة إلينا،
والمهمّ أن نحصل عليها دائماً بتوفيق
الله، داعين الله أن يوفّقكم للشّبات في
مساعدتكم المحمودّة التي تبذلونها
من أجل نشر الإسلام ولغة القرآن
بين إخوانكم البعيدين عنكم،
وتفضّلوا بقبول فائق شكرنا...

مكتبة الشّيخ أبو بكر الإسلاميّة

لغتها عربيّة عالية، وأسلوبها

أدبيّ جميل

يطيب لنا أن نتقدّم بخالص

المتخصّصون في الدّراسات
الإسلاميّة واللّغة العربيّة
يحتاجون إلى رسالة الثّقلين أشدّ
الحاجة

سعادة رئيس التحرير لمجلّة
رسالة الثّقلين الموقّرة.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
ننتهز هذه الفرصة الطّيبة لكي
نشكركم الشّكر الجزيل من أعماق
قلوبنا على ما تفضلون على مكتبتنا
بإرسال مجلّتكم الغراء الممتلئة
بالأفكار الإسلاميّة منذ زمان، والتي
يحتاج إليها طلابنا الّذين يتخصّصون
في الدّراسات الإسلاميّة واللّغة
العربيّة أشدّ الحاجة؛ حيث لا يتوفّر

الشُّكر والتَّقدير والعرفان إلى أسرة «رسالة الثقلين» على ما بذلوه من جهودٍ جبَّارةٍ نحو جمع معلوماتٍ وفوائدٍ جَمَّةٍ على سطور هذه الرسالة الوجيزة، فضلاً عن اللُّغة المستعملة؛ حيث إنَّها عربيَّةٌ عاليَّةٌ ورفيعة، وبأسلوب أدبيٍّ جميل، إضافةً إلى أداءٍ بلاغيٍّ فريد، يؤدِّي إلى غاية المعنى المرتب.

حقيقةً لا أكاد أصفها؛ فإنَّها فوق الوصف المذكور، وأنا عاجزٌ عن التعبير عمَّا يحول في خواطري من مشاعر أخويَّة صادقة نحوكم...

وممَّا أعجبني بصورةٍ لافتةٍ العدد (٥٤)؛ حيث كان متضمناً لتداعيات الحرب على لبنان، وكيف توالى الانتصارات لصالح لبنان وأهله.

أخوكم: شيخ محسن على
إسحاق/ لجنة الأنصار - مسلم
نيروبي/ كينيا.

إصدارات المجمع العالمي
تخدم جميع المسلمين
سعادة رئيس التحرير..

نرسل إليكم جزيل عبارات الشُّكر والتَّقدير على هذا الجهد الكبير والعمل الموفَّق الَّذي أثمر هذه المجلَّة الغنيَّة الثَّرة المتميزة، كما نشكر المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ على إصداره لمثل هذه المطبوعات التي تخدم جميع المسلمين في كُلِّ أنحاء المعمورة، وفي مشارق الأرض ومغاربها، ونرجو لكم دوام التَّوفيق والسَّداد، وأنَّ يُكَلِّل خطاكم بالنَّجاح والتَّوفيق، ويثبتها للسَّير في طريق خدمة الأُمَّة الإسلاميَّة دينياً وثقافياً وحضارياً وفكرياً.

أيُّها السَّادة:

إنَّ أمتنا اليوم تحتاج إلى الارتقاء بالعلم في كُلِّ مجالاته، وإلى التطوير مع الثَّبات على الأصول، وإلى المعاصرة، مع الأخذ بالأصالة، والعصَّ عليها بالنواجز...

حقاً إنَّ نشر معارف أهل البيت ﷺ في أرجاء العالم لا يتحقَّق بالصُّورة المطلوبة إلَّا بعد أن تتكاتف الجهود، ويتمَّ التَّعاون من الجميع. ولكم منّا فائق الاحترام والتَّقدير.

رئيس الجمعية الأدبية الإسلامية
والثقافية للدعوة والإرشاد.

كوليبالي لاسينا
كوت ديفوارو

قرأها بشوقٍ ولهفةٍ، وكاد أن
يطير فرحاً

السَّلام عليكم ورحمة الله تعالى
وبركاته.

اللَّهُمَّ صلِّ على سيِّدنا مُحَمَّدٍ وعلى
آله وصحبه الكرام.

إلى حضرة السيِّد المحترم، رئيس
المجلة.

هذه أوَّل رسالةٍ أبعثها إليكم،
وذلك بعد أن قرأت أعداد مجلَّتكم
الغالية من عند الصديق السيِّد ناس
عبد الكريم، مدرِّس في المدرسة
الدينيَّة، بشوقٍ ولهفةٍ، فوجدتها تضمُّ
بين أسطرها الأسلوب الإسلامي
الحقيقي..

وإنَّ هذه المجلة لما قرأتها كدتُ
أطير فرحاً.

إنَّ كاتب هذه السُّطور يحمل في
جنباته الحبَّ والغرام لأهل
البيت ﷺ.

وصلته المجلة، وسُرَّ بها،
ويدعو لهيئة التحرير

ساحة الشَّيخ رئيس التحرير
حفظه الله:

قد وصلنا العدد الثالث
والخمسون، وسررنا به كثيراً، ودعونا
الله لكم أن يوفِّقكم لخدمة هذا الدِّين
الحنيف. كما وأسألكم أن ترسلوا لنا
«رسالة الثَّقَلين» مكرَّراً.

وفي الختام أسأل الله أن يحفظكم
وأهليكم، ويُطيل في عمركم، ويبارك
في حياتكم، ويرزقكم رزقاً طيباً..
أخوكم في الدِّين:

الدكتور مُحَمَّد إبراهيم صديقي،
الرئيس العام لندوة الدَّعوة
الإسلامية/ النِّيبال.

«رسالة الثَّقَلين» بدورها تتقدَّم من
جميع قرائها الأفاضل بمزيد من

الشُّكر والامتنان على عواطفهم الجياشة، وتعدّهم بأن تبقى عند حسن ظنّهم في انتخاب مواضيع مجلّتهم التي تغترف من منابع الإسلاميّة الأصيلة، وتعالج ما يهمّ أمّتنا الإسلاميّة عن طريق الفكرة الصّافية، والبرهان القاطع، المستمدّين من القرآن وسنّة النّبيّ الأعظم ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

كما وتفتح أبوابها لجميع مشاركاتكم الفكرية والتحقيقية، سواء الذي يرتبط منها بالعلم

والمعرفة أم الذي يتناول معلوماتٍ عن النّشاطات الإسلاميّة في البلاد الإسلاميّة المختلفة، أم الذي يعود إلى دراسات حول شخصيات إسلاميّة ماضية أو معاصرة قد ساهمت بشكلٍ أو بآخر في تفعيل الحركة الإسلاميّة، وبثّ روح التّآخي بين أبناء الأمة الواحدة.

وسلامٌ من الله عليكم، ورحمة الله وبركاته..

فهرست

السنة الرابعة عشرة

العدد الثالث والخمسون:

اسم المؤلف	عنوان المقالة	الكاتب	السمة
كلمة التحرير	عام النبي الأعظم ﷺ، الأسباب والدلالات	معين دقيق	رئيس التحرير
(ملف العدد): رسول البشرية مُحَمَّد ﷺ	زيارة النبي ﷺ في المصادر والمذاهب الإسلامية	مصطفى جعفر بيته فرد	أستاذ في الحوزة العلمية، عضو الهيئة العلمية في المركز العالمي للدراسات الإسلامية
-----	البشارة بخاتم النبیین في التوراة والإنجيل	علي الشَّيخ	ماجستير فلسفة وأديان / العراق
-----	النبي الأعظم ﷺ في	عصري الباني / علي	

	محسن	نصوص نهج البلاغة	
مستشار وخبير في القانون العام والتّظيم الإداريّة	علي العلي	قيادة النّبي مُحَمَّد ﷺ، قراءة في الأسلوب والمنهج الإداري	-----
باحث إسلامي / العراق	حميد البغدادي	إطالة على آخر غزوات النّبي الأكرم ﷺ	-----
	إعداد: قسم العلاقات	رسول البشرية في حوار مع العلامة القرشي	-----
باحث ومفكّر إسلامي، رئيس مركز الدّراسات العلميّة للمجمع العالمي للتّقريب	أحمد مبلّغي	وظائف الأقليات المسلمة على ضوء قاعدتي وجوب الهجرة وحرمة التّعرب	دراسات
أستاذة اللّغة العربيّة والحضارة الإسلاميّة في كُليّة الآداب بجامعة جنيّف	فوزيّة العشماوي	حقوق المرأة في الإسلام مقارنة بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان	-----
باحث إسلامي / العراق	مُحمّد الطّاعلي	التّبليغ المقوّمات والمعوقات	-----
أستاذ في الحوزة	معين حسن دقيق	فكرة المهدويّة تحت	-----

العلمية		المجهر، دراسة في نظرية أحمد أمين	
باحث ومحقق إسلامي، المشرف العام على مركز الهدى للدراستات الإسلامية/ البحرين	محمد صنفور	إشكالية السجود على التراب والجواب عنها	شبهة ورد
	إعداد: قسم المنشورات	عرض مقارن وموجز لتفسيري العلامة <small>رحمته الله</small> في الميزان والبيان	تعريف بكتاب
	إعداد: علي أحمد الحسن	ردود فعل العالم الإسلامي تجاه تصريحات البابا الأخيرة	تقرير
	إعداد: قسم المنشورات	تعريف ببعض منشورات المجمع	من منشورات المجمع العالمي لأهل البيت <small>عليه السلام</small>

العدد الرابع والخمسون:

اسم المؤلف	عنوان المقالة	الكاتب	السمة
كلمة التحرير	تموز شهر التجليات	معين دقيق	رئيس التحرير

دراساتُ فكريّة	الوعد الصّادق، دلالاتٌ ودروس	مُحمّد مهدي الآصفي	عالم دين، ومفكّر إسلامي كبير
-----	تأملات حول المفهوم الثّوري في الإسلام	عبد الكريم آل نجف	باحث وكاتب إسلامي / العراق
-----	رجال الله في لبنان	حسن مُحمّد فياض حسين	باحثٌ وعالمٌ ديني / لبنان
-----	استلهام النّصر من نصوص نهج البلاغة	عصري الباني	ماجستير في الفقه والمعارف الإسلاميّة
-----	قراءةٌ قانونيّةٌ للمقاومة والإرهاب	علي العلي	مستشار وخبير في القانون العام والنّظم الإداريّة
مقابلة خاصة	معالم النّصر الرّباني، في حوارٍ مع العلامة مصباح اليزدي	إعداد: قسم التّرجمة	
تحليلاتٌ ورؤى سياسيّة	تداعيات الحرب في المجتمع السّياسي الإسرائيلي	محمود حيدر	باحثٌ في الفكر السّياسي والفلسفي، رئيس تحرير مدارات غربيّة
-----	حزب الله لبنان، واقعٌ أصيلٌ في حياة الأُمّة	ديف سالار	خبيرٌ في الشّؤون السّياسي للشرق الأوسط

-----	المقاومة الإسلامية، لغة الاستيعاب ومنطق الميدان	مُحمَّد ربيع	باحث ومتابع في الفكر السياسي / العراق
وجهة نظر	مناقشة فتوى الشَّيْخ عبد الله الجبرين	فيصل المولوي	داعية ومفكر إسلامي، الأمين العام للجماعة الإسلامية في لبنان
متابعات	لبنان في كلام الإمام والقائد	وائل العلي	
-----	الجرائم الصَّهْيُونِيَّة على ضوء بيان القائد	محسن الأراكي	عالمٌ ومفكرٌ ديني / إيران
-----	نصر الله من النَّجاح إلى النَّصر	علي محسن	
المقاومة وشعوب العالم	الجزائر وحرب تموز	بنكروف بلاحة	أستاذ جامعي / الجزائر
-----	كُلُّنا مقاومة	عفاف عنيبة	كاتبة وصحافية جزائرية
-----	الشَّعب اليوناني والدِّفاع عن حزب الله	مارينكيس إلويزبولو	إعلامي يوناني
أدب المقاومة	رسالة مقاوم إلى أهل القلم	نور العامليَّة	
-----	أحرفٌ خجلى	عبد الهادي المخوضر	باحثٌ وشاعرٌ / مملكة

البحرين			
باحثٌ وشاعرٌ/ سوريا	عبد الله الأسعد	ظفر الجنوب	-----

العدد الخامس والخمسون:

اسم المؤلف	عنوان المقالة	الكاتب	السمة
كلمة التحرير	إحياء مراسم عاشوراء، رسالة توحيد لا رسالة افتراق	معين دقيق	رئيس التحرير
ملف العدد: الإمام الحسين عليه السلام عبرة وعبرة	عاشوراء في خطابات القادة	إعداد: قسم الأرشفة	
-----	معالم الخطاب السياسي لأنصار الحسين عليه السلام	علي الموسوي	باحثٌ في الفكر الإسلامي / لبنان
-----	مرض الإمام السَّجادة عليه السلام والعناية الإلهية	بسام حسين	باحثٌ إسلاميٌّ / لبنان
-----	المرأة، موقفها ودورها في عاشوراء	جوادي آملي	مفكر وفيلسوف إسلامي كبير

-----	قراءة في وقعة الطّف لأبي مخنف، بتحقيق اليوسفي الغروي	أحمد أبو زيد	
-----	الحسين في الفكر المسيحي، في حوار مع المفكر المسيحي أنطوان بارا	إعداد: قسم الترجمة	
-----	من أنباء عاشوراء	إعداد: علي أحمد الحسن	
-----	لسان حال المولى أبي عبد الله الحسين <small>عليه السلام</small> / شعر	حسن المرعي	شاعرٌ مبدعٌ / سوريا
دراساتٌ فكريّة	حجّة سيرة أهل البيت <small>عليهم السلام</small> في المسائل السّياسيّة والاجتماعيّة	حسين عبد الحمّدي	رئيس قسم التّاريخ في كلّية الفقه والمعارف الإسلاميّة / إيران
-----	الجرى والتّطبيق عند مفسّري الإماميّة، قراءة في المفهوم والثّمرات	معين دقيق العاملي	أستاذ في الحوزة العلميّة
-----	في الكلام المستأنف على مقولة الاستنهاض	محمود حيدر	باحثٌ في الفكر السّياسي والفلسفي، رئيس تحرير مدارات غربيّة

-----	أخلاقيّة الدّعوة عند النبي الأكرم ﷺ	حسين الرّاضي	باحثٌ في الفكر الإسلامي / السّعودية
-----	أصحاب العقائد الدّينيّة في مجتمعات المسلمين	أحمد عبد الرّحيم السّايح	أستاذ العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر وقطر وأمّ القرى
ردودٌ سريعة		أسرة التحرير	
طلب مقالة	محاوّر الكتابة في الأعداد القادمة		

العدد السّادس والخمسون:

اسم الملف	عنوان المقالة	الكاتب	السمة
كلمة التحرير	الإنصاف طريقٌ إلى تحقيق الإنسجام	معين دقيق	رئيس التحرير
ملف العدد: أطروحة الإنسجام الإسلامي	من أريج القيادة الحكيمة	إعداد: قسم الأرشفة	
-----	مذاكرات في التقريب والوحدة، المنهج التّقريبي السّليم	مرتضى علي الباشا	باحثٌ إسلاميّ/ السّعوديّة

-----	مشكلة التقريب وأزمة المقاربات، رؤية موجزة حول المقاربة التاريخية والأصولية	إدريس هاني	باحث في الفكر الإسلامي، وناشط في مسائل التقريب/ المغرب
دراسات فكرية	الإمام الحميني <small>رحمته الله</small> وكرامة الإنسان	جوادي آملي	مفكر وفيلسوف إسلامي كبير
-----	البيعة في المنهج الإسلامي، أسس ومبادئ ومقومات	سعيد كاظم العذاري	باحث إسلامي/ العراق
-----	وقفه موضوعية مع حديث البضعة	باقر الفخار	كاتب وباحث في الفكر الإسلامي/ إيران
-----	التفسير الموضوعي والكلام الحديث	شكيب علي بن بديرة	باحث إسلامي وأستاذ في الاقتصاد المعاصر والإسلامي/ تونس
بحوث كلامية وقرآنية	مبدأ الهداية الربانية، معالم النظرية، خصائص المسيرة، أهم المنجزات	منذر الحكيم	باحث وأستاذ في الحوزة العلمية/ قم
-----	مفهوم الإحباط على ضوء القرآن الكريم	خالد الغفوري	رئيس تحرير مجلة فقه أهل البيت <small>عليه السلام</small>

رئيس التحرير	معين دقيق العاملي	تنزيه القرآن لنبي الله هارون <small>عليه السلام</small> ، شبهة وجواب	-----
	أبو علي العاملي	فتح الإسلام، الورقة الأمريكية الجديدة في لبنان	وجهة نظر
	أبو حسن	أبو خالد الكابلي، من حواري الإمام السجاد	رجال صدقوا
	علي أحمد الحسن	إطالة مختصرة على كتاب رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد السّاجدين <small>عليه السلام</small>	تحقيقات
	إعداد: قسم التحقيق	مكتبة السيّد المرعشي، نتائج ضخمة وصرح ثقافي	-----
	حسن دقيق	مارون الراس عصية على الأرجاس	حكايات الانتصار
	هيئة التحرير	العلامة اللنكراني، رجل العلم والجهاد	نعيّ وتعزية
	هيئة التحرير	الشيفرة القرآنية / موسوعة الصّحيفة السّجادية	متابعات ثقافية

قسمة الاشتراك

الاسم :
العنوان :
المدينة :
البلد :
المهنة :
مدة الاشتراك :
ابتداءً من :
عدد النسخ :

رسالة الثقلين

مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك
الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر
☐ الجمهورية الإسلامية في إيران
(بالريال) ٤٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠
☐ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي
٣٠ ١٥ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: ☐ صك ☐ صك بريدي ☐ حوالة بريدية
أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥

.....
الاشتراكات:

☐ داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٤٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران - قم - بنك تجارت / شعبة سميّة، شارع سميّة - رقم الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ - ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام).

☐ خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم - بنك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ - ٢٧٠١ (بالدولار).

ثمن النسخة:

☐ الجمهورية الإسلامية في إيران ١٠٠٠٠ ريال.
☐ وفي باقي دول العالم ٧ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 1 5, No . 5 7, Autumn 2 0 0 7